ذخائر العرب
٦٩

المختصر في أخبار البشر

لأبي الفدا

تقديم
الدكتور حسين مؤنس
تحقيق
الدكتور محمد زينهم عزب
الأستاذ/ يحيى سيد حسين

الجزء الثالث

دار المعارف

ذخائر العرب
(٦٩)

المختصر فى أخبار البشر

للملك المؤيد عماد الدين إسماعيل
ابن على المعروف بابى الفدا
٦٧٢ - ٧٣٢ هـ/ ١٢٧٣ - ١٣٣١ م

تقديم الدكتور حسين مؤنس

تحقيق
الدكتور محمد زينهم محمد عزب
الأستاذ يحيى سيد حسين

الجزء الثالث

دار المعارف

المختصر في أخبار البشر
لأبي الفدا

الجزء الثالث
من كتاب المختصر فى أخبار البشر

وهو ذلك التاريخ الذى سرت بذكره الركبان
وأثنى عليه أرباب هذا الفن فى كل زمان
حتى كان عمدتهم الذى يرجعون فى إحقاق
الحق إليه ، ويعولون فى مهمات
منقولاتهم عليه .

تأليف الملك المؤيد عماد الدين
إسماعيل أبى الفدا
صاحب حماة
المتوفى سنة اثنتين
وثلاثين وسبعمائة
هجرية رحمه الله
تعالى آمين

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر أخبار الإسماعيلية بالشام وقتلهم وحصر الفرنج دمشق

كان قد سار رجل من الإسماعيلية يسمى بهرام بعد قتل خاله إبراهيم الإسترابادى ببغداد إلى الشام ودخل دمشق ، ودعا الناس إلى مذهبه ، وأعانه وزير تورى صاحب دمشق وهو طاهر بن سعد المزدغانى ، وسلم إلى بهرام قلعة بانياس ، فعظم أمر بهرام بالشام ، وملك عدة حصون بالجبال ، وجرى بين بهرام وبين أهل وادى التيم مقاتلة ، فقتل فيها بهرام ، وقام مقامه بقلعة بانياس رجل منهم يسمى إسماعيل ، وأقام الوزير المزدغانى عوض بهرام بدمشق رجلاً منهم يسمى أبا الوفا ، وعظم أمر أبي الوفا حتى صار الحكم له بدمشق ، فكاتب أبو الوفا الفرنج على أن يسلم إليهم دمشق ويسلموا إليه عوضها مدينة صور ، واتفقوا على ذلك ، وأن يكون قدوم الفرنج إلى دمشق يوم الجمعة ، ليجعل أبو الوفا أصحابه على أبواب جامع دمشق ، وعلم تاج الملوك تورى صاحب دمشق بذلك ، فاستدعى وزيره المزدغانى وقتله وأمر بقتل الإسماعيلية الذين بدمشق ، فثار بهم أهل دمشق وقتلوا من الإسماعيلية ستة آلاف نفر ، ووصل الفرنج إلى الميعاد ، وحصروا دمشق فلم يظفروا بشىء ، وكان البرد والشتاء شديدًا ، فرحلوا عن دمشق شبه المنهزمين ، وخرج تورى بعسكر دمشق فى أثرهم ، وقتلوا منهم عدة كثيرة ، وأما إسماعيل الباطنى الذى كان فى قلعة بانياس ، فإنه سلم قلعة بانياس إلى الفرنج وصار معهم .

ذكر ملك عماد الدين زنكى حماة

فى هذه السنة : ملك عماد الدين زنكى حماة ، وسببه أنه كان بحماة (سونج) ابن تورى نائبًا بها عن أبيه تورى ، وكان قد سار عماد الدين زنكى من الموصل إلى جهة الشام وعبر الفرات ، وأرسل إلى تورى يستنجده على الفرنج ، فأرسل تورى إلى ولده سونج بحماة يأمره بالمسير إلى عماد الدين زنكى فسار سونج إليه ، فغدر عماد الدين زنكى بسونج وقبض عليه ، وارتكب أمرًا شنيعًا من الغدر ونهب خيامه والعسكر الذين كانوا صحبته ، واعتقل سونج وجماعة من

مقدمى عسكره بحلب ، ولما قبض عماد الدين زنكى على سونج سار من وقته إلى حماة وملكها لخلوها من الجند ، ثم رحل عنها إلى حمص وحاصرها مدة ، وكان قد غدر أيضًا بصاحبها قيرخان بن قراجا ، وقبض عليه وأحضره صحبته إلى حمص ممسوكا ، وأمره أن يأمر ابنه وعسكره بتسليم حمص فأمرهم قيرخان فلم يلتفتوا إليه ، فلما أيس زنكى منها رحل عنها عائدًا إلى الموصل ، واستصحب سونج وأمراء دمشق معه ، واستمر بهم معتقلين ، وكتب تورى إليه وبذل له مالاً فى ابنه سونج فلم يتفق حال .

ذكر غير ذلك

وفى هذه السنة : ملك الفرنج حصن القَدْمُوس .

وفيها : توفى أبو الفتح أسعد بن أبى نصر الفقيه الشافعى ، مدرس النظامية وله طريقة مشهورة فى الخلاف ، وكان له قبول عظيم عند الخليفة والناس .

وفيها : توفى الشريف حمزة بن هبة الله بن محمد العلوى الحسينى النيسابورى ، سمع الحديث الكثير ورواه ، ومولده سنة تسع وعشرين وأربعمائة ، وجمع بين شرف النسب وشرف النفس والتقوى ، وكان زيدى المذهب .

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وخمسمائة :

ذكر فتح الأثَارِب

فيها : جمع عماد الدين زنكى عساكره ، وسار من الموصل إلى الشام ، وقصد حصن الأثارب لشدة ضرره على المسلمين ، فإن أهله الفرنج كانوا يقاسمون أهل حلب على جميع أعمال حلب الغربية حتى على رحى بظاهر باب الجنان بينها وبين سور حلب عرض الطريق ، وأظن أن اسمها العربية ، وكان أهل حلب معهم فى ضيق شديد ، فسارِ عماد الدين إليه ونازله ، وجمع الفرنج فأرسلهم وراجلهم وقصدوا عماد الدين ، فرحل عماد الدين عن الأثارب وسار إلى ملتقاهم ، فالتقوا واقتتلوا أشد قتال ، ونصر الله المسلمين وانهزم الفرنج ، ووقع كثير من فرسانهم فى الأسر ، وكثر القتل فيهم - ولما فرغ المسلمون من ظفرهم عادوا إلى الأثارب فأخذوه عنوة ، وقتلوا وأسروا كل من فيه ، وخرب عماد الدين فى ذلك الوقت حصن الأثارب المذكور وجعله دكا ، وبقى خرابًا إلى الآن .

ذكر وفاة الآمر بأحكام الله العلوى

فى هذه السنة : فى ذى القعدة قتل الآمر بأحكام الله العلوى أبو على منصور بن المستعلى أحمد بن المستنصر معد العلوى صاحب مصر ، وكان قد خرج إلى مستنزه له ، فلما عاد وثب عليه الباطنية فقتلوه ، وكانت ولايته تسعًا وعشرين سنة وخمسة أشهر وخمسة عشر يومًا ، وعمره أربعًا وثلاثين سنة ، وهو العاشر من ولد المهدى عبيد الله ، وهو العاشر من الخلفاء العلويين ، ولما قتل الآمر لم يكن له ولد ، فولى بعده ابن عمه الحافظ عبدالمجيد بن أبى القاسم ابن المستنصر بالله ولم يبايع أولا بالخلافة بل كان على صورة نائب لانتظار حمل إن ظهر للآمر ، ولما تولى الحافظ استوزر أبا على أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالى ، فاستبد بالأمر وتغلب على الحافظ وحجر عليه ، ونقل أبو على ما كان بالقصر من الأموال إلى داره ، ولم يزل الأمر كذلك إلى أن قتل أبوعلى سنة ست وعشرين على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : كان الرصد فى دار السلطنة شرقى بغداد ، تولاه البديع الأسطرلابى ولم يتم .

وفى هذه السنة : ملك السلطان مسعود قلعة ألموت .

وفيها : توفى إبراهيم بن عثمان بن محمد الغزى عند قلعة بلخ ودفن فيها ، وهو من أهل غزة ومولده سنة إحدى وأربعين وأربعمائة ، وهو من الشعراء المجيدين ، فمن قصائده المشهورة قصيدته التى مدح فيها الترك التى أولها :

أمط عن الدرر الزهر اليواقيتا ... واجعل لحج تلاقينا مواقيتا

ومنها :

فى فتية من جيوش الترك ماتركت ... للرعد كراتهم صوتًا ولا صيتا

قوم إذا قوبلوا كانوا ملائكة ... حسنًا وإن قوتلوا كانوا عفاريتا

ثم ترك الغزى قول الشعر وغسل كثيرًا منه وقال :

قالوا هجرت الشعر قلت ضرورة ... باب البواعث والدواعى مغلق

خلت البلاد فلا كريم يرتجى منه النوال ولا مليح يعشق
ومن العجائب أنه لايشترى ويخان فيه مع الكساد ويسرق

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وخمسمائة :

فيها : أسر دُبَيْس بن صدقة ، وسبب ذلك مسيره من العراق إلى صرخد ، لأن صرخد كان صاحبها خصيًّا وكانت له سرية ، فتوفى الخصى فى هذه السنة ، واستولت سريته على قلعة صرخد وما فيها ، وعلمت أنه لا يتم لها ذلك إن لم تتصل برجل يحميها ، فأرسلت إلى دبيس ابن صدقة تستدعيه للتزوج به وتسلم إليه صرخد وما فيها من مال وغيره ، فسار دبيس من العراق إليها ، فضل به الأدلاء بنواحى دمشق ، فنزل بناس من كلب كانوا شرقى الغوطة ، فأخذوه وحملوه إلى تاج الملوك تورى بن طغتكين صاحب دمشق فى شعبان من هذه السنة فحبسه تورى ، وسمع عماد الدين زنكى بأسر دبيس ، فأرسل إلى تورى يطلبه ويبذل له إطلاق ولده سونج ومن معه من الأمراء الذين غدربهم زنكى وقبضهم .. كما تقدم ذكره — فأجاب تورى إلى ذلك ، وأفرج زنكى عن المذكورين وتسلم دبيس ، فأيقن دبيس بالهلاك لأنه كان كثير الوقيعة فى عماد الدين زنكى ، ففعل معه زنكى بخلاف ما كان يظن ، وأحسن إلى دبيس وحمل إليه الأموال والسلاح والدواب وقدمه على نفسه ، ولم يزل دبيس مع عماد الدين زنكى حتى انحدر معه إلى العراق على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وسمع الخليفة المسترشد بقبض دبيس ، فأرسل يطلبه مع سديد الدولة ابن الأنبارى ، وأبى بكر بن بشر الجزرى فأمسكهما عماد الدين زنكى وسجن ابن الأنبارى ، ووقع منه فى حق ابن بشر مكروه قوى ، ثم شفع المسترشد فى ابن الأنبارى فأطلقه .

ذكر وفاة السلطان محمود وملك ابنه داود

فى هذه السنة : فى شوال توفى السلطان محمود بن محمد بن ملك شاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بهمدان ، فأقعد وزيره أبو القاسم الأنساباذىُّ ابنه داود بن محمود فى السلطنة ، وصار أتابكه الأقسنقر الأحديلى ، وكان عمر السلطان محمود لما توفى نحو سبع وعشرين سنة ، وكانت ولايته للسلطنة اثنتى عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يومًا ، وكان حليمًا عاقلاً يسمع المكروه ولا يعاقب عليه مع قدرته عليه .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : وثبت الباطنية على تاج الملوك تورى بن طغتكين صاحب دمشق فجرحوه جرحين ، برئ أحدهما وبقى الآخر ينسر عليه ، إلا أنه يجلس للناس ويركب على ضعف فيه .

وفيها : توفى حماد بن مسلم الرحبى الرياش الزاهد المشهور ، صاحب الكرامات وسمع الحديث وله أصحاب وتلاميذ كثيرة ، وكان أبو الفرج بن الجوزى يذمه ويثلبه .

ثم دخلت سنة ست وعشرين وخمسمائة :

فيها : قتل أبو على بن الأفضل بن بدر الجمالى وزير الحافظ لدين الله العلوى ، وكان أبو على المذكور قد حجر على الحافظ وقطع خطبة العلويين وخطب لنفسه خاصة ، وقطع من الأذان حى على خير العمل ، فنفرت منه قلوب شيعة العلويين وثار به جماعة من المماليك وهو يلعب بالكرة فقتلوه ونهبت داره ، وخرج الحافظ من الاعتقال ، ونقل ما بقى فى دار أبى على إلى القصر ، وبويع الحافظ فى يوم قتل أبى على بالخلافة ، واستوزر أبا الفتح يانسى الحافظى وبقى يانسى مدة قليلة ومات ، فاستوزر الحافظ ابنه الحسن بن الحافظ وخطب له بولاية العهد ، ثم قتل الحسن المذكور سنة تسع وعشرين وخمسمائة على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفى هذه السنة : تحرك السلطان مسعود بن محمد فى طلب السلطنة وأخذها من ابن أخيه ابن محمود ، وكذلك تحرك سلجوق بن محمد صاحب فارس أخو مسعود وأتابكه قراجا الساقى فى طلب السلطنة ، وقدم سلجوق إلى بغداد واتفق الخليفة المسترشد معه واستنجد مسعود بعماد الدين زنكى فسار إلى بغداد لقتال الخليفة وسلجوق ، فقاتله قراجا أتابك سلجوق ، وانهزم زنكى إلى تكريت وعبر منها ، وكان الدزدار بها إذْ ذَاك نجم الدين أيوب ، فأقام له المعابر فعبر عماد الدين وسار إلى بلاده ، وكان هذا الفعل من نجم الدين أيوب سببًا للاتصال بعماد الدين زنكى حتى ملك بنو أيوب البلاد .

ثم اتفق الحال بين مسعود وأخيه سلجوق والخليفة المسترشد على أن تكون السلطنة لمسعود ، ويكون أخوه سلجوق شاه ولى عهده ، وعادوا إلى بغداد ، ونزل مسعود بدار السلطنة وسلجوق بدار الشحنكية ، وكان اجتماعهم فى جمادى الأولى من هذه السنة – ثم إن السلطان سنجرسار من خراسان ومعه طُغريل ابن أخيه السلطان محمد لأخذ السلطنة من مسعود ، وجرى المصاف بينه وبين مسعود وسلجوق فانهزم مسعود .

ثم إن السلطان سَنْجَر بذل الأمان لمسعود فحضر عنده ، وكان قد بلغ خونج ، فلما رآه سنجر قبله وأكرمه وعاتبه وأعاده إلى كنجه ، وأجلس الملك طغريل فى السلطنة ، وخطب له فى جميع البلاد ، ثم عاد سَنْجَر إلى خراسان فوصل إلى نيسابور فى رمضان من هذه السنة .

ذكر الحرب بين المسترشد الخليفة وبين عماد الدين زنكى

فى هذه السنة : سار عماد الدين زنكى ومعه دُبَيْس بن صدقة وعدى الخليفة إلى الجانب الغربى ، وسار ونزل بالعباسية ، ونزل عماد الدين بالمنارية من دجيل ، والتقيا بحصن البرامكة فى سابع وعشرين رجب ، فحمل عماد الدين على ميمنة الخليفة فهزمها ، وحمل الخليفة بنفسه وبقية العسكر فانهزم دُبَيْس ، ثم انهزم عماد الدين وقتل بينهم خلق كثير .

ذكر وفاة تورى صاحب دمشق

فى هذه السنة : توفى تاج الملوك تورى بن طغتكين صاحب دمشق بسبب الجرح الذى كان به من الباطنية على ماتقدم ذكره ، فتوفى فى حادى وعشرين رجب ، وكانت إمارته أربع سنين وخمسة أشهر وأياما ، ووصى بالملك بعده لولده شمس الملوك إسماعيل ، ووصى ببعلبك وأعمالها لولده شمس الدولة محمد ، وكان تورى شجاعًا سد مسد أبيه ، ولما استقر إسماعيل ابن تورى فى ملك دمشق وأعمالها ، واستقر أخوه محمد فى ملك بعلبك ، استولى محمد على حصن الرأس ، وحصن اللبوة ، وكاتب إسماعيل صاحب دمشق أخاه محمدًا صاحب بعلبك فى إعادتها ، فلم يقبل محمد ذلك ، فسار إسماعيل وفتح حصن اللبوة ، ثم فتح حصن الرأس وقرر أمرها ، ثم سار إلى أخيه محمد وحصره ببعلبك وملك المدينة وحصر القلعة ، فسأله محمد فى الصلح فأجابه وأعاد عليه بعلبك وأعمالها ، واستقرت أمورها ، وعاد إسماعيل إلى دمشق مؤيدًا منصورًا .

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وخمسمائة :

فيها : سار شمس الملوك إسماعيل بن تورى صاحب دمشق على غفلة من الفرنج إلى حصن بانياس ، فملك مدينة بانياس بالسيف ، وقتل وأسر من كان بها ، وحاصر قلعة بانياس وتسلمها بالأمان .

وفى هذه السنة : جمع السلطان مسعود العساكر وانضم إليه ابن أخيه داود بن محمود وسار السلطان مسعود إلى أخيه طُغريل ، وجرى بينهما قتال شديد انهزم فيه طُغريل ، واستولى مسعود على السلطنة وتبع أخاه طُغريل يطرده من موضع إلى موضع حتى وصل إلى الرى ، واقتتلا ثانيا فانهزم طُغريل أيضًا وأسر جماعة من أمرائه .

وفيها : سار الخليفة المسترشد بعساكر بغداد وحصر الموصل ثلاثة أشهر ، وكان عماد الدين زنكى قد خرج من الموصل إلى سنجار وحصن الموصل بالرجال والذخائر ، ثم رحل الخليفة عن الموصل وعاد إلى بغداد ووصل إليها فى يوم عرفة ولم يظفر منها بطائل .

ذكر ملك شمس الملوك إسماعيل
مدينة حماة

وفى هذه السنة : سار إسماعيل بن تورى صاحب دمشق من دمشق فى العشر الآخر من رمضان إلى حماة وهى لعماد الدين زنكى من حين غدر بسونج بن تورى ، وأخذها منه حسبما تقدم ذكره فى سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، فحصرها شمس الملوك إسماعيل وقاتل من بها يوم عيد الفطر وعاد ولم يملكها ، فلما كان الغد بكر إليهم وزحف من جميع جوانب البلد فملكه عنوة وطلب من به الأمان فأمنهم وحصر القلعة ولم تكن إذ ذاك حصينة ، فإنها حصنت فيما بعد ، لأن تقى الدين عمر ابن أخى السلطان صلاح الدين قطع جبلها وعملها على ما هى عليه الآن فى سنين كثيرة ، فلما حصرها شمس الملوك إسماعيل عجز النائب بها عن حفظها فسلمها إليه فاستولى عليها وعلى ما بها من ذخائر وسلاح ، وذلك فى شوال من هذه السنة ، ولما فرغ شمس الملوك إسماعيل من حماة سار إلى شَيْزَر وبها صاحبها من بنى منقذ ، فنهب بلدها وحصر القلعة فصانعه صاحبها بمال حمله إليه فعاد عنها ، وسار إلى دمشق ووصل إليها فى ذى القعدة من هذه السنة .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : اجتمعت التركُمان وقصدوا طرابلس ، فخرج من بها من الفرنج إليهم واقتتلوا فانهزم الفرنج ، وسار القُمّص صاحب طرابلس ومن فى صحبته فانحصروا فى حصن بعرين وحصرهم التركمان بها ، ثم هرب القُمّص من الحصن فى عشرين فارسًا وخلى بحصن بعرين من يحفظه ، ثم جمع الفرنج وقصدوا التركمان ليرحلوهم عن بعرين فاقتتلوا ، فانحاز الفرنج إلى نحو رفنية وعاد التركمان عنهم .

وفيها : اشترى الإسماعيلية حصن القُدمُوس من صاحبه ابن عمرون .

وفيها : فى ربيع الآخر وثب على شمس الملوك إسماعيل صاحب دمشق بعض مماليك جده طُغتكين فضربه بسيف فلم يعمل فيه ، وتكاثر على ذلك الشخص مماليك شمس الملوك فقبضوه وقرره شمس الملوك ، فقال : ما أردت إلا إراحة المسلمين من شرك وظلمك ، ثم أقر على جماعة من شدة الضرب فقتلهم من غير تحقيق ، وقتل شمس الملوك إسماعيل أيضًا مع ذلك الشخص أخاه سونج بن تورى الذى كان بحماة ، وأسره زنكى على ما تقدم ذكره فى سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، فعظم ذلك على الناس ونفروا من شمس الملوك إسماعيل المذكور .

وفيها : توفى على بن يعلى بن عوض الهروى ، وكان واعظاً ، وله بخراسان قبول كثير ، وسمع الحديث فأكثر .

وفيها : توفى أبو فُلَيْتة أمير مكة ، وولى إمارة مكة بعده أبو القاسم .

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وخمسمائة :

فيها : فى المحرم سار شمس الملوك إسماعيل صاحب دمشق إلى حصن الشقيق ، وكان بيد الضحاك بن جندل رئيس وادى التيم قد تغلب عليه وامتنع به ، فأخذه شمس الملوك منه ، وعظم ذلك على الفرنج ، وقصدوا بلد حوران ، وجمع شمس الملوك الجموع وناوشهم ، ثم أغار على بلادهم من جهة طبرية ، ففت ذلك فى أعضاد الفرنج ، ورحلوا عائدين إلى بلادهم ، ثم وقعت الهدنة بينهم وبين شمس الملوك .

وفى هذه السنة : استولى عماد الدين زنكى على جميع قلاع الأكراد الحميدية ، منها قلعة العقر وقلعة شوش وغيرهما ، ثم استولى على قلاع الهكارية وكواشى .

وفيها : أوقع ابن دانشمند صاحب ملطية بالفرنج الذين بالشام فقتل كثيرًا منهم .

وفيها : اصطلح الخليفة المسترشد وعماد الدين زنكى .

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وخمسمائة :

فيها : مات السلطان طغريل ابن السلطان محمد ، وكان بعد هزيمته من أخيه مسعود قد استولى على بلاد الجبل فمات فى هذه السنة فى المحرم ، وقيل إن وفاته كانت فى أول سنة ثمان وعشرين وهو الأصح فى ظنى ، وكان مولده سنة ثلاث وخمسمائة فى المحرم أيضًا ، وكان خيرًا عاقلا ولما بلغ أخاه مسعودًا خبر وفاته سار نحو همدان ، وأقبلت العساكر جميعًا إليه ، واستولى على همدان وأطاعته البلاد جميعها .

ذكر قتل إسماعيل صاحب دمشق

فى هذه السنة : فى رابع عشر ربيع الآخر ، قتل شمس الملوك إسماعيل بن تورى بن طغتكين ، وكان مولده فى سابع جمادى الآخرة سنة ست وخمسمائة ، قتله على غفلة جماعة باتفاق من والدته ، وقد اختلف فى سببه ، فقيل : إن الناس لفرط جور إسماعيل المذكور وظلمه ومصادرته كرهوه وشكوه لأمه ، فاتفقت مع من قتله ، وقيل : بل إن أمه اتهمت بشخص من أصحاب والده يقال له يوسف بن فيروز ، فأراد قتل أمه فاتفقت مع من قتله ، وسر الناس بقتله ، ولما قتل ملكَ بعده أخوه شهاب الدين محمود بن تورى وحلف له الناس .

وفيها : بعد قتل شمس الملوك وصل عماد الدين زنكى إلى دمشق وحصرها وضيق عليها ، وقام فى حفظ البلد معين الدين أتز مملوك طُغْتُكين القيام التام الذى تقدم به واستولى على الأمر بسببه ، فلما لم ير زنكى فى أخذ دمشق مطمعا اصطلح مع أهلها ورحل عنها عائدا إلى بلاده .

ذكر قتل حسن بن الحافظ لدين الله العلوى

قد تقدم فى سنة ست وعشرين وخمسمائة أن أباه استوزره ، فتغلب حسنٍ المذكور على الأمر واستبد له وأساء السيرة ، وأكثر من قتل الأمراء وغيرهم ظلما وعدوانا ، وأكثر من مصادرات الناس ، فأراد العسكر الإيقاع به وبأبيه ، فعلم أبوه الحافظ ذلك فسقاه سمًّا فمات ، ولما مات حسن استوزر الحافظ تاج الدولة بهرام وكان نصرانيا فتحكم ، واستعمل الأرمن على الناس فكان ما سنذكره .

ذكر الحرب بين الخليفة المسترشد وبين السلطان مسعود وأسر الخليفة وقتله

فى هذه السنة : كانت الحرب بين الخليفة المسترشد وبين السلطان مسعود ، وسببه أن جماعة من عسكر مسعود فارقوه مغاضبين ، واتصلوا بالخليفة المسترشد ، وهونوا عليه قتال السلطان

مسعود فاغتر بكلامهم ، وسار من بغداد إلى قتال السلطان مسعود ، وسار مسعود إليه ، واتفقوا عاشر رمضان من هذه السنة ، فصار غالب عسكر الخليفة مع مسعود وانهزم الباقون ، وأخذ الخليفة المسترشد أسيرًا ونهب عسكره وأسروا ، وبقى المسترشد مع مسعود أسيرًا ، ثم سار به مسعود من همدان إلى مراغة فى شوال لقتال ابن أخيه داود بن محمود فنزل على فرسخين من مراغة والمسترشد معه فى خيمة منفردة ، وكان قد اتفق مسعود مع الخليفة على مال يحمله الخليفة إليه وأن لايعود يخرج من بغداد واتفق وصول رسول السلطان سَنْجَر إلى مسعود ، فركب مسعود والعساكر لملتقاه فوثبت الباطنية على المسترشد وهو فى تلك الخيمة فقتلوه ومثلوا به فجدعوا أنفه وأذنيه ، وقتل معه نفر من أصحابه .

وكان قتل المسترشد يوم الأحد سابع عشر ذى القعدة بظاهر مراغة ، وكان عمره لما قتل ثلاثا وأربعين سنة وثلاثة أشهر ، وكانت خلافته سبع عشرة سنة وستة أشهر وعشرين يومًا ، وأمه أم ولد ، وكان فصيحا حسن الخط شهما .

ذكر خلافة الراشد – وهو الثلاثون من خلفاء بنى العباس

لما قتل المسترشد بالله ، بويع ابنه الراشد بالله أبو جعفر المنصور بن المسترشد فضل ابن المستظهر أحمد ، وكان أبوه قد بايع له بولاية العهد فى حياته ، ثم بعد قتله جددت له بيعة فى يوم الاثنين السابع والعشرين من ذى القعدة من هذه السنة ، وكتب مسعود إلى بغداد بذلك ، فحضر بيعته أحد وعشرون رجلاً من أولاد الخلفاء .

ذكر قتل دُبَيْس

فى هذه السنة : قتل السلطان مسعود دُبَيْس بن صدقة على باب سرادقه بظاهر مدينة خُوَنج – أمر غلامًا أرمنيًا بقتله ، فوقف على رأس دبيس وهو ينكث فى الأرض بأصبعه ، فضرب رقبته وهو لا يشعر ، وكان ابنه صدقة بن دُبَيْس بالحِلَّة ، فلما بلغه الخبر اجتمع عليه عسكر أبيه وكثر جمعه ، وما أكثر ما يتفق قرب موت المتعادين ، فإن دبيسًا كان يعادى المسترشد بالله ، فاتفق قتل أحدهما عقيب قتل الآخر .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : استولى الفرنج على جزيرة جربة من أعمال أفريقية ، وهرب وأسر من كان بها من المسلمين .

وفيها : صالح المستنصر بن هود الفرنج على تسليم حصن زوطة من بلاد الأندلس وسلمه إلى صاحب طليطلة الفرنجى .

ثم دخلت سنة ثلاثين وخمسمائة :

ذكر ملك شهاب الدين حمص

فى هذه السنة : فى الثانى والعشرين من ربيع الأول تسلم شهاب الدين محمود بن بورى صاحب دمشق مدينة حمص وقلعتها ، وسبب ذلك أن أصحابها أولاد الأمير قيرخان بن قراجا والوالى بها من قبلهم ، ضجروا من كثرة تعرض عماد الدين زنكى إليها وإلى أعمالها ، فراسلوا شهاب الدين فى أن يسلموها إليه ويعطيهم عوضها تدمر فأجابهم إلى ذلك وتسلم حمص وأقطعها المملوك جده معين الدين أتز وسلم إليهم تدمر ، فلما رأى عسكر حلب وحماة خروج حمص إلى صاحب دمشق ، تابعوا على بلدها ، فأرسل شهاب الدين محمود إلى عماد الدين زنكى فى الصلح ، فاستقر بينهما وكف عسكر عماد الدين عن حمص .

ذكر غير ذلك

فيها : سارت عساكر عماد الدين زنكى الذين بحلب وحماة ، ومقدمهم أسوار نائب زنكى بحلب إلى بلاد الفرنج بنواحى اللاذقية ، وأوقعوا بمن هناك من الفرنج ، وكسبوا من الجوارى والمماليك والأسرى والدواب ما ملأ الشام من الغنائم وعادوا سالمين .

ذكر خلع الراشد وخلافة المقتفى
وهو حادى ثلاثينهم

كان الراشد قد اتفق مع بعض ملوك الأطراف مثل عماد الدين زنكى وغيره ، على خلاف السلطان مسعود وطاعة داود ابن السلطان محمود ، فلما بلغ مسعودًا ذلك جمع العساكر وسار إلى بغداد ونزل عليها وحصرها ، ووقع فى بغداد النهب من العيارين والمفسدين ، ودام مسعود محاصرها نيفًا وخمسين يومًا فلم يظفر بهم ، فارتحل إلى النهروان ، ثم وصل طرنطاى صاحب واسط بسفن كثيرة ، فعاد مسعود إلى بغداد ، وعبر إلى غربى دجلة ، واختلفت كلمة عساكر بغداد ، فعاد الملك داود إلى بلاده أذربيجان فى ذى القعدة ، وسار الخليفة الراشد من بغداد مع عماد الدين زنكى إلى الموصل .

ولما سمع مسعود بمسير الخليفة وزنكى ، سار إلى بغداد واستقر بها فى منتصف ذى القعدة ، وجمع مسعود القضاة وكبراء بغداد وأجمعوا على خلع الراشد بسبب أنه كان قد عاهد مسعودًا على أنه لا يقاتله ومتى خالف ذلك فقد خلع نفسه ، وبسبب أمور ارتكبها ، فخلع وحكم بفسقه وخلعه ، وكانت مدة خلافة الراشد أحد عشر شهرًا وأحد عشر يومًا ، ثم استشار السلطان مسعود فيمن يقيمه فى الخلافة فوقع الاتفاق على ابن محمد المستظهر ، فأحضر وأجلس فى الميمنة ، ودخل إليه السلطان مسعود وتحالفا ، ثم خرج السلطان وأحضر الأمراء وأرباب المناصب والقضاة والفقهاء وبايعوه ولقبوه المقتفى لأمر الله .

والمقتفى : عم الراشد المذكور هو والمسترشد أبناء المستظهر وليا الخلافة – وكذلك السفاح والمنصور أخوان –وكذلك المهدى والرشيد أخوان – وكذلك الواثق والمتوكل ، وأما ثلاثة إخوة ولوا الخلافة : فالأمين والمأمون والمعتصم أولاد الرشيد – وكذلك المكتفى والمقتدر والقاهر بنو المعتضد – والراضى والمتقى والمطيع بنو المقتدر ، وأما أربعة إخوة ولوها : فالوليد وسليمان ويزيد وهشام بنو عبدالملك بن مروان لايعرف غيرهم .

وعمل محضر بخلع الراشد ، وأرسل إلى الموصل ، وزاد المقتفى فى إقطاع عماد الدين زنكى وألقابه ، وأرسل المحضر فحكم به قاضى القضاة الزينبى بالموصل ، وخطب للمقتفى فى الموصل فى رجب سنة إحدى وثلاثين .

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة :

فيها : عزل الحافظ وزيره بهرام النصرانى الأرمنى بسبب ما اعتمده من تولية الأرمن على

المسلمين وإهانتهم لهم ، فأنف من ذلك شخص يسمى رضوان بن الوكحشى وجمع جمعًا وقصد بهرام فهرب بهرام إلى الصعيد ، ثم عاد وأمسكه الحافظ وحبسه فى القصر ، ثم إن بهرام المذكور ترهب وأطلقه الحافظ ، ولما هرب بهرام استوزر الحافظ رضوان المذكور ولقبه « الملك الأفضل » وهو أول وزير للمصريين لقب بالملك ، ثم إنه فسد ما بين رضوان والحافظ ، فهرب رضوان وجرى له أمور يطول شرحها ، آخرها أن الحافظ قتل رضوان المذكور ولم يستوزر بعده أحدًا ، وباشر الأمور بنفسه إلى أن مات .

ذكر حصر زنكى حمص ورحيله إلى بارين وفتحها

فى هذه السنة : نازل عماد الدين زنكى حمص وبها صاحبها معين الدين أنّز ، فلم يظفر بها فرحل عنها فى العشرين من شوال إلى بعرين وحصر قلعتها وهى للفرنج ، وضيق عليها ، فجمع الفرنج ملوكهم ورجالهم وساروا إلى زنكى ليرحلوه عن بعرين ، فلما وصلوا إليه لقيهم وجرى بينهم قتال شديد ، فانهزمت الفرنج ودخل كثير من ملوكهم لما هربوا إلى حصن بعرين ، وعاود عماد الدين زنكى حصار الحصن وضيق عليه ، وطلب الفرنج الأمان ، فقرر عليهم تسليم حصن بعرين ، وخمسين ألف دينار يحملونها إليه ، فأجابوا إلى ذلك فأطلقهم وتسلم الحصن وخمسين ألف دينار .

وكان زنكى فى مدة مقامه على حصار بعرين قد فتح المعرة وكفر طاب وأخذهما من الفرنج ، وحضر أهل المعرة وطلبوا تسليم أملاكهم التى كان قد أخذها الفرنج ، فطلب زنكى منهم كتب أملاكهم ، فذكروا أنها عدمت ، فكشف من ديوان حلب عن الخراج وأفرج عن كل ملك كان عليه الخراج لأصحابه .

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة :

ذكر ملك عماد الدين زنكى حمص وغيرها

فى هذه السنة : فى المحرم وصل زنكى إلى حماة وسار منها إلى بقاع بعلبك ، فملك حصن المجدل ، وكان لصاحب دمشق ، وراسله مستحفظ بانياس وأطاعه وسار إلى حمص وحصرها ،

ثم رحل عنها إلى سَلَمْيَة بسبب نزول الروم على حلب على ما نذكره ، ثم عاد إلى منازلة حمص فسلمت إليه المدينة والقلعة .

أرسل عماد الدين زنكى وخطب أم شهاب الدين محمود صاحب دمشق وتزوجها واسمها زمرّد خاتون بنت جاولى وهى التى قتلت ابنها شمس الملوك إسماعيل بن بورى وهى التى بنت المدرسة المطلة على وادى الشقرا بظاهر دمشق ، وحملت الخاتون إلى عماد الدين فى رمضان ، وإنما تزوجها طمعًا فى الاستيلاء على دمشق ، لما رأى من تحكمها فلما خاب ما أمله ولم يحصل على شىء أعرض عنها .

ذكر وصول ملك الروم إلى الشام وما فعله

كان قد خرج ملك الروم متجهزًا من بلاده فى سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ، فاشتغل بقتال الأرمن وصاحب أنطاكية وغيره من الفرنج ، فلما دخلت هذه السنة وصل إلى الشام وسار إلى بُزاعة وهى على ستة فراسخ من حلب وحاصرها وملكها بالأمان فى الخامس والعشرين من رجب ، ثم غدر بأهلها وقتل فيهم وأسر وسبى ، وتنصر قاضيها وقدر أربعمائة نفس من أهلها ، وأقام على بزاعة بعد أخذها عشرة أيام ، ثم رحل عنها بمن معه من الفرنج إلى حلب ، ونزل على قويق وزحف على حلب وجرى بين أهلها وبينهم قتال كثير ، فقتل من الروم بطريق عظيم القدر عندهم ، فعادوا خاسرين وأقاموا ثلاثة أيام ورحلوا إلى الأثارب وملكوها وتركوا فيها سبايا بزاعة وتركوا عندهم من الروم من يحفظهم ، وسار ملك الروم بجموعه من الأثارب نحو شيزر فخرج الأمير أَسْوارُ نائب زنكى بحلب بمن عنده ، وأوقع بمن فى الأثارب من الروم فقتلهم ، واسْتَفَكَّ أسرى بزاعة وسباياها ، وسار ملك الروم بجموعه إلى شيزر وحصرها ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقا ، وأرسل صاحب شيزر أبو العساكر سلطان بن على بن مقلد ابن نصر بن منقذ الكنانى إلى زنكى يستنجده ، فسار زنكى ونزل على العاصى بين حماة وشيزر ، وكان يركب عماد الدين زنكى وعسكره كل يوم ويشرفون على الروم وهم محاصرون لشيزر بحيث يراهم الروم ، ويرسل السرايا فيأخذون كل ما يظفرون به منهم ، وأقام ملك الروم محاصرًا شيزر أربعة وعشرين يومًا ، ثم رحل عنها من غير أن ينال منها غرضًا ، وسار زنكى فى أثر الروم فظفر بكثير ممن تخلف منهم ، ومدح الشعراء زنكى بسبب ذلك فأكثروا ، فمن ذلك ما قاله مسلم بن خضر بن قُسَيْم الحموى من أبيات :

لعـزمـك أيهـا الملك العـظيم تـذلُّ لـك الصعـابُ وتستقيمُ

ألم تر أن كلب الروم لما   تبين أنه الملك الرحيم
وقد نزل الزمان على رضاه   ودان لخطبه الخطب العظيم
فحين رميته بك فى خميس   تيقن فوت ما أمسى يروم
كأنك فى العجاج شهاب نور   توقد وهو شيطان رجيم
أراد بقاء مهجته فولى   وليس سوى الحمام له حميم

ذكر مقتل الراشد

كان الراشد قد سار من بغداد إلى الموصل مع عماد الدين زنكى وخلع كما تقدم ذكره ، ثم فارق الراشد زنكى وسار من الموصل إلى مراغة ، واتفق الملك داود ابن السلطان محمود وملوك تلك الأطراف على خلاف السلطان مسعود وقتاله وإعادة الراشد إلى الخلافة ، فسار السلطان مسعود إليهم واقتتلوا ، فانهزم داود وغيره ، واشتغل أصحاب السلطان مسعود بالكسب وبقى وحده ، فحمل عليه أميران يقال لهما بوزابة وعبدالرحمن طغايرك ، فانهزم مسعود من بين أيديهما ، وقبض بوزابة على جماعة من أمرائه وعلى صدقة بن دُبيس صاحب الحلة ، ثم قتلهم أجمعين .

وكان الراشد إذ ذاك بهمدان ، فلما كان من الوقعة ما كان سار الملك داود إلى فارس وتفرقت تلك الجموع ، وبقى الراشد وحده فسار إلى أصفهان ، فلما كان الخامس والعشرون من رمضان وثب عليه نفر من الخراسانية الذين كانوا فى خدمته فقتلوه وهو يريد القيلولة ، وكان من أعقاب مرض قد برئ منه ودفن بظاهر أصفهان بشهرستان ، ولما وصل خبر قتل الراشد إلى بغداد جلسوا لعزائه يومًا واحدًا .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : ملك حسام الدين تمرتاش بن إيلغازى صاحب ماردين قلعة الهتاخ من ديار بكر أخذها من بعض بنى مروان الذين كانوا ملوك ديار بكر جميعها وهو آخر من بقى منهم .

وفيها : قتل السلطان مسعود البقش شحنة بغداد .

وفيها : جاءت زلزلة عظيمة بالشام والعراق وغيرهما من البلاد فخربت كثيرًا وهلك تحت الهدم عالم كثير .

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة :

ذكر الحرب بين السلطان سَنجر وخُوارزم شاه

فى هذه السنة : فى المحرم سار سنجر بجموعه إلى خوارزم شاه أتسز بن محمد بن أنوش تكين ، وقد تقدم ذكر ابتداء أمر محمد بن أنوش تكين فى سنة تسعين وأربعمائة ، ووصل سنجر إلى خوارزم ، وخرج خوارزم شاه لقتاله واقتتلوا ، فانهزم أتسز خوارزم شاه ، واستولى سنجر على خوارزم ، وأقام بها من يحفظها ، وعاد إلى مرو فى جمادى الآخرة من هذه السنة ، وبعد أن عاد سنجر إلى بلاده عاد أتسز إلى خوارزم واستولى عليها .

ذكر قتل محمود صاحب دمشق

فى هذه السنة : فى شوال قتل شهاب الدين محمود بن بورى بن طغتكين صاحب دمشق ، قتله غيلة على فراشه ثلاثة من خواص غلمانه وأقرب الناس منه ، وكانوا ينامون عنده فقتلوه وخرجوا من القلعة وهربوا ، فنجا أحدهم وأخذ الاثنان وصلبا ، واستدعى معين الدين أَنَز أخاه جمال الدين محمد بن بورى ، وكان صاحب بعلبك ، فحضر إلى دمشق وملكها .

ذكر ملك زنكى بعلبك

فى هذه السنة : فى ذى القعدة سار عماد الدين زنكى إلى بعلبك ووصل إليها فى العشرين من ذى الحجة وحصرها ، ونصب عليها أربعة عشر منجنيقًا ، فطلب أهلها الأمان فأمنهم وسلموا إليه المدينة ، واستمر الحصار على القلعة حتى طلبوا الأمان أيضًا فأمنهم وسلموا إليه القلعة ، فلما نزلوا منها وملكها غدربهم وأمر فصلبوا عن آخرهم ، فاستقبح الناس ذلك واستعظموه وحذره الناس ، وكانت بعلبك لمعين الدين أَنَز ، أعطاه إياها جمال الدين محمد لما ملك دمشق ، وكان أَنَز قد تزوج بأم جمال الدين محمد صاحب دمشق ، وكان له جارية يحبها

فأخرجها أنر إلى بعلبك ، فلما ملك بعلبك أخذ الجارية المذكورة وتزوجها فى حلب ، وبقيت مع زنكى حتى قتل على قلعة جعبر فأرسلها ابنه نور الدين محمود بن زنكى إلى أنر ، وهى كانت أعظم الأسباب فى المودة بين نور الدين وأنر.

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : توالت الزلازل بالشام ، وخربت كثير من البلاد لاسيما حلب فإن أهلها فارقوا بيوتهم وخرجوا إلى الصحراء ، ودامت من رابع صفر إلى تاسع عشره .

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وخمسمائة :

فى هذه السنة : سار عماد الدين زنكى إلى دمشق وحصرها وزحف عليها وبذل لصاحبها جمال الدين محمد بعلبك وحمص فلم يأمنوا إليه بسبب غدره بأهل بعلبك وكان نزوله على داريا فى ثالث عشر ربيع الأول ، واستمر منازلا لدمشق ، فمرض فى تلك المدة جمال الدين محمد بن بورى صاحب دمشق ومات فى ثامن شعبان ، فطمع زنكى حينئذ فى ملك دمشق وزحف إليها واشتد القتال فلم ينل غرضا ، ولما مات جمال الدين محمد أقام معين الدين أنر فى الملك ولده مجير الدين أرتق بن محمد بن بورى بن طغتكين ، واستمر أنر يدير الدولة ، فلم يظهر لموت جمال الدين محمد أثر ، ثم رحل زنكى ونزل بعذرا من المرج فى سادس شوال ، وأحرق عدة من قرى المرج ورحل عائدًا إلى بلاده .

وفى هذه السنة : ملك زنكى شهرزور وأخذها من صاحبها قبجق بن ألب أرسلان شاه التركمانى ، وبقى قبجق فى طاعة زنكى ومن جملة عسكره .

وفيها : قتل المقرب جوهر من كبراء عسكر سنجر ، وكان قد عظم فى الدولة ، وكان من جملة إقطاع المقرب المذكور الرى ، قتله الباطنية ووقفوا له فى زى النساء واستغثن به فوقف يسمع كلامهم فقتلوه .

وفيها : توفى هبة الله بن الحسين بن يوسف المعروف بالبديع الأسطرلابى ، وكانت له اليد الطولى فى عمل الأسطرلاب والآلات الفلكية ، وله شعر جيد وأكثره فى الهزل .

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وخمسمائة :

فى هذه السنة : وصل رسول السلطان سنجر ومعه بردة النبى صلى الله عليه وسلم والقضيب وكانا أخذا من المسترشد ، فأعادهما الآن إلى المقتفى .

وفى هذه السنة : ملك الإسماعيلية حصن مصياث بالشام ، وكان واليه مملوكًا لبنى منقذ أصحاب شيزر ، فاحتال عليه الإسماعيلية ومكروا به حتى صعدوا إليه وقتلوه وملكوا الحصن .

وفيها : توفى الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان قتيلا فى فندق بمراكش ، وكان فاضلا فى الأدب ، ألف عدة كتب منها قلائد العقيان ، ذكر فيه عدة من الفضلاء وأشعارهم ، ولقد أجاد فيه .

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وخمسمائة :

فى هذه السنة : فى المحرم وقيل فى صفر كان المصاف العظيم بين الترك الكفار من الخطا وبين السلطان سنجر ، فإن خوارزم شاه أتسز بن محمد لما هزمه سنجر وقتل ولد أتسز عظم ذلك عليه وكاتب الخطا وأطمعهم فى ملك ما وراء النهر ، فساروا فى جمع عظيم ، وسار إليهم السلطان سنجر فى جمع عظيم ، والتقوا بما وراء النهر فانهزم عسكر سنجر وقتل منهم خلق عظيم ، وأسرت امرأة سنجر ، ولما تمت الهزيمة على الميزان سار خوارزم شاه أتسز إلى خراسان ونهب من أموال سنجر ومن بلادها شيئا كثيرًا ، واستقرت دولة الخطا والترك الكفار بما وراء النهر .

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وخمسمائة :

فى هذه السنة : بعث عماد الدين زنكى جيشًا ففتحوا قلعة أشب ، وكانت من أعظم حصون الأكراد الهكارية وأمنعها ، ولما ملكها زنكى أمر بإخرابها وبناء القلعة المعروفة بالعمادية عوضًا عنها ، وكانت العمادية حصنًا عظيما خرابًا ، فلما عمره عماد الدين زنكى سمى العمادية نسبة إليه .

وفيها : سارت الفرنج فى البحر من صقلية إلى طرابلس الغرب فحصروها ثم عادوا عنها .

وفيها : توفى محمد بن الدانشمند صاحب ملطية والثغر ، واستولى على بلاده الملك مسعود ابن قليج أرسلان السلجوقى صاحب قونية .

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة :

فى هذه السنة : كان الصلح بين السلطان مسعود وبين عماد الدين زنكى .

وفيها : سار زنكى بعساكره إلى ديار بكر ففتح منها طنزة واسترد وحيزان وحصن الروق وحصن قطليس وحصن باتاسا وحصن ذى القرنين ، وأخذ من بلد ماردين مما هو بيد الفرنج جملين والموزر وتل موزر من حصون شختان .

وفيها : سار السلطان سنجر بعساكره إلى خوارزم ، وحصر أتسز بها ، فبذل خوارزم شاه أتسز الطاعة فأجابه سنجر إلى ذلك واصطلحا وعاد سنجر إلى مرو .

وفيها : ملك زنكى عانة من أعمال الفرات .

وفيها : قتل داود ابن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ، قتله جماعة اغتالوه ولم يعرفوا .

وفيها : توفى أبو القاسم محمود بن عمر النحوى الزمخشرى ، ولد فى رجب سنة سبع وستين وأربعمائة ، وهو من زمخشر : قرية من قرى خوارزم ، كان إمامًا فى العلوم ، صنف الفصل فى النحو والكشاف فى التفسير وجهر القول فيه بالاعتزال وافتتحه بقوله : الحمد لله الذى خلق القرآن منجما ، ثم أصلحه أصحابه فكتبوا : الحمد لله الذى أنزل القرآن ، وله غير ذلك من المصنفات ، فمنها كتاب الفائق فى غريب الحديث ، وقدم الزمخشرى بغداد وناظر بها ثم حج ، وجاور بمكة سنين كثيرة فسمى لذلك جار الله ، وكان حنفى الفروع ، معتزلى الأصول ، وللزمخشرى نظم حسن ، فمنه من جملة أبيات :

فإنا اقتصرنا بالذين تضايقت عيونهم والله يجزى من اقتصر
مليح ولكن عنده كل جفوة ولم أر فى الدنيا صفاء بلا كدر

ومن شعره يرثى شيخه أبا مضر منصورًا :

وقائلة ما هذه الدرر التى تساقط من عينيك سمطين سمطين
فقلت لها الدر الذى كان قد حشا أبو مضر أذنى تساقط من عينى

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وخمسمائة :

فى هذه السنة : فتح عماد الدين زنكى الرها من الفرنج بالسيف بعد حصار ثمانية وعشرين يومًا ، ثم تسلم مدينة سروج وسائر الأماكن التى كانت بيد الفرنج شرقى الفرات ، وأما البيرة فنزل عليها وحاصرها ، ثم رحل عنها بسبب قتل نائبه بالموصل وهو نصير الدين جقر ، وسبب قتله أنه كان عند زنكى ألب أرسلان ابن السلطان محمود بن محمد السلجوقى ، وكان زنكى يقول : إن البلاد التى بيدى إنما هى لهذا الملك ألب أرسلان المذكور وأنا أتابكه ، ولهذا سمى أتابك زنكى ، وكان ألب أرسلان المذكور بالموصل وجقر يقوم بوظائف خدمته ، فحسن بعض المناحيس لألب أرسلان المذكور قتل جقر وأخذ البلاد من عماد الدين زنكى ، فلما دخل جقر إلى ألب أرسلان على عادته وثب عليه من عند ألب أرسلان فقتلوه ، فاجتمعت كبراء دولة زنكى وأمسكوا ألب أرسلان ولم يطعه أحد ، ولما بلغ زنكى ذلك وهو محاصر للبيرة عظم عليه قتل جقر وخشى من الفتن فرحل عن البيرة لذلك ، وخشى الفرنج الذين بها من معاودة الحصار ، وعلموا بضعفهم عن عماد الدين فراسلوا نجم الدين صاحب ماردين وسلموا البيرة إليه وصارت للمسلمين .

وفيها : خرج أسطول الفرنج من صقلية إلى ساحل أفريقية وملكوا مدينة برسك وقتلوا أهلها وسبوا الحريم .

وفيها : توفى تاشفين بن علىّ بن يوسف بن تاشفين صاحب المغرب ، وولى بعده أخوه إسحق بن علىّ ، وضعف أمر الملثمين وقوى عبدالمؤمن ، وقد تقدم ذكر ذلك فى سنة أربع عشرة وخمسمائة .

ثم دخلت سنة أربعين وخمسمائة :

وفيها : هرب على بن دبيس بن صدقة من السلطان مسعود ، وكان قد أراد حبسه فى قلعة تكريت ، فهرب إلى الحلة واستولى عليها وكثر جمعه وقويت شوكته .

وفيها : اعتقل الخليفة المقتفى أخاه أبا طالب وضيق عليه ، وكذلك احتاط على غيره من أقاربه .

وفيها : ملك الفرنج شنترين وتاجّر وماردة وأشبونة وسائر المعاقل المجاورة لها من بلاد الأندلس .

وفيها : توفى مجاهد الدين بهروز ، وحكم فى العراق نيفًا وثلاثين سنة ، وكان بهروز خصيًّا أبيض .

وفيها : توفى الشيخ أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقى اللغوى ، ومولده فى ذى الحجة سنة خمس وستين وأربعمائة ، أخذ اللغة عن أبى زكريا التبريزى ، وكان يؤم بالخليفة المقتفى ، وكان طويل الصمت ، كثير التحقيق ، لا يقول الشىء إلا بعد فكر كثير ، وكان يقول كثيرًا إذا سئل لا أدرى ، وأخذ العلم عنه جماعة منهم تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن الكندى ، ومحب الدين أبو البقاء ، وعبد بن سكينة .

وفيها : توفى أبو بكر يحيى بن عبدالرحمن بن تقى الأندلسى القرطبى ، الشاعر المشهور صاحب الموشحات البديعة ، ومن شعره ما أورده فى قلائد العقيان :

يا أفتك الناس ألحاظًا وأطيبهم ... ريقًا متى كان فيك الصاب والعسل
فى صحن خدك وهو الشمس طالعة ... ورد يزيدك فيه الراح والخجل
إيمان حبك فى قلبى يجدده ... من خدك الكتب أو من لحظك الرسل
إن كنت تجهل أنى عبد مملكة ... مرنى بما شئت آتيه وأمتثل
لو اطلعت على قلبى وجدت به ... من فعل عينيك جرحًا ليس يندمل

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وخمسمائة :

ذكر ملك الفرنج طرابلس الغرب

وسبب ملكها أنهم نزلوا عليها وحصروها ، فلما كان اليوم الثالث من نزولهم سمع الفرنج فى المدينة ضجة عظيمة ، وخلت الأسوار من المقاتلة ، وكان سببه أن أهل طرابلس اختلفوا ، فأراد طائفة منهم تقديم رجل من الملثمين ليكون أميرهم ، وأرادت طائفة أخرى تقديم بنى مطروح فوقعت الحرب بين الطائفتين وخلت الأسوار فانتهز الفرنج الفرصة وصعدوا بالسلالم وملكوها بالسيف فى المحرم من هذه السنة ، وسفكوا دماء أهلها ، وبعد أن استقر الفرنج فى ملك طرابلس بذلوا الأمان لمن بقى من أهل طرابلس وتراجعت إليها الناس وحسن حالها .

ذكر حصار عماد الدين زنكى حصنى جعبر وفنك ومقتله

فى هذه السنة : سار زنكى ونزل على قلعة جعبر وحصرها وصاحبها على بن مالك بن سالم ابن مالك بن بدران بن المقلد بن المسيب العقيلى ، وأرسل عسكرًا إلى قلعة فنك وهى تجاور جزيرة ابن عمر فحصرها أيضًا وصاحبها حسام الدولة الكردى البشنوى – ولما طال على زنكى منازلة قلعة جعبر أرسل مع حسان البعلبكى الذى كان صاحب منبج يقول لصاحب قلعة جعبر : قل لى مَنْ يخلصك منى ، فقال صاحب قلعة جعبر لحسان : يخلصنى منك الذى خلصك من بلك بن بهرام بن أرتق، وكان بلك محاصرًا لمنبج فجاءه سهم قتله ، فرجع حسان إلى زنكى ولم يخبره بذلك ، فاستمرّ زنكى منازلا قلعة جعبر ، فوثب عليه جماعة من مماليكه وقتلوه فى خامس ربيع الآخر من هذه السنة بالليل وهربوا إلى قلعة جعبر ، فصاح مَنْ بها على العسكر وأعلموهم بقتل زنكى ، فدخل أصحابه إليه وبه رمق ، وكان عماد الدين زنكى حسن الصورة أسمر اللون مليح العينين ، قد وخطه الشيب ، وكان قد زاد عمره على ستين سنة ، ودفن بالرقة ، وكان شديد الهيبة على عسكره عظيمها ، وكان له الموصل وما معها من البلاد ، وملك الشام خلا دمشق ، وكان شجاعًا ، وكانت الأعداء محيطة بمملكته من كل جهة وهو ينتصف منهم ويستولى على بلادهم .

ولما قتل زنكى كان ولده نور الدين محمود حاضرًا عنده ، فأخذ خاتم والده وهو ميت من أصبعه ، وسار إلى حلب فملكها ، وكان صحبة زنكى أيضًا الملك ألب أرسلان بن محمود بن

السلطان محمد السلجوقى ، فركب فى يوم قتل زنكى واجتمعت عليه العساكر ، فحسن له بعض أصحاب زنكى الأكل والشرب وسماع المغانى ، فسار ألب أرسلان إلى الرقة وأقام بها منعكفًا على ذلك ، وأرسل كبراء دولة زنكى إلى ولده سيف الدين غازى بن زنكى يعلمونه بالحال وهو بشهرزور ، فسار إلى الموصل واستقر فى ملكها ، وأما ألب أرسلان فتفرقت عنه العساكر ، وسار إلى الموصل يريد ملكها ، فلما وصل قبض عليه غازى بن زنكى وحبسه فى قلعة الموصل ، واستقر ملك سيف الدين غازى للموصل وغيرها .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : أرسل عبدالمؤمن بن علىّ جيشًا إلى جزيرة الأندلس فملكوا ما فيها من بلاد الإسلام واستولوا عليها .

وفيها : بعد قتل عماد زنكى ، قصد صاحب دمشق مجير الدين أبق حصن بعلبك وحصره ، وكان به نجم الدين أيوب بن شاذى مستحفظًا ، فخاف أن أولاد زنكى لا يمكنهم إنجاده بالعاجل فصالحه وسلم القلعة إليه ، وأخذ منه إقطاعًا ومالا ، وملكه عدة قرى من بلاد دمشق ، وانتقل أيوب إلى دمشق وسكنها وأقام بها .

ثم دخلت سنة أثنتين وأربعين وخمسمائة :

فى هذه السنة : دخل نورالدين محمود بن زنكى صاحب حلب بلاد الفرنج ، ففتح منها مدينة أرتاح بالسيف وحصر مأمولة وبصرفوت وكفرلانا .

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة :

ذكر ملك الفرنج المهدية بإفريقية وحال مملكة بنى باديس

كان قد حصل بإفريقية غلاء شديد حتى أكل الناس بعضهم بعضًا ، ودام من سنة سبع وثلاثين وخمسمائة إلى هذه السنة ، ففارق الناس القرى ، ودخل أكثرهم إلى جزيرة صقلية ، فاغتنم رجار الفرنجى صاحب صقلية هذه الفرصة ، وجهز أسطولا نحو مائتين وخمسين شينيا مملوءة رجالا وسلاحًا ، واسم مقدمهم جرج وساروا من صقلية إلى جزيرة قوصرة وهى مابين المهدية وصقلية وساروا منها وأشرفوا على المهدية ثانى صفر من هذه السنة .

وكان فى المهدية الحسن بن على بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى صاحب إفريقية ، فجمع كبراء البلد واستشارهم ، فرأو اضعف حالهم وقلة المؤونة عندهم ، فاتفق رأى

الأمير حسن بن علىّ على إخلاء المهدية فخرج منها ، وأخذ معه ما خف حمله ، وخرج أهل المهدية على وجوههم بأهليهم وأولادهم ، وبقى الأسطول فى البحر تمنعه الريح من الوصول إلى المهدية ، ثم دخلوا المهدية بعد مضى ثلثى النهار المذكور بغير ممانع ولا مدافع ، ولم يكن قد بقى من المسلمين بالمهدية ممن عزم على الخروج أحد ودخل جرج مقدم الفرنج إلى قصر الأمير حسن بن علىّ فوجده على حاله لم يعدم منه إلا ما خف حمله ، ووجد فيه جماعة من حظايا الحسن بن على ، ووجد الخزائن مملوءة من الذخائر النفيسة من كل شىء غريب يقل وجود مثله ، وسار الأمير حسن بأهله وأولاده إلى بعض أمراء العرب ممن كان يحسن إليه.وأقام عنده ، وأراد الحسن المسير إلى الخليفة العلوى الحافظ صاحب مصر ، فلم يقدر على المسير لخوف الطرق فسار إلى ملك بجاية يحيى بن العزيز من بنى حماد ، فوكل يحيى المذكور على الحسن وعلى أولاده من يمنعهم من التصرف ، ولم يجتمع يحيى بهم ، وأنزلهم فى جزائر بنى مزغنان ، وبقى الحسن كذلك حتى ملك عبدالمؤمن بن علىّ بجاية فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، وأخذها هى وجميع ممالك بنى حماد ، فحضر الأمير الحسن عنده ، فأحسن إليه عبدالمؤمن وأكرمه ، واستمر على ذلك فى خدمة عبدالمؤمن إلى أن فتح المهدية فأقام فيها واليّامن جهته وأمره أن يقتدى برأى الأمير حسن ويرجع إلى قوله .

وكان عدة من ملك من بنى باديس بن زيرى بن مناذ إلى الحسن تسعة ملوك ، وكانت ولايتهم فى سنة إحدى وستين وثلثمائة ، وانقضت فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، ثم إن جرج بذل الأمان لأهل المهدية ، وأرسل وراءهم بذلك وكانوا قد أشرفوا على الهلاك من الجوع فتراجعوا إلى المهدية .

ذكر حصر الفرنج دمشق

فى هذه السنة : سار ملك الألمان ، والألمان بلادهم وراء القسطنطينية حتى وصل إلى الشام فى جمع عظيم ، ونزل على دمشق وحصرها وصاحبها مجير الدين أُرتق بن محمد بن بورى بن طغتكين ، والحكم وتدبير المملكة إنما هو لمعين الدين أنَز مملوك جده طغتكين وفى سادس ربيع الأول زحفوا على مدينة دمشق ، ونزل ملك الألمان بالميدان الأخضر ، وأرسل أنَز إلى سيف الدين غازى صاحب الموصل يستنجده ، فسار بعسكره من الموصل إلى الشام ، وسار معه أخوه نور الدين محمود بعسكره ونزلوا على حمص ، ففت ذلك فى أعضاد الفرنج ، وأرسل أنَز إلى فرنج الشام ، يبذل لهم تسليم قلعة بانياس فتخلوا عن ملك الألمان ، وأشاروا عليه بالرحيل ، وخوفوه من أمداد المسلمين ، فرحل عن دمشق وعاد إلى بلاده ، وسلم أنَز قلعة بانياس إلى الفرنج حسبما شرطه لهم .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : كان بين نور الدين محمود وبين الفرنج مصاف بأرض يغرى من العمق فانهزم الفرنج ، وقتل منهم وأسر جماعة كثيرة ، وأرسل من الأسرى والغنيمة ، إلى أخيه سيف الدين غازى صاحب الموصل .

وفيها : ملك الفرنج من الأندلس مدينة طرطوشة وجميع قلاعها وحصون لاردة .

وفيها : كان الغلاء العام من خراسان إلى العراق إلى الشام إلى بلاد المغرب .

وفى ربيع الأول من هذه السنة ، أعنى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، قتل نور الدولة شاهنشاه بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين ، قتله الفرنج لما كانوا منازلين دمشق ، فجرى بينهم وبين المسلمين مصاف قتل فيه شاهنشاه المذكور ، وهو أبو الملك المظفر عمر صاحب حماة ، وأبو فرخشاه صاحب بعلبك ، وكان شاهنشاه أكبر من صلاح الدين وكانا شقيقين .

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة :

ذكر وفاة غازى بن زنكى

فى هذه السنة : توفى سيف الدين غازى بن عماد الدين أتابك زنكى صاحب الموصل بمرض حاد فى أواخر جمادى الآخرة ، وكانت ولايته ثلاث سنين وشهرًاوعشرين يومًا وكان حسن الصورة ، ومولده سنة خمسمائة ، وخلف ولدًا ذكرًا ، فرباه عمه نور الدين وأحسن تربيته ، وتوفى المذكور شابًا ، وانقرض بموته عقب سيف الدين غازى .

وكان سيف الدين المذكور كريمًا ، يصنع لعسكره كل يوم طعامًا كثيرًا بكرة وعشية ، وهو أول من حما على رأسه السنجق فى ركوبه ، وأمر الأجناد ألا يركبوا إلا بالسيوف فى أوساطهم ، والدبوس تحت ركبهم ، فلما فعل ذلك اقتدى به أصحاب الأطراف ، ولما توفى سيف الدين غازى ، كان أخوه قطب الدين مودود بن زنكى مقيما بالموصل ، فاتفق جمال الدين الوزير وزين الدين على أمير الجيش على تمليكه فحلفاه وحلفا له ، وكذلك باقى العسكر ، وأطاعه جميع بلاد أخيه سيف الدين – ولما تملك تزوج الخاتون ابنة تمرتاش صاحب ماردين ، وكان أخوه سيف الدين قد تزوجها ومات قبل الدخول بها ، وهى أم أولاد قطب الدين .

ذكر وفاة الحافظ لدين الله العلوى ولاية الظافر

فى هذه السنة : فى جمادى الآخرة ، توفى الحافظ لدين الله عبدالمجيد ابن الأمير أبى القاسم بن المستنصر العلوى صاحب مصر ، وكانت خلافته عشرين سنة إلا خمسة أشهر ، وكان عمره نحو سبع وسبعين سنة ، ولم يل الخلافة من العلويين المصريين مَنْ أبوه غير خليفة غير الحافظ والعاضد على ما سنذكره .

ولما توفى الحافظ بويع بعده ابنه الظافر بأمر الله أبو منصور إسمعيل بن الحافظ عبدالمجيد ، واستوزر ابن مصال فبقى أربعين يومًا ، وحضر من الاسكندرية العادل بن السلار ، وكان قد خرج ابن مصال من القاهرة فى طلب بعض المفسدين فأرسل العادل بن السلار ربيبه عباس ابن أبى الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى ، وكان أبوه أبو الفتوح قد فارق أخاه على بن يحيى صاحب أفريقية وقدم إلى الديار المصرية وتوفى بها ، فتزوج العادل بن السلار بزوجة أبى الفتوح المذكور ومعها ولدها عباس بن أبى الفتوح ، فرباه العادل وأحسن تربيته ، ولما قدم العادل إلى مصر يريد الاستيلاء على الوزارة أرسل ربيبه عباسًا فى عسكر إلى ابن مصال ، فظفر به عباس وقتله وعاد إلى العادل بالقاهرة ، فاستقر العادل فى الوزارة وتمكن ، ولم يكن للخليفة الظافر معه حكم ، وبقى العادل كذلك إلى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، فقتله ربيبه عباس المذكور ، وتولى الوزارة على ما سنذكره .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : حصر نور الدين محمود بن زنكى حصن حارم ، فجمع البرنس صاحب أنطاكية الفرنج وسار إلى نور الدين واقتتلوا ، فانتصر نور الدين وقتل البرنس ، وانهزم الفرنج وكثر القتل فيهم ، ولما قتل البرنس ملك بعده ابنه بيمند وهو طفل وتزوجت أمه برجل آخر وتسمى بالبرنس ، ثم إن نور الدين غزاهم غزوة أخرى فهزمهم وقتل فيهم وأسر ، وكان فيمن أسر البرنس الثانى زوج أم بيمند ، فتمكن حينئذ بيمند فى ملك أنطاكية .

وفيها : زلزلت الأرض زلزلة شديدة .

وفيها : توفى معين الدين أنَز صاحب دمشق ، وهو الذى كان إليه الحكم فيها ، وإليه ينسب

وفيها : تولى أبو المظفر يحيى بن هبيرة وزارة الخليفة المقتفى يوم الأربعاء رابع ربيع الآخر ، وكان قبل ذلك صاحب ديوان الزمام .

وفيها : توفى القاضى ناصح الدين الأرجانى ، وأرجان من أعمال تستر ، وتولى المذكور قضاء تستر ، واسمه أحمد بن محمد بن الحسين وله الشعر الفائق ، فمن ذلك قوله :

ولما بلوتُ الناسَ أطلب عندهم ... أخا ثقة عند اعتراض الشدائد
تطلعتُ فى حالى رخاءٌ وشدة ... وناديتُ فى الأحياء هل من مساعد
فلم أر فيها ساءنى غير شامت ... ولم أر فيها سرنى غير حاسد
تمتعتما يا ناظرى بنظرة ... وأوردتما قلبى أمر الموارد
أعينىّ كفا عن فؤادى فإنه ... من البغى سعى اثنين فى قتل واحد

وفيها : توفى بمراكش القاضى عياض بن موسى بن عياض السبتى ، ومولده بها فى سنة ست وسبعين وأربعمائة ، أحد الأئمة الحفاظ الفقهاء المحدثين الأدباء وتآليفه وأشعاره شاهدة بذلك ، ومن تصانيفه الإجمال فى شرح كتاب مسلم ، ومشارق الأنوار فى تفسير غريب الحديث .

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وخمسمائة :

فى هذه السنة : رابع عشر المحرم ، أخذت العرب جميع الحجاج بين مكة والمدينة ، ذكر أن اسم ذلك المكان الغرابى فهلك أكثرهم ، ولم يصل منهم إلى البلاد إلا القليل .

وفيها : سارنور الدين محمود بن زنكى إلى فامية وحصر قلعتها ، وتسلمها من الفرنج وحصنها بالرجال والذخائر ، وكان قد اجتمع الفرنج وساروا ليرحلوه عنها فملكها قبل وصولهم ، فلما بلغهم فتحها تفرقوا .

وفيها : سار الأدفونش صاحب طليطلة بجموع الفرنج إلى قرطبة وحصرها ثلاثة أشهر ثم رحل عنها ولم يملكها .

وفيها : مات الأمير علىّ بن دُبيس بن صدقة صاحب الحلة .

ثم دخلت سنة ست وأربعين وخمسمائة :

ذكر هزيمة نور الدين من جوسلين ثم أسر جوسلين

كان جوسلين من أعظم فرسان الفرنج ، قد جمع بين الشجاعة وجودة الرأى ، وكان نور الدين قد عزم على قصد بلاده ، فجمع جوسلين الفرنج فأكثر وسار نحو نور الدين والتقوا ، فانهزم المسلمون وقتل وأسر منهم جمع كثير ، وكان من جملة من أسر السلحدار ومعه سلاح نور الدين ، فأرسله جوسلين إلى مسعود بن قليج أرسلان صاحب قونية وأقسرا وقال : هذا سلاح زوج ابنتك وسآتيك بعده بما هو أعظم منه ، فعظم ذلك على نور الدين وهجر الملاذ وافتكر فى أمر جوسلين ، وجمع التركمان ، وبذل لهم الوعود إن ظفروا به إما بإمساك أو بقتل ، فاتفق أن جوسلين طلع إلى الصيد فكبسه التركمان وأمسكوه ، فبذل لهم مالاً فأجابوه إلى إطلاقه ، فسار بعض التركمان وأعلم أبا بكر بن الداية نائب نور الدين بحلب ، فأرسل عسكرًا كبسوا التركمان الذين عندهم جوسلين وأحضروه إلى نور الدين أسيرًا .

وكان أسر جوسلين من أعظم الفتوح ، وأصيبت النصرانية كافة بأسره ، ولما أسر سار نور الدين إلى بلاد جوسلين وقلاعه فملكها ، وهى تل باشر وعين تاب وذلوك وعزاز وتل خالد وقورس والرواندان وبرج الرصاص وحصن الباره وكفر سود وكفر لاثا ومرعش ونهر الجوز وغير ذلك فى مدة يسيرة ، وكان نور الدين كلما فتح منها موضعًا حصنه بما يحتاج إليه من الرجال والذخائر .

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة :

من الكامل فى هذه السنة : سار عبدالمؤمن بن على إلى بجاية وملكها ، وملك جميع ممالك بنى حماد وأخذها من صاحبها يحيى بن العزيز بن حماد آخر ملوك بنى حماد ، وكان يحيى المذكور مولعًا بالصيد واللهو ، لا ينظر فى شىء من أمور مملكته ، ولما هزم عبدالمؤمن عسكر يحيى - هرب يحيى وتحصن بقلعة قسطنطينية من بلاد بجاية ، ثم نزل يحيى إلى عبدالمؤمن بالأمان فأمنه وأرسله إلى بلاد المغرب وأقام بها ، وأجرى عبدالمؤمن عليه شيئا كثيرًا - وقد ذكر فى تاريخ القيروان : أن مسير عبدالمؤمن وملكه تونس وأفريقية إنما كان فى سنة أربع وخمسين وخمسمائة .

ذكر وفاة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه وملك ملكشاه ومحمد ابنى محمود

فى هذه السنة : وقيل فى أواخر سنة ست وأربعين فى أول رجب ، توفى السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمدان ، ومولده سنة اثنتين وخمسمائة فى ذى القعدة ، ومات معه سعادة البيت السلجوقى ، فلم يقم لهم بعده راية يعتدبها ، وكان حسن الأخلاق ، كثير المزاح والانبساط مع الناس ، كريمًا عفيفًا عن أموال الرعايا .

ولما مات عهد بالملك إلى ابن أخيه ملكشاه بن محمود ، فقعد فى السلطنة ، وخطب له ، وكان المتغلب على المملكة أميرًا يقال له : خاص بك ، وأصله صبى تركمانى اتصل بخدمة السلطان مسعود ، فتقدم على سائر أمرائه ، ثم إن خاص بك المذكور قبض على السلطان ملكشاه بن محمود وسجنه وأرسل إلى أخيه محمد بن محمود وهو بخورستان فأحضره وتولى السلطنة ، وجلس على السرير ، وكان قصد خاص بك أن يمسكه ويخطب لنفسه بالسلطنة ، فبدره السلطان محمد فى ثانى يوم وصوله ، فقتل خاص بك وقتل معه زنكى الجاندار ، وألقى برأسيهما فتفرق أصحابهما .

ذكر فتح دلوك

فى هذه السنة : جمعت الفرنج وساروا إلى نور الدين وهو محاصر دلوك ، فرحل عنها وقاتلهم أشد قتال رآه الناس ، وانهزمت الفرنج ، وقتل وأسر كثير منهم ، ثم عاد نور الدين إلى دلوك فملكها ، ومما مدح به فى ذلك اليوم :

أعدتَ بعصرك هذا الجديـ ـد فتوح النبى وأعصارها
وفى تل باشر باشرتهم بزحف تسوّر أسوارها
وإن دالكتهم دلوك فقد أسرت فصدقت أخبارها

ذكر ابتداء ظهور الملوك الغورية وانقراض دولة آل سبكتكين

أول من اشتهر من الملوك الغورية أولاد الحسين ، وأولهم محمد بن الحسين ، وكان قد صاهر بهرام شاه بن مسعود صاحب غزنة من آل سبكتكين ، وسار محمد بن الحسين المذكور إلى غزنة

يظهر الطاعة لبهرام شاه ويبطن الغدر فأمسكه بهرام شاه وقتله ، فتولى بعده فى ملك الغورية أخوه سودى بن الحسين وسار إلى غزنة طالبًا بثأر أخيه ، وجرى القتال بينه وبين بهرام شاه ، فظفر بهرام شاه بسودى وقتله أيضًا وانهزم عسكره ، ثم ملك بعدهما أخوهما علاء الدين الحسين ابن الحسين وسار إلى غزنة ، فانهزم عنها صاحبها بهرام شاه واستولى علاء الدين الحسين على غزنة وأقام فيها أخاه سيف الدين سام بن الحسين ، وعاد علاء الدين الحسين بن الحسين إلى الغور ، فكاتب أهل غزنة بهرام شاه فسار إليهم واقتتل مع سيف الدين الغورى ، فانتصر بهرام شاه وظفر بسيف الدين سام فقتله ، واستقر بهرام شاه فى ملك غزنة .

ثم توفى بهرام شاه ، وملك بعده ابنه خسرو شاه ، وتجهز علاء الدين الحسين ملك الغورية وسار إلى غزنة فى سنة خمسين وخمسمائة ، فلما قرب منها فارقها صاحبها خسرو شاه بن بهرام شاه وسار إلى لهاوور ، وملك علاء الدين الحسين بن الحسين غزنة ونهبها ثلاثة أيام ، وتلقب علاء الدين بالسلطان المعظم ، وحمل الجتر على عادة السلاطين السلجوقية ، وأقام الحسين على ذلك مدة ، واستعمل على غزنة ابنى أخيه وهما غياث الدين محمد بن سام وأخوه شهاب الدين محمد بن سام ، ثم جرى بينهما وبين عمهما علاء الدين الحسين حرب انتصرا فيه على عمهما وأسراه ، ولما أسراه أطلقاه وأجلساه على التخت ووقفا فى خدمته واستمر عمهما فى السلطنة ، وزوج غياث الدين بابنته وجعله ولىّ عهده ، وبقى كذلك إلى أن مات علاء الدين الحسين بن الحسين فى سنة ست وخمسين وخمسمائة على ما سنذكره ، وملك بعده غياث الدين محمد بن سام بن الحسين ، وخطب لنفسه فى الغور وغزنة بالملك ، ثم استولى الغز على غزنة وملكوها منه مدة خمس عشرة سنة ، ثم أرسل غياث الدين أخاه شهاب الدين إلى غزنة فسار إليها ، وهزم الغز وقتل منهم خلقًا كثيرًا ، واستولى على غزنة وما جاورها من البلاد مثل كرمان وشنوران وماه السند ، وقصد لهاوور وبها يومئذ خسروشاه بن بهرام شاه السبكتكينى فملكها شهاب الدين فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة بعد حصار ، وأعطى خسروشاه الأمان وحلف له ، فحضر خسروشاه عند شهاب الدين بن سام المذكور ، فأكرمه شهاب الدين ، وأقام خسروشاه على ذلك شهرين .

ولما بلغ غياث الدين بن سام ذلك أرسل إلى أخيه شهاب الدين يطلب منه خسروشاه فأمره شهاب الدين بالتوجه ، فقال خسروشاه : أنا ما أعرف أخاك ، ولا سلمتُ نفسى إلا إليك فطيب شهاب الدين خاطره وأرسله ، وأرسل أيضًا ابن خسروشاه مع أبيه إلى غياث الدين وأرسل معهما عسكرًا يحفظونهما ، فلما وصلوا إلى الغور لم يجتمع بهما غياث الدين ، بل أمر بهما فرفعا إلى بعض القلاع ، وكان آخر العهد بهما – وخسروشاه المذكور هو ابن بهرام شاه بن مسعود بن إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين ، وهو آخر ملوك ال سبكتكين ، وكان

ابتداء دولتهم سنة ست وستين وثلثمائة ، وملكوا مائتى سنة وثلاث عشرة سنة تقريبًا ، فيكون انقراض دولتهم فى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وقدمنا ذلك لتتصل أخبارهم ، وكان ملوكهم من أحسن الملوك سيرة ، وقيل إن خسروشاه توفى فى الملك ، وملك بعده ابنه ملكشاه على ما نشير إليه فى مواضعه إن شاء الله تعالى .

ولما استقر ملك الغورية بلهاوور واتسعت مملكتهم وكثرت عساكرهم ، كتب غياث الدين إلى أخيه شهاب الدين بإقامة الخطبة له بالسلطنة ، وتلقَّبَ بألقاب منها معين الإسلام قسيم أمير المؤمنين ، ولما استقر ذلك سار شهاب الدين إلى أخيه غياث الدين واجتمعا وسارا إلى خراسان وقصدا مدينة هراة وحاصراها ، وتسلمها غياث الدين بالأمان ، ثم سار ومعه شهاب الدين فى عساكرهما إلى بوشنج فملكها ، ثم عاد إلى باذغيس وكالين وبيوار فملكها ، ثم رجع غياث الدين إلى بلده فيروزكور ، ورجع أخوه شهاب الدين إلى غزنة ، ولما استقر شهاب الدين بغزنة قصد بلاد الهند وفتح مدينة آجُرّ ، ثم عاد إلى غزنة ، ثم قصد الهند فذلل صعابها وتيسّر له فتح الكثير من بلادهم ودوخ ملوكهم ، وبلغ منهم ما لم يبلغ أحد من ملوك المسلمين ، ولما كثر فتوحه فى الهند اجتمعت الهنود مع ملوكهم فى خلق كثير ، والتقوا مع شهاب الدين ، وجرى بينهم قتال عظيم ، فانهزم المسلمون ، وجرح شهاب الدين ، وبقى بين القتلى ، ثم اجتمعت عليه أصحابه وحملوه إلى مدينة آجُرّ ، واجتمعت عليه عساكره وأقام شهاب الدين فى آجُرّ حتى أتاه المدد من أخيه غياث الدين ، ثم اجتمعت الهنود وتنازل الجمعان وبينهما نهر ، فكبس عساكر المسلمين الهنود ، وتمت الهزيمة عليهم ، وقتل المسلمون من الهنود ما يفوق الحصر ، وقتلت ملكتهم ، وتمكن شهاب الدين بعد هذه الوقعة من بلاد الهند ، وأقطع مملوكه قطب الدين أيبك مدينة دهلى ، وهى من كرامى ممالك الهند ، فأرسل أيبك عسكرًا مع مقدم يقال له محمد بن بختيار ، فملكوا من الهند مواضع ما وصلها مسلم قبله حتى قاربوا جهة الصين .

ذكر وفاة صاحب ماردين

فى هذه السنة : توفى حسام الدين تمرتاش بن إيلغازى صاحب ماردين وميافارقين وكانت ولايته نيفًا وثلاثين سنة ، لأنه ولى بعد موت أبيه فى سنة ست عشرة وخمسمائة حسبما تقدم ذكره ، وتولى بعده ابنه نجم الدين البلى بن تمرتاش بن إيلغازى بن أُرتق .

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وخمسمائة :

ذكر أخبار الغز وهزيمة السلطان سنجر منهم وأسره

فى هذه السنة : فى المحرم انهزم السلطان سنجر من الأتراك الغز ، وهم طائفة من الترك ، وكانوا بما وراء النهر ، فلما ملكه الخطا أخرجوهم منه فقصدوا خراسان ، وكانوا كفارًا ، وكان مَنْ أسلم منهم وخالط المسلمين يصير ترجمانًا بين الفريقين حتى صار مَنْ أسلم منهم قيل عنه : إنه صار ترجمانًا ، ثم قيل تركمانًا بالكاف العجمية ، وجمع على تراكمين ، ثم أسلم الغز جميعهم فقيل لهم تراكمين ، ولما قدموا إلى خراسان أقاموا بنواحى بلخ مدة طويلة ، ثم عنَّ للأمير قماح مقطع بلخ أن يخرجهم من بلاده فامتنعوا ، فسار قماح إليهم فى عشرة آلاف فارس ، فحضر إليه كبراء الغز وسألوه أن يكف عنهم ويتركهم فى مراعيهم ، ويعطوه عن كل بيت مائتى درهم فلم يجبهم إلى ذلك ، وأسرَّ[1] على إخراجهم أو قتالهم فاجتمعوا واقتتلوا ، فانهزم قماح وتبعه الغز يقتلون ويأسرون ، ثم عاثوا فى البلاد ، فاسترقوا النساء والأطفال ، وخربوا المدارس وقتلوا الفقهاء ، وعملوا كل عظيمة .

ووصل قماح إلى السلطان سنجر منهزمًا وأعلمه بالحال ، فجمع سنجر عساكره وسار إليهم فى مائة ألف فارس ، فأرسل الغز يعتذرون إليه مما وقع منهم ، وبذلوا له بذلا كثيرًا ليكف عنهم فلم يجبهم ، وقصدهم ووقعت بينهم حرب شديدة ، فانهزمت عساكر سنجر وتبعهم الغز يقتلون فيهم ويأسرون ، فقتل علاء الدين قماح ، وأسر السلطان سنجر وأسر معه جماعة من الأمراء فضربوا أعناقهم ، وأما سنجر فلما أسروه ، اجتمع أمراء الغز وقبلوا الأرض بين يديه وقالوا له : نحن عبيدك لا نخرج عن طاعتك ، وبقى معهم كذلك شهرين أو ثلاثة ، ودخلوا معه إلى مرو وهى كرسى ملك خراسان فطلبها منه بختيار أقطاعًا ، وهو من أكبر أمراء الغز ، فقال سنجر : هذه دار الملك ولا يجوز أن يكون إقطاعًا لأحد فضحكوا منه ، وحَبَقَ له بختيار بفمه ، فلما رأى سنجر ذلك نزل عن سرير الملك ودخل خانقاه مرو وتاب من الملك ، واستولى الغز على البلاد ، فنهبوا نيسابور ، وقتلوا الكبار والصغار ، وقتلوا القضاة والعلماء والصلحاء الذين بتلك البلاد ، فقتل الحسين بن محمد الأرسانيدى ، والقاضى على بن مسعود ، والشيخ محيى

---

(١) هكذا فى ط ومعنى أسرَّ : أظهر ، والأقرب إلى الصواب أصرَّ : أى عزم . انظر : لسان العرب مادة : (سَرَرَ) و (صَرَرَ) .

الدين بن يحيى الفقيه الشافعي الذى لم يكن فى زمانه مثله ، وكان رحلة الناس من الشرق والغرب وغيرهم من الأئمة والفضلاء ، ولم يسلم شيء من خراسان من النهب غير هراة ودهستان لحصانتها .

ولما كان من هزيمة سنجر وأسره ما كان ، اجتمع عسكره على مملوك لسنجر يقال له : (أى به) ولقبه المؤيد ، واستولى المؤيد على نيسابور وطوس ونسا وأبيورد وشهرستان والدامغان وأزاح الغز عنها ، وأحسن السيرة فى الناس ، وكذلك استولى فى السنة المذكورة على الرى مملوك لسنجر يقال له : إينانج وهادى الملوك ، واستقر قدمه وعظم شأنه .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : قتل العادل بن السلار وزير الظافر العلوى ، قتله ربيبه عباس بن أبى الفتوح الصنهاجى بإشارة أسامة بن منقذ ، وكان العادل قد تزوج بأم عباس المذكور ، وأحسن تربية عباس فجازاه بأن قتله وولى مكانه ، وكانت الوزارة فى مصر لمن غلب .

وفيها : كان بين عبدالمؤمن ملك الغرب وبين العرب حرب شديدة انتصر فيها عبدالمؤمن .

وفيها : مات رجار الفرنجى ملك صقلية بالخوانيق ، وكان عمره قريب ثمانين سنة ، وملكه نحو عشرين سنة ، وملك بعده ابنه غليالم .

وفيها : فى رجب توفى بغزنة بهرام شاه بن مسعود بن إبراهيم السبكتكينى صاحب غزنة ، وقام بالملك بعده ولده نظام الدين خسروشاه ، وكانت مدة ملك بهرام شاه نحو ست وثلاثين سنة وذلك من حين قتل أخاه أرسلان شاه بن مسعود فى سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ، وكان ابتداء ولايته من حين انهزم أخوه قبل ذلك فى سنة ثمان وخمسمائة حسبما تقدم ذكره فى السنة المذكورة ، وكان بهرام شاه حسن السيرة .

وفيها : ملك الفرنج مدينة عسقلان ، وكانت لخلفاء مصر ، والوزراء يجهزون إليها المؤن والسلاح ، فلما كانت هذه السنة قتل العادل بن السلار واختلفت الأهواء فى مصر ، فتمكن الفرنج من عسقلان وحاصروها وملكوها .

وفيها : وصلت مراكب من صقلية فنهبوا مدينة تنيس بالديار المصرية .

وفيها : توفى أبو الفتح محمد بن عبدالكريم بن أحمد الشهرستانى المتكلم على مذهب الأشعرى ، وكان إمامًا فى علم الكلام والفقه ، وله عدة مصنفات منها : نهاية الإقدام فى علم الكلام ، والملل والنحل ، والمناهج ، وتلخيص الأقسام لمذاهب الأنام ، ودخل بغداد سنة عشر وخمسمائة ، وكانت ولادته سنة سبع وستين وأربعمائة بشهرستان ، وتوفى بها .

وشهرستان : اسم لثلاث مدن :

الأولى : شهرستان خراسان بين نيسابور وخوارزم عند أول الرمل المتصل بناحية خوارزم وهى التى منها محمد الشهرستانى المذكور ، وبناها عبدالله بن طاهر أمير خراسان .

الثانية : شهرستان بأرض فارس .

الثالثة : مدينة جى بأصفهان يقال لها شهرستان ، وبينها وبين اليهودية مدينة أصفهان نحو ميل ، ومعنى هذه الكلمة مدينة الناحية بالعجمى ، لأن شهر اسم المدينة وأستان الناحية .

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وخمسمائة :

ذكر قتل الظافر وولاية ابنه الفائز

فى هذه السنة : فى المحرم قتل الظافر بالله أبو منصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله عبدالمجيد العلوى ، قتله وزيره عباس الصنهاجى ، وسببه أنه كان لعباس ولد حسن الصورة يقال له نصر ، فأحبه الظافر ومابقى يفارقه ، وكان قد قدم من الشام مؤيد الدولة أسامة بن منقذ الكنانى فى وزارةالعادل ، فحسّن لعباس قتل العادل فقتله وتولى مكانه ، ثم حسّن لعباس أيضًا قتل الظافر ، فإنه قال له : كيف تصبر على ما أسمع من قبيح القول ، فقال له عباس : ما هو ؟ فقال : إن الناس يقولون إن الظافر يفعل بابنك نصر ، فأنف عباس وأمر ابنه نصرًا فدعا الظافر إلى بيته وقتلاه وقتلا كل من معه ، وسلم خادم صغير فحضر إلى القصر وأعلمهم بقتل الظافر ، ثم حضر عباس إلى القصر وطلب الاجتماع بالظافر وطلبه من أهل القصر فلم يجدوه ، فقال : أنتم قد قتلتموه ، فأحضر أخوين للظافر يقال لهما : يوسف وجبريل ، وقتلهما عباس المذكور أيضًا .

ثم أحضر الفائز بنصر الله أبا القاسم عيسى بن الظافر إسماعيل ثانى يوم قتل أبوه ، وله من العمر ثلاث سنين ، فحمله عباس على كتفه وأجلسه على سرير الملك وبايع له الناس ، وأخذ عباس من القصر من الأموال والجواهر النفيسة شيئا كثيرًا ، ولما فعل عباس ذلك اختلفت عليه الكلمة وثارت الجند والسودان ، وكان طلائع بن رزيك فى منية ابن خصيب واليًا عليها ، فأرسل إليه أهل القصر من النساء والخدام يستغيثون به ، وكان فيه شهامة ، فجمع جمعه وقصد عباسًا ، فهرب عباس إلى نحوالشام بما معه من الأموال والتحف التى لا يوجد مثلها ، ولما كان فى أثناء الطريق خرجت الفرنج على عباس المذكور فقتلوه وأخذوا ما كان معه وأسروا ابنه نصرًا ، وكان قد استقر طلائع بن رزيك بعد هرب عباس فى الوزارة ، ولقب الملك

الصالح ، فأرسل الصالح بن رزيك إلى الفرنج وبذل لهم مالاً وأخذ منهم نصر بن عباس وأحضره إلى مصر ، وأدخل القصر فقتل على باب زويلة .

وأما أسامة بن منقذ فإنه كان مع عباس ، فلما قتل عباس هرب أسامة ونجا إلى الشام ، ولما استقر أمر الصالح بن رزيك وقع فى الأعيان بالديار المصرية فأبادهم بالقتل والهروب إلى البلاد البعيدة .

ذكر حصر تكريت

فى هذه السنة : سار المقتفى لأمر الله الخليفة بعساكر بغداد وحصر تكريت وأقام عليها عدة مجانيق ، ثم رحل عنها ولم يظفر بها .

ذكر ملك نور الدين محمود بن زنكى دمشق وأخذها من صاحبها مجير الدين أبق بن محمد بن بورى بن طغتكين

كان الفرنج قد تغلّبوا بتلك الناحية بعد ملكهم مدينة عسقلان ، حتى إنهم استعرضوا كل مملوك وجارية بدمشق من النصارى ، وأطلقوا قهرًا كل من أراد منهم الخروج من دمشق واللحوق بوطنه شاء صاحبه أو أبى ، فخشى نور الدين أن يملكوا دمشق ، فكاتب أهل دمشق واستمالهم فى الباطن ، ثم سار إليها وحصرها ففتح له الباب الشرقى فدخل منه وملك المدينة وحصر مجير الدين فى القلعة وبذل له إقطاعا من جملته مدينة حمص ، فسلم مجير الدين القلعة إلى نور الدين وسار إلى حمص فلم يعطه إياها نور الدين وأعطاه عوضها بالس فلم يرضها مجير الدين وسار عنها إلى العراق ، وأقام ببغداد ، وابتنى دارا بقرب النظامية وسكنها حتى مات بها .

وفى هذه السنة والتى بعدها : ملك نور الدين قلعة تل باشر وأخذها من الفرنج .

ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة :

فى هذه السنة : سار الخليفة المقتفى إلى دقوقا فحصرها ، وبلغه حركة عسكر الموصل إليه فرحل عنها ولم يبلغ غرضا .

وفيها : هجم الغز نيسابور بالسيف ، وقيل كان معهم السلطان سنجر معتقلا وله اسم السلطنة ولكن لا يلتفت إليه ، وكان إذا قدم إليه الطعام يدخر منه ما يأكله وقتًا آخر خوفًا من انقطاعه عنه لتقصيرهم فى حقه .

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة :

فى هذه السنة : ثارت أهل بلاد أفريقية على من بها من الفرنج فقتلوهم ، وسار عسكر عبدالمؤمن فملك بونة ، وخرجت جميع أفريقية عن حكم الفرنج ماعدا المهدية وسوسة .

وفيها : قبض زين الدين على كوجك نائب قطب الدين مودود بن زنكى بن أقُسنقر صاحب الموصل على الملك سليمان شاه ابن السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقى ، وكان سليمان المذكور قد قدم إلى بغداد ، وخطب له بالسلطنة فى هذه السنة ، وخلع عليه الخليفة المقتفى وقلده السلطنة على عادتهم ، وخرج من بغداد بعسكر الخليفة ليملك به بلاد الجبل ، فاقتتل هو وابن عمه السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه ، فانهزم سليمان شاه وسار يريد بغداد على شهرزور ، فخرج إليه على كوجك بعسكر الموصل فأسره وحبسه بقلعة الموصل مكرمًا إلى أن كان منه ما نذكره فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

ذكر وفاة خوارزم شاه

فى هذه السنة : تاسع جمادى الآخرة ، توفى خوارزم شاه أُتْسز بن محمد بن أنوشتكين وكان قد أصابه فالج ، فاستعمل أدوية شديدة الحرارة فاشتد مرضه وتوفى ، وكانت ولادته فى رجب سنة تسعين وأربعمائة ، وكان حسن السيرة ، ولما توفى ملك بعده ابنه أرسلان بن أُتْسز .

ذكر وفاة ملك الروم

فى هذه السنة : توفى الملك مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان ابن سلجوق صاحب قونية وغيرها من بلاد الروم ، ولما توفى ملك بعده ابنه قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان المذكور .

ذكر هرب السلطان سنجر من أسر الغز

فى هذه السنة : فى رمضان ، هرب السلطان سنجر بن ملكشاه من أسر الغز وسار إلى قلعة ترمذ ، ثم سار من ترمذ إلى جيحون ، ووصل إلى دار ملكه بمرو فى رمضان من هذه السنة ، فكانت مدة أسره من سادس جمادى الأولى سنة ثمان وأربعين إلى رمضان سنة إحدى وخمسين

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : بايع عبدالمؤمن لولده محمد بولاية العهد بعده ، وكانت ولاية العهد لأبى حفص عمر ، وكان من أصحاب ابن تومرت وهو من أكبر الموحدين ، فأجاب إلى خلع نفسه والبيعة لابن عبدالمؤمن .

وفيها : استعمل عبدالمؤمن أولاده على البلاد ، فاستعمل ابنه عبدالله على بجاية وأعمالها وابنه عمر على تلمسان وأعمالها ، وابنه عليًّا على فاس وأعمالها ، وابنه أبا سعيد على سبتة والجزيرة الخضراء ومالقة ، وكذلك غيرهم .

وفى هذه السنة : سار الملك محمد ابن السلطان محمود السلجوقى من همدان بعساكر كثيرة إلى بغداد وحصرها وجرى بينهم قتال ، وحصن الخليفة المقتفى دار الخلافة واعتد للحصار واشتد الأمر على أهل بغداد ، وبينا الملك محمد على ذلك ، إذ وصل إليه الخبر أن أخاه ملكشاه ابن السلطان محمود والدكز صاحب بلاد أران ومعه الملك أرسلان ابن الملك طغريل بن محمد ، وكان الدكز مزوجًا بأم أرسلان المذكور قد دخلوا إلى همدان ، فرحل الملك محمد عن بغداد وسار نحوهم فى الرابع والعشرين من ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة .

وفيها : احترقت بغداد ، فاحترق درب فراشا ودرب الدواب ودرب اللبان وخرابة ابن جردة والظفرية والخاتونية ودار الخلافة وباب الأزج وسوق السلطان وغير ذلك .

وفيها : توفى أبو الحسن بن الخل شيخ الشافعية فى بغداد ، وهو من أصحاب الشاشى ، وجمع بين العلم والعمل .

وتوفى : ابن الآمدى الشاعر وهو من أهل النيل فى طبقة الغزى والأرجانى وكان عمره قد زاد على تسعين سنة .

وفيها : قتل مظفر بن حماد صاحب البطيحة ، قتل فى الحمام وتولى بعده ابنه .

وفيها : توفى الوأواء الحلبى الشاعر المشهور .

وفيها : توفى الحكيم أبو جعفر بن محمد البخارى بإسفرائن ، وكان عالما بعلوم الفلسفة .

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة :

ذكر الزلازل بالشام وأخبار بنى منقذ أصحاب شيزر إلى أن ملك نور الدين شيزر

فى هذه السنة : فى رجب كان بالشام زلازل قوية ، فخربت بها حماة وشيزر وحمص وحصن الأكراد وطرابلس وأنطاكية وغيرها من البلاد المجاورة لها حتى وقعت الأسوار والقلاع ، فقام نور الدين محمود بن زنكى فى ذلك الوقت المقام المرضى من تداركها بالعمارة ، وإغارته على الفرنج ليشغلهم عن قصد البلاد ، وهلك تحت الهدم ما لا يحصى ، ويكفى أن معلم كتّاب كان بمدينة حماة فارق المكتب ، وجاءت الزلزلة فسقط المكتب على الصبيان جميعهم ، قال المعلم : فلم يحضر أحد يسأل عن صبى كان له هناك ، ولما خربت قلعة شيزر بهذه الزلزلة ، ومات بنو منقذ تحت الردم سار الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى إلى شيزر وملكها يوم الثلاث ثالث جمادى الأولى من سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، واستولى على كل من فيها لبنى منقذ وسلمها إلى مجد الدين أبى بكر بن الداية .

وقد ذكر ابن الأثير : أن شيزر لم تزل لبنى منقذ يتوارثونها من أيام صالح بن مرداس صاحب حلب ، وليس الأمر كذلك ، فإن صالح المذكور كانت وفاته فى سنة عشرين وأربعمائة ، وملك بنى منقذ لشيزر كان فى سنة أربع وسبعين وأربعمائة ، فيكون ملكهم لشيزر بعد وفاة صالح بن مرداس بأربع وخمسين سنة .

ونحن نورد أخبار بنى منقذ محققة حسبما نقلناها من تاريخ مؤيد الدولة أسامة بن مرشد ، وكان المذكور أفضل بنى منقذ قال : وفى سنة ثمان وستين وأربعمائة ، بدأ جدى سديد الملك أبو الحسن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى بعمارة حصن الجسر وحصر به حصن شيزر ، (أقول) : ويعرف الجسر المذكور فى زماننا بجسر ابن منقذ ، وموضع الحصن اليوم تل خال من العمارة ، وهو غربى شيزر على مسافة قريبة منها .

رجعنا إلى كلام ابن منقذ قال : وكان فى شيزر والٍ للروم اسمه دمترى ، فلما طالت المضايقة لدمترى المذكور ، راسل جدى هو ومن عنده من الروم فى تسليم حصن شيزر إليه باقتراحات اقترحوها عليه ، منها مال يدفعه إلى دمترى المذكور ، ومنها إبقاءأملاك الأسقف الذى بها عليه ، فإنه استمر مقيما تحت يد جدى حتى مات بشيزر ، ومنها أن القنطارية وهم

رجالة الروم يسلفهم ديوانهم لثلاث سنين ، فسلم إليهم جدى ما التمسوه ، وتسلم حصن شيزر يوم الأحد فى رجب سنة أربع وسبعين وأربعمائة ، واستمر سديد الملك على بن مقلد المذكور مالكها إلى أن توفى فيها فى سادس المحرم سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، وتولى بعده ولده أبو المرهف نصر بن على إلى أن توفى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة ، وتولى بعده أخوه أبو العساكر سلطان بن على إلى أن توفى فيها ، وتولى ولده محمد بن سلطان إلى أن مات تحت الردم هو وثلاثة أولاده بالزلزلة فى هذه السنة المذكورة ، أعنى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة فى يوم الاثنين ثالث رجب ، انتهى ما نقلناه من تاريخ ابن منقذ .

ولنرجع إلى كلام ابن الأثير قال : فلما انتهى ملك شيزر إلى نصر بن على بن نصر بن منقذ ، استمر فيها إلى أن مات سنة إحدى وتسعين وأربعمائة - فلما حضره الموت استخلف أخاه مرشد بن على على حصن شيزر ، فقال مرشد : والله لا وليته ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها - ومرشد هو والد مؤيد الدولة أسامة بن منقذ ، فلما امتنع مرشد من الولاية ولاها نصر أخاه الصغير سلطان بن على ، واستمر مرشد مع أخيه سلطان على أجمل صحبة مدة من الزمان ، وكان لمرشد عدة أولاد نجباء ، ولم يكن لسلطان ولد ، ثم جاء لسلطان الأولاد فخشى على أولاده من أولاد أخيه مرشد ، وسعى المفسدون بين مرشد وسلطان ، فتغير كل منهما على صاحبه ، فكتب سلطان إلى أخيه مرشد أبياتًا يعاتبه ، وكان مرشد عالما بالأدب والشعر ، فأجابه مرشد بقصيدة طويلة منها :

شكت هجرنا والذنب فى ذاك ذنبها ... فياعجبًا من ظالم جاء شاكيا
وطاوعت الواشين فىّ وطالما ... عصيت عذولا فى هواها وواشيا
ومال بهاتيه الجمال إلى القلى ... وهيهات أن أمسى لها الدهر قاليا

ومنها :

ولما أتانى من قريظك جوهر ... جمعت المعالى فيه لى والمعانيا
وكنت هجرت الشعر حينًا لأنه ... تولى برغمى حين ولى شبابيا

ومنها :

وقلت أخى يرعى بنى وأسرتى ... ويحفظ عهدى فيهم وذماميا
فمالك لما أن حنى الدهر صعدتى ... وثلم منى صار ما كان ماضيا
تنكرت حتى صار برك قسوة ... وقربك منهم جفوة وتنائيا
على أننى ماحلت عما عهدته ... ولا غيرت هذى السنون وداديا

وكان الأمر بين مرشد وأخيه سلطان فيه تماسك إلى أن توفى مرشد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ، فأظهر سلطان التغير على أولاد أخيه مرشد المذكور وجاهرهم بالعداوة ففارقوا

شيزر ، وقصد أكثرهم نور الدين محمود بن زنكى وشكوا إليه من عمهم سلطان فغاظه ذلك ، ولم يمكنه قصده لاشتغاله بجهاد الفرنج ، وبقى سلطان كذلك إلى أن توفى ، وولى بعده أولاده ، فلما خربت القلعة فى هذه السنة بالزلزلة لم ينج من بنى منقذ الذين كانوا بها أحد ، فإن صاحبها منهم كان قد ختن ولده ، وعمل دعوة للناس وأحضر جميع بنى منقذ فى داره ، فجاءت الزلزلة فسقطت الدار والقلعة عليهم فهلكوا عن آخرهم ، وكان لصاحب شيزر ابن منقذ المذكور حصان يحبه ولا يزال على باب داره فلما جاءت الزلزلة وهلك بنو منقذ تحت الهدم ، سلم منهم واحد وهرب يطلب باب الدار ، فلما خرج من الباب رفسه الحصان المذكور فقتله ، وتسلم نور الدين القلعة والمدينة .

ذكر وفاة السلطان سنجر

فى هذه السنة : فى ربيع الأول توفى السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود ابن ميكائيل بن سلجوق ، أصابه قولنج ثم إسهال فمات منه ، ومولده بسنجار فى رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، واستوطن مدينة مرو من خراسان وقدم إلى بغداد مع أخيه السلطان محمد ، واجتمع معه بالخليفة المستظهر ، فلما مات محمد خوطب سنجر بالسلطان ، واستقام أمره وأطاعته السلاطين ، وخطب له على أكثر منابر الإسلام بالسلطنة نحو أربعين سنة ، وكان قبلها يخاطب بالملك نحو عشرين سنة ، ولم يزل أمره عاليًا إلى أن أسره الغز ، ولما خلص من أسرهم وكاد أن يعود إليه ملكه أدركه أجله ، وكان مهيبًا كريمًا ، وكانت البلاد فى زمانه آمنة – ولما وصل خبر موته إلى بغداد قطعت خطبته ،ولماحضر سنجر الموت استخلف على خراسان الملك محمود بن محمد بن بغراخان ، وهو ابن أخت سنجر ، فأقام خائفًا من الغز .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : استولى أبوسعيد بن عبدالمؤمن على غرناطة من الأندلس وأخذها من الملثمين ، وانقرضت دولة الملثمين ولم يبق لهم غير جزيرة ميورقة ، ثم سار أبوسعيد فى جزيرة الأندلس وفتح المرية وكانت بأيدى الفرنج مدة عشر سنين .

وفيها : ملك نور الدين بعلبك وأخذها من إنسان كان قد استولى عليها من أهل البقاع يقال له ضحاك البقاعى ، كان قد ولاه صاحب دمشق عليها ، فلما ملك نور الدين دمشق استولى ضحاك المذكور على بعلبك .

وفيها : قلع المقتفى الخليفة باب الكعبة وعمل عوضه بابًا مصفحًا بالفضة المذهبة ، وعمل لنفسه من الباب الأول تابوتًا يدفن فيه .

وفيها : مات محمد بن عبداللطيف بن محمد الخجندى ، رئيس أصحاب الشافعى بأصفهان ، وكان صدرًا مقدمًا عند السلاطين .

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة :

فيها : قصد ملكشاه ابن السلطان محمود السلجوقى قم وقاشان ونهبهما ، وكان أخوه السلطان محمد بن محمود بعد رحيله عن حصار بغداد قد مرض فطال مرضه ، فأرسل إلى أخيه ملكشاه أن يكف عن النهب ويجعله ولى عهده ، فلم يقبل ملكشاه ذلك ، ثم سار ملكشاه إلى خورستان واستولى عليها وأخذها من صاحبها شملة التركمانى .

وفى هذه السنة : توفى يحيى بن سلامة بن الحسن بميافارقين الحصكفى الشاعر ، وكان يتشيع ، ومن شعره :

وخليع بت أعذله ويرى عذلى من العبث
قلت إن الخمر مخبثة قال حاشاها من الخبث
قلت فالأرفاث تتبعها قال طيب العيش فى الرفث
قلت منها القىء قال أجل شرفت عن مخرج الخبث
وسأسلوها فقلت متى قال عند الكون فى الجدث

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وخمسمائة :

ذكر فتح المهدية

فى أواخر هذه السنة : نزل عبد المؤمن على مدينة المهدية وأخذها من الفرنج يوم عاشوراء سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وملك جميع أفريقية - وكان قد ملك الفرنج المهدية فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وأخذوها من صاحبها الحسن بن على بن يحيى بن تميم الصنهاجى ، وبقيت فى أيديهم إلى هذه السنة ، ففتحها عبدالمؤمن ، فكان ملك الفرنج المهدية اثنتى عشرة سنة تقريبًا ، ولما ملكها عبدالمؤمن أصلح أحوالها ، واستعمل عليها بعض أصحابه وجعل معه الحسن بن على الصنهاجى الذى كان صاحبها ، وكان قد سار إلى بنى حماد ملوك بجاية ، ثم اتصل بعبد المؤمن حسبما تقدم ذكر ذلك ، فأقام عنده مكرمًا إلى هذه السنة ، فأعاده عبدالمؤمن إلى المهدية ، وأعطاه بها دورًا نفيسة وأقطاعًا ، ثم رحل عبدالمؤمن عنها إلى الغرب .

ذكر وفاة السلطان محمد

وفى هذه السنة : وقيل فى سنة خمس وخمسين ، توفى السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى فى ذى الحجة ، وهو الذى حاصر بغداد – ولما عاد عنها لحقه سل وطال به فمات بباب همدان ، وكان مولده فى ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ، وكان كريمًا عاقلا ، وخلف ولدًا صغيرًا ، ولما حضره الموت سلم ولده إلى أقسنقر الأحمديلى وقال : أنا أعلم أن العساكر لا تطيع مثل هذا الطفل فهو وديعة عندك ، فارحل به إلى بلادك فرحل به أقسنقر إلى بلدة مراغا ، ولما مات السلطان محمد اختلفت الأمراء ، فطائفة طلبوا ملكشاه أخاه ، وطائفة طلبوا سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان الذى كان قد اعتقل فى الموصل وهم الأكثر ، ومنهم من طلب أرسلان بن طغريل الذى كان مع الدكز ، وبعد موت محمد سار أخوه ملكشاه إلى أصفهان فملكها .

ذكر مرض نور الدين

وفى هذه السنة : مرض نور الدين بن زنكى مرضًا شديدًا ، أرجف بموته بقلعة حلب ، فجمع أخوه أمير ميران بن زنكى جمعًا وحصر قلعة حلب ، وكان شيركوه بحمص وهو من أكبر أمراء نور الدين ، فسار إلى دمشق ليستولى عليها وبها أخوه نجم الدين أيوب ، فأنكر عليه أيوب ذلك وقال : أهلكتنا والمصلحة أن تعود إلى حلب ، فإن كان نور الدين حيًّا خدمته فى هذا الوقت ، وإن كان قد مات فإنا فى دمشق تفعل ما تريد من ملكها ، فعاد شيركوه إلى حلب مجدًّا ، وجلس نور الدين فى شباك يراه الناس فلما رأوه حيًّا تفرقوا عن أخيه أمير ميران واستقامت الأحوال .

ذكر أخبار اليمن
(من تاريخ اليمن لعمارة)

وفى هذه السنة : استقر فى ملك اليمن على بن مهدى ، وأزال ملك بنى نجاح على ما قدمنا ذكره فى سنة اثنتى عشرة وأربعمائة ، وعلى بن مهدى المذكور من حمير من أهل قرية يقال لها العنبرة من سواحل زبيد ، كان أبوه مهدى المذكور رجلا صالحًا ، ونشأ ابنه على طريقة أبيه فى العزلة والتمسك بالصلاح ، ثم حج واجتمع بالعراقيين وتضلع من معارفهم ، ثم صار على بن مهدى المذكور واعظًا ، وكان فصيحًا صبيحًا حسن الصوت عالمًا بالتفسير غزير المحفوظات ،

وكان يتحدث فى شىء من أحواله المستقبلات فيصدق ، فمالت إليه القلوب ، واستفحل أمره ، وصار له جموع ، فقصد الجبال وأقام بها إلى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، ثم عاد إلى أملاكه ، وكان يقول فى وعظه : أيها الناس ، دنا الوقت ، أزف الأمر ، كأنكم بما أقول لكم وقد رأيتمونى عيانا ، ثم عاد إلى الجبال إلى حصن يقال له الشرف ، وهو لبطن من خولان فأطاعوه وسمّاهم الأنصار ، وسمّى كل من صعد معه من تهامة المهاجرين ، وأقام على خولان رجلا اسمه سبا ، وعلى المهاجرين رجلا اسمه التويتى ، وسمّى كلا من الرجلين شيخ الإسلام وجعلهما نقيبين على الطائفتين فلا يخاطبه أحد غيرهما ، وهما يوصلان كلامه إلى الطائفتين ، وكلام الطائفتين وحوائجهما إليه ، وأخذ يفادى الغارات ويراوحها على التهائم حتى أخلى البوادى وقطع الحرث والقوافل ، ثم إنه حاصر زبيد واستمر مقيما عليها حتى قتل فاتك بن محمد آخر ملوك بنى نجاح ، قتله عبيده وجرى بين ابن مهدى وعبيد فاتك حروب كثيرة ، وآخرها أن ابن مهدى انتصر عليهم وملك زبيد ، واستقر فى دار الملك يوم الجمعة رابع عشر رجب من هذه السنة ، أعنى سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، وبقى بن مهدى فى الملك شهرين وأحد وعشرين يومًا ، ثم مات على بن مهدى المذكور فى السنة التى ملك فيها فى شوال .

ثم ملك اليمن بعده ولده مهدى بن على بن مهدى ، ولم يقع تاريخ وفاته ، ثم ملك اليمن بعده ولده عبدالنبى بن مهدى ، ثم خرجت المملكة عن عبدالنبى المذكور إلى أخيه عبدالله ، ثم عادت إلى عبدالنبى واستقر فيها حتى سار إليه توران شاه بن أيوب من مصر فى سنة تسع وستين وخمسمائة ، وفتح اليمن واستقر فى ملكه وأسر عبدالنبى المذكور ، وهو عبدالنبى بن مهدى بن على بن مهدى الحميرى ، وهو من ملك اليمن من بنى حمير .

وكان مذهب على بن مهدى التكفير بالمعاصى وقتل من خالف اعتقاده من أهل القبلة واستباحة وطء سباياهم واسترقاق ذراريهم ، وكان حنفى الفروع ، وكان أصحابه يعتقدون فيه فوق ما يعتقده الناس فى الأنبياء صلوات الله عليهم ، ومن سيرته قتل من شرب ومن سمع الغناء .

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وخمسمائة :

ذكر مسير سليمان شاه إلى همدان
وما كان منه إلى أن قتل

مات محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان ، أرسلت الأمراء وطلبوا عمه

قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل بشىء كثير وجهاز يليق بالسلطنة ، وسار معه زين الدين على كجك بعسكر الموصل إلى همدان ، وأقبلت العساكر إليهم ، كل يوم تلقاه طائفة وأمير ، ثم تسلطت العساكر عليه ولم يبق له حكم ، وكان سليمان فيه تهور وخرق ، وكان يدمن شرب الخمر ، حتى إنه شرب فى رمضان نهارًا ، وكان يجمع عنده المساخر ولا يلتفت إلى الأمراء ، فأهمل العسكر أمره وصاروا لا يحضرون بابه ، وكان قد ردّ جميع الأمور إلى شرف الدين كردبازو الخادم وهو من مسايخ الخدم السلجوقية يرجع إلى دين وحسن تدبير ، فاتفق يومًا أن سليمان شرب بظاهر همدان بالكشك ، فحضر إليه كردبازو ولامه ، فأمر سليمان مَنْ عنده من المساخر فعَبثوا بكردبازو ، حتى إن بعضهم كشف له سوءته ، فاتفق كردبازو مع الأمراء على قبضه ، وعمل كردبازو دعوة عظيمة ، فلما حضرها الملك سليمان فى داره قبض عليه كردبازو وحبسه ، وبقى فى الحبس مدة ، ثم أرسل إليه كردبازو من خنقه وقيل سقاه سمًّا ، فمات فى ربيع الآخر سنة ست وخمسين وخمسمائة .

ولما مات سار الدكز فى عساكر تزيد على عشرين ألفًا ومعه أرسلان شاه بن طغريل بن محمد ابن ملكشاه بن ألب أرسلان ، ووصل إلى همدان فلقيه كردبازو وأنزله فى دار المملكة وخطب لأرسلان شاه بالسلطنة – وكان الدكز مزوجًا بأم أرسلان شاه ، فولدت للدكز أولادًا منهم البهلوان محمد وقزل أرسلان عثمان أبناء الدكز ، وبقى الدكز أتابك أرسلان وابنه البهلوان وهو أخو أرسلان لأمه حاجبه ، وكان هذا الدكز أحد مماليك السلطان مسعود ، اشتراه فى أول أمره ، ثم أقطعه أران وبعض بلاد أذربيجان فعظم شأنه وقوى أمره .

ولما خطب لأرسلان شاه بالسلطنة فى تلك البلاد أرسل الدكز إلى بغداد يطلب الخطبة لأرسلان شاه على عادة الملوك السلجوقية فلم يجب إلى ذلك ، ونحن قد قدمنا ذكر موت سليمان وولاية أرسلان ليتصل ذكر الحادثة ، وهى فى الكامل مذكورة فى موضعين فى سنة خمس وسنة ست وخمسمائة .

ذكر وفاة الفائز وولاية العاضد العلويين

فى هذه السنة : توفى الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن إسماعيل الظافر خليفة مصر ، وكانت خلافته ست سنين ونحو شهرين ، وكان عمره لما ولى ثلاث سنين ، وقيل خمس سنين ، ولما مات دخل الصالح بن رزيك القصر وسأل عمن يصلح ؟ فأحضر له منهم إنسان كبير السن – فقال بعض أصحاب الصالح له سرا : لا يكون عباس أحزم منك حيث اختار الصغير ، فأعاد الصالح الرجل إلى موضعه ، وأمر بإحضار العاضد لدين الله أبى محمد عبدالله

ابن الأمير يوسف بن الحافظ ، ولم يكن أبوه خليفة ، وكان العاضد ذلك الوقت مراهقًا فبايع له بالخلافة وزوجه الصالح بابنته ، ونقل معها من الجهاز مالا يسمع بمثله .

ذكر وفاة المقتفى لأمر الله

فى هذه السنة : ثانى ربيع الأول ، توفى الخليفة المقتفى لأمر الله أبو عبدالله محمد بن المستظهر أبى العباس أحمد بعلة التراقى ، وكان مولده ثانى ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، وأمه أم ولد ، وكانت خلافته أربعًا وعشرين سنة وثلاثة أشهر وستة عشر يومًا ، وكان حسن السيرة ، وهو أول من استبد بالعراق منفردًا عن سلطان يكون معه ، وكان يبذل الأموال العظيمة لأصحاب الأخبار فى جميع البلاد ، حتى كان لايفوته منها شيء .

ذكر خلافة المستنجد
وهو ثانى ثلاثينهم

ولما توفى المقتفى لأمر الله محمد بويع ابنه يوسف ، ولقب المستنجد بالله ، وأم المستنجد أم ولد تدعى طاووس ، ولما بويع المستنجد بالخلافة بايعه أهله وأقاربه ، فمنهم عمه أبو طالب ، ثم أخوه أبو جعفر بن المقتفى ، وكان أكبر من المستنجد ، ثم بايعه الوزير ابن هبيرة وقاضى القضاة وغيرهم .

ذكر وفاة صاحب غزنة

فى هذه السنة : فى رجب ، توفى السلطان خسروشاه بن بهرام شاه بن مسعود بن إبراهيم ابن مسعود بن محمد بن سبكتكين صاحب غزنة ، وكان عادلا حسن السيرة ، وكانت ولايته فى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، ولما مات ملك بعده ابنه ملكشاه بن خسروشاه وقيل والده خسروشاه المذكور توفى فى حبس غياث الدين الغورى ، وأنه آخر ملوك بنى سبكتكين حسبما تقدم ذكره فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، والله أعلم بالصواب .

ذكر وفاة ملكشاه السلجوقى

فى هذه السنة : توفى السلطان ملكشاه بن محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بأصفهان مسمومًا .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : حج أسد الدين شيركوه بن شاذى مقدم جيش نور الدين محمود بن زنكى .

ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة :

فى هذه السنة : فى ربيع الآخر ، توفى الملك علاء الدين الحسين بن الحسين الغورى ملك الغور ، وكان عادلا حسن السيرة ، ولما مات ملك بعده ابن أخيه غياث الدين محمد ، وقد تقدم ذكر ذلك فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة .

ذكر نهب نيسابور وتخريبها وعمارة الشاذياخ

فى هذه السنة : تقدم المؤيد (أى به) بإمساك أعيان نيسابور ، لأنهم كانوا رؤساء للحرامية والمفسدين ، وأخذ المؤيد يقتل المفسدين ، فخربت نيسابور ، وكان من جملة ماخرب مسجد عقيل ، وكان مجمعًا لأهل العلم ، وكان فيه خزائن الكتب الموقوفة وخرب من مدارس الحنفية سبع عشرة مدرسة ، وأحرق ونهب عدة من خزائن الكتب .

وأما الشاذياخ ، فإن عبدالله بن طاهر بن الحسين بناها لما كان أميرًا على خراسان للمأمون وسكنها هو والجند ، ثم خربت بعد ذلك ، ثم جددت فى أيام السلطان ألب أرسلان السلجوقى ، ثم تشعثت بعد ذلك ، فلما كان الآن وخربت نيسابور أمر المؤيد (أى به) بإصلاح سور الشاذياخ وسكنها هو والناس ، فخربت نيسابور كل الخراب ولم يبق بها أحد .

ذكر قتل الصالح بن رزيك

فى هذه السنة : فى رمضان ، قتل الملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك الأرمنى وزير العاضد العلوى ، جهزت عليه عمة العاضد من قتله وهو داخل فى القصر بالسكاكين ، ولم يمت فى تلك الساعة ، بل حمل إلى بيته ، وأرسل يعتب على العاضد ، فأرسل العاضد إلى طلائع المذكور يحلف له أنه لم يرض ولا علم بذلك ، وأمسك العاضد عمته وأرسلها إلى طلائع فقتلها ، وسأل العاضد أن يولى ابنه رزيك الوزارة ولقب العادل ، ومات طلائع واستقر ابنه العادل رزيك فى الوزارة ، وكان للصالح طلائع شعر حسن ، فمنه فى الفخر :

أبى الله إلا أن يدين لنا الدهر ويخدمنا فى ملكنا العز والنصر
علمنا بأن المـال تفنى ألوفـه ويبقى لنا من بعده الأجر والذكر
خلطنا الندى بالبأس حتى كأننا سحاب لديه البرق والرعد والقطر

ذكر ملك عيسى مكة
(حرسها الله تعالى)

كان أمير مكة قاسم بن أبى فليتة بن قاسم بن أبى هاشم العلوى الحسينى ، فلما سمع بقرب الحاج من مكة صادر المجاورين وأعيان مكة ، وأخذ أموالهم وهرب إلى البرية ، فلما وصل الحاج إلى مكة رتب أمير الحاج مكان قاسم عمه عيسى بن قاسم بن أبى هاشم فبقى كذلك إلى شهر رمضان ، ثم إن قاسم بن أبى فليتة جمع العرب وقصد عمه عيسى ، فلما قارب مكة رحل عنها عيسى ، فعاد قاسم فملكها ، ولم يكن معه ما يرضى به العرب فكاتبوا عمه عيسى وصاروا معه ، فقدم عيسى إليهم ، فهرب قاسم وصعد إلى جبل أبى قبيس فسقط عن فرسه ، فأخذه أصحاب عمه عيسى وقتلوه ، فغسله عمه عيسى ودفنه بالمَعْلَى عند ابنه أبى فليتة ، واستقرت مكة لعيسى .

ذكر غـير ذلك

فى هذه السنة : عبر عبدالمؤمن بن على المجاز إلى الأندلس ، وبنى على جبل طارق من الأندلس مدينة حصينة وأقام بها عدة أشهر ، ثم عاد إلى مراكش .

وفيها : ملك قرار أرسلان صاحب حصن كيفا قلعة شاتان ، وكانت لطائفة من الأكراد ، ولما ملكها خربها وأضاف أعمالها إلى حصن طالب .

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة :

فى هذه السنة : نازل نور الدين محمود بن زنكى قلعة حارم وهى للفرنج مدة ، ثم رحل عنها ولم يملكها .

وفيها : سارت الكرج فى جمع عظيم ودخلوا بلاد الإسلام وملكوا مدينة دوين من أعمال أذربيجان ونهبوها ، ثم جمع الدكز صاحب أذربيجان جمعًا عظيمًا وغزا الكرج وانتصر عليهم .

وفيها : حج الناس فوقعت فتنة وقتال بين صاحب مكة وأمير الحج ، فرحل الحجاج ولم يقدر بعضهم على الطواف بعد الوقفة .

قال ابن الأثير : وكان ممن حج ولم يطف جدته أم أبيه فوصلت إلى بلادها وهى على إحرامها ، واستفتت الشيخ أبا القاسم بن البرزى فأفتى : أنها إذا دامت على مابقى من إحرامها إلى قابل وطافت ، كمل حجها الأول ، ثم تفدى وتحل ثم تحرم إحرامًا ثانيًا وتقف بعرفات وتكمل مناسك الحج فيصير لها حجة ثانية ، فبقيت على إحرامها إلى قابل وفعلت كما قال ، فتم حجها الأول والثانى .

وفيها : مات الكيا الصنهاجى صاحب الألموت مقدم الإسماعيلية وقام ابنه مقامه فأظهر التوبة .

وفيها : فى المحرم توفى الشيخ عدى بن مسافر الزاهد المقيم ببلد الكهارية من أعمال الموصل ، وأصل الشيخ عدى من الشام من بلد بعلبك فانتقل إلى الموصل ، وتبعه أهل السواد والجبال بتلك النواحى وأطاعوه وأحسنوا الظن به .

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة :

ذكر وزارة شاور ثم الضرغام

فى هذه السنة : فى صفر وزر شاور العاضد لدين الله العلوى ، وكان شاور يخدم الصالح طلائع بن رُزِّيك فولاه الصعيد ، وكانت ولاية الصعيد أكبر المناصب بعد الوزارة ، ولما خرج الصالح أوصى ابنه العادل أن لا يغير على شاور شيئا لعلمه بقوة شاور ، فلما تولى العادل بن الصالح الوزارة كتب إلى شاور بالعزل ، فجمع شاور جموعه وسار نحو العادل إلى القاهرة ، فهرب العادل وطرد ووراءه شاور وأمسكه وقتله وهو العادل رُزِّيك ابن الصالح طلائع بن رُزِّيك ، وانقرضت بقتله دولة بنى رزيك ، وفيهم يقول عمارة التميمى من أبيات طويلة :

ولت ليالى بنى رزيك وانصرمت والمدح والشكر فيهم غير منصرم
كأن صالحهم يوما وعاد لهم فى صدر ذا الدست لم يقعد ولم يقم

واستقر شاور فى الوزارة وتلقب بأمير الجيوش ، وأخذ أموال بنى رُزِّيك وودائعهم ، ثم الضرغام جمع جمعًا ونازع شاور فى الوزارة فى شهر رمضان وقوى على شاور ، فانهزم شاور إلى الشام مستنجدًا بنور الدين ، ولما تمكن ضرغام فى الوزارة قتل كثيرًا من الأمراء المصريين لتخلو له البلاد ، فضعفت الدولة لهذا السبب حتى خرجت البلاد من أيديهم .

ذكر وفاة عبدالمؤمن

فى هذه السنة : فى العشرين من جمادى الآخرة ، توفى عبدالمؤمن بن على صاحب بلاد المغرب وأفريقية والأندلس ، وكان قد سار من مراكش إلى سلا ، فمرض بها ومات ، ولما

حضره الموت ، جمع شيوخ الموحدين وقال لهم : قد جربت ابنى محمدًا فلم أره يصلح لهذا الأمر ، وإنما يصلح له ابنى يوسف فقدموه ، فبايعوه ودعى بأمير المؤمنين ، واستقرت قواعد ملكه ، وكانت مدة ولاية عبدالمؤمن ثلاثا وثلاثين سنة وشهورًا ، وكان حازمًا سديد الرأى حسن السياسة للأمور ، كثير سفك الدم على الذنب الصغير ،وكان يعظم أمر الدين ويقويه ويلزم الناس بالصلاة بحيث إنه من رؤى وقت الصلاة غير مصل قتل ، وجمع الناس فى المغرب على مذهب مالك فى الفروع وعلى مذهب أبى الحسن الأشعرى فى الأصول .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : ملك المؤيد (أى به) قومس ، ولما ملكها أرسل إليه السلطان أرسلان بن طغريل بن ملكشاه خلعة وألوية وهدية جليلة ، فلبس المؤيد (أى به) الخلع وخطب له فى بلاده .

وفى هذه السنة :كبس الفرنج نور الدين محمود وهو نازل بعسكره فى البقيعة تحت حصن الأكراد ، فلم يشعر نور الدين وعسكره إلا وقد أطلت عليهم صلبان الفرنج وقصدوا خيمة نور الدين فلسرعة ذلك ركب نور الدين فرسه وفى رجله السنجة ، فنزل إنسان كردى فقطعها فنجا نور الدين وقتل الكردى ، فأحسن نور الدين إلى مخلفيه ووقف عليهم الوقوف ، وسار نور الدين إلى بحيرة حمص فنزل عليها وتلاحق به من سلم من المسلمين .

وفيها : أمر الخليفة المستنجد بإجلاء بنى أسد ، وهم أهل الحلة المزيدية ، فقتل منهم جماعة وهرب الباقون وتشتتوا فى البلاد ، وذلك لفسادهم فى البلاد ، وسلمت بطائحهم وبلادهم إلى رجل يقال له ابن معروف .

وفيها : توفى سديد الدولة محمد بن عبدالكريم بن إبراهيم المعروف بابن الأنبارى ، كاتب الإنشاء بدار الخلافة ، وكان فاضلا أديبًا ، وكان عمره قريب تسعين سنة .

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة :

فى هذه السنة : سير نور الدين محمود بن زنكى عسكرًا مقدمهم أسد الدين شيركوه بن شاذى إلى الديار المصرية ومعهم شاور ، وكان قد سار من مصر هاربًا من ضرغام الوزير فلحق شاور بنور الدين واستنجده وبذل له ثلث أموال مصر بعد رزق جندها إن أعاده إلى الوزارة ، فأرسل نور الدين شيركوه إلى مصر فوصل إليها وهزم عسكر ضرغام ، وقتل ضرغام عند قبر السيدة نفيسة ، وأعاد شاور إلى وزارة العاضد العلوى .

وكان مسير أسد الدين فى جمادى الأولى من هذه السنة ، واستقر شاور فى الوزارة ،

وخرجت إليه الخلع فى مستهل رجب من هذه السنة ، ثم غدر شاور بنور الدين ولم يف له بشىء مما شرط ، فسار أسد الدين واستولى على بلبيس والشرقية ، فأرسل شاور واستنجد بالفرنج على إخراج أسد الدين شيركوه من البلاد ، فسار الفرنج واجتمع معهم شاور بعسكر مصر ، وحصروا شيركوه ببلبيس ودام الحصار مدة ثلاثة أشهر ، وبلغ الفرنج حركة نور الدين وأخذه حارم فراسلوا شيركوه فى الصلح وفتحوا له ، فخرج من بلبيس بمن معه من العسكر وسار بهم ووصلوا إلى الشام سالمين .

وفى هذه السنة : فى رمضان ، فتح نور الدين محمود قلعة حارم وأخذها من الفرنج بعد مصاف جرى بين نور الدين والفرنج ، انتصر فيه نور الدين وقتل وأسر من الفرنج عالمًا كثيرًا ، وكان فى جملة الأسرى البرنس صاحب أنطاكية ، والقومص صاحب طرابلس ، وغنم منهم المسلمون شيئا كثيرا .

وفى هذه السنة : أيضًا ، فى ذى الحجة سار نور الدين إلى بانياس وفتحها ، وكانت بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة إلى هذه السنة .

وفى هذه السنة : توفى جمال الدين أبو جعفر محمد بن على بن أبى منصور الأصفهانى وزير قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل فى شعبان مقبوضًا عليه ، وكان قد قبض عليه قطب الدين فى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، وكان قد تعاهد جمال الدين المذكور وأسد الدين شيركوه أنهما من مات منهما قبل الآخر ينقله الآخر إلى مدينة الرسول ﷺ فيدفنه فيها ، فنقله شيركوه ، واكترى له من يقرأ القرآن عند شيله وحطه ، وكان ينادى فى كل بلد ينزلونه بها بالصلاة عليه ، ولما أرادوا الصلاة عليه بالحلة صعد شاب على موضع مرتفع وأنشد :

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما سرى جوده فوق الركاب ونائله
يمر على الوادى فتبكى رماله . عليه وبالنادى فتثنى أرامله

وطيف به حول الكعبة ، ودفن فى رباط بالمدينة بناه لنفسه ، وبينه وبين قبر النبى ﷺ نحو خمسة عشر ذراعًا .

وهذا جمال الدين هو الذى جدد مسجد الخيف بمنى ، وبنى الحجر بجانب الكعبة ، وزخرف الكعبة ، وغرم جملة طائلة لصاحب مكة وللمقتفى حتى مكنه من ذلك ، وهو الذى بنى المسجد الذى على جبل عرفات وعمل الدرج إليه ، وعمل بعرفات مصانع الماء ، وبنى سورًا على مدينة النبى ﷺ ، وبنى على دجلة جسرًا عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس ، فقبض قبل أن يفرغ ، وبنى الربط وغيرها .

وفى هذه السنة : توفى نصر بن خلف ملك سجستان وعمره أكثر من مائة سنة ومدة ملكه ثمانون سنة ، وملك بعده ابنه أبو الفتح أحمد بن نصر .

وفيها : توفى الإمام عمر الخوارزمى خطيب بلخ ومفتيها - والقاضى أبو بكر المحمودى صاحب التصانيف والأشعار ، وله مقامات بالفارسية على نمط مقامات الحريرى .

ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة :

فى هذه السنة : فى ربيع الأول ، توفى شاه مازندران رستم بن على بن شهريار بن قارن ، وملك بعده ابنه علاء الدين الحسن .

وفيها : ملك المؤيد (أى به) مدينة هراة .

وفيها : كان بين قليج أرسلان صاحب قونية وما جاورها من بلاد الروم وبين باغى أرسلان ابن الدانشمند صاحب ملطية وما يجاورها من بلاد الروم حروب شديدة ، انهزم فيها قليج أرسلان ، واتفق موت باغى أرسلان صاحب ملطية فى تلك المدة ، وملك بعده ملطية ابن أخيه إبراهيم بن محمد بن الدانشمند ، واستولى ذو النون بن محمد بن الدانشمند على قيسارية ، وملك شاهان شاه بن مسعود أخو قليج أرسلان مدينة أنكورية واصطلح المذكورون على ذلك ، واستقرت بينهم القواعد واتفقوا .

وفيها : توفى عون الدين الوزير ابن هبيرة ، واسمه يحيى بن محمد بن المظفر ، وكان موته فى جمادى الأولى ومولده سنة سبعين وأربعمائة ، ودفن بالمدرسة التى بناها للحنابلة بباب البصرة ، وكان حنبلى المذهب ، وأنفق على المقتفى إنفاقًا عظيما ، حتى إن المقتفى كان يقول : لم يتوزر لبنى العباس مثله ، ولما مات قبض على أولاده وأهله .

وفيها : توفى الشيخ الإمام أبو القاسم عمر بن عكرمة بن البرزى ، الفقيه الشافعى تفقه على الكيا الهراسى ، وكان أوحد زمانه فى الفقه ، وهو من جزيرة ابن عمر .

وفيها : توفى أبو الحسن هبة الله بن صاعد بن هبة الله المعروف بأمين الدولة ابن التلميذ ، وقد ناهز المائة من عمره ، وكان طبيب دار الخلافة ببغداد ، ومحظيًّا عند المقتفى ، وكان حاذقًا فاضلا ظريف الشخص عالى الهمة مصيب الفكر ، شيخ النصارى وقسيسهم ، وكان له فى الأدب يد طولى ، وكان متفننًا فى العلوم ، وكان فضلاء عصره يتعجبون : كيف حرم الإسلام مع كمال فهمه وغزارة علمه ، والله يهدى من يشاء بفضله ، ويضل من يريد بحكمه .

وكان أوحد الزمان أبو البركات هبة الله بن ملكان الحكيم المشهور ، صاحب كتاب المعتبر فى الحكمة معاصرًا لابن التلميذ المذكور ، وكان بينهما تنافس كما يقع كثيرًا بين أهل كل فضيلة وصنعة ، وكان أبو البركات المذكور يهوديًّا ، ثم أسلم فى آخر عمره ، وأصابه الجذام ، وتداوى وبرئ منه ، وذهب بصره وبقى أعمى وكان متكبرًا ، وكان ابن التلميذ متواضعًا فعمل ابن التلميذ فى أبى البركات المذكور :

لنا صديق يهودى حماقته إذا تكلم تبدو فيه من فيه
يتيه والكلب أعلى منه منزلة كأنه بعد لم يخرج من التيه

ولابن التلميذ أيضًا :

يامن رمانى عن قوس فرقته بسهم هجر على تلافيه
ارض لمن غاب عنك غيبته فذاك ذنب عقابه فيه

وله التصانيف الحسنة : منها كتاب أقراباذين ، وله على كليات القانون حواشى ، وكتاب أقراباذين ابن التلميذ المذكور هو المعتمد عليه عند الأطباء ، وكان شيخه فى الطب أبا الحسن هبة الله بن سعيد صاحب المغنى فى الطب ، ولابن سعيد المذكور أيضًا الإقناع فى الطب ، وهو كتاب جيد فى أربعة أجزاء .

ثم دخلت سنة إحدى وستين وخمسمائة :

فى هذه السنة : فتح نور الدين محمود حصن المنيطرة من الشام ، وكان بيد الفرنج .

وفيها : فى ربيع الآخر ، توفى الشيخ عبدالقادر بن أبى صالح الجيلى ، وكنيته أبو محمد ، وكان مقيما ببغداد ، ومولده سنة سبعين وربعمائة ، قال ابن الأثير : كان من الصلاح على حال عظيم ، وهو حنبلى المذهب ، ومدرسته ورباطه مشهوران ببغداد .

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة :

فى هذه السنة : عاد أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية ، وجهزه نور الدين بعسكر جيد ، عدتهم ألفا فارس ، فوصل إلى ديار مصر واستولى على الجيزة ، وأرسل شاور إلى الفرنج واستنجدهم وجمعهم وساروا فى إثر شيركوه إلى جهة الصعيد ، والتقوا على بلد يقال له إيوان ، فانهزم الفرنج والمصريون ، واستولى شيركوه على بلاد الجيزة واستغلها ، ثم سار إلى الإسكندرية وملكها ، وجعل فيها ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وعاد شيركوه إلى جهة الصعيد ، فاجتمع عسكر مصر والفرنج وحصروا صلاح الدين بالإسكندرية مدة ثلاثة أشهر ، فسار شيركوه إليهم فاتفقوا على الصلح على مال يحملونه إلى شيركوه ويسلم إليهم الإسكندرية ويعود إلى الشام ، فتسلم المصريون الإسكندرية فى منتصف شوال من هذه السنة ، وسار شيركوه إلى الشام فوصل إلى دمشق فى ثامن عشر ذى القعدة ، واستقر الصلح بين الفرنج والمصريين على أن يكون للفرنج بالقاهرة شحنة ، ويكون أبوابها بيد فرسانهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار .

وفى هذه السنة : فتح نور الدين صافيتا والغربية .

وفيها : عصا غازى بن حسان صاحب منبج على نور الدين بمنبج ، فسير إليه نور الدين

عسكرًا أخذوا منه منبج ، ثم أقطع نور الدين منبج قطب الدين ينال بن حسان أخا غازى المذكور ، فبقى فيها إلى أن أخذها منه صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

وفيها : توفى فخر الدين قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أُرتق صاحب حصن كيفا ، وملك بعده ولده نوز الدين محمود بن قرا أرسلان بن داود .

وفيها : توفى عبدالكريم أبو سعيد بن محمد بن منصور بن أبى بكر المظفر السمعانى المروزى الفقيه الشافعى ، وكان مكثرًا من سماع الحديث ، سافر فى طلبه إلى ما وراء النهر ، وسمع منه ما لم يسمعه غيره ، وله التصانيف المشهورة الحسنة ، منها : ذيل تاريخ بغداد ، وتاريخ مدينة مرو ، وكتاب الأنساب فى ثمان مجلدات ، وقد اختصر كتاب الأنساب المذكور الشيخ عز الدين على بن الأثير فى ثلاثة مجلدات ، والمختصر المذكور هو الموجود فى أيدى الناس ، والأصل قليل الوجود ، وله غير ذلك ، وقد جمع مشيخته فزادت عدتهم على أربعة آلاف شيخ ، وقد ذكره أبو الفرج بن الجوزى فأوقع فيه ، فمن جملة قوله فيه : أنه كان يأخذ الشيخ ببغداد ويعبر به إلى فوق نهر عيسى ويقول : حدثنى فلان بما وراء النهر - وهذا بارد جدًّا لأن السمعانى المذكور سافر إلى ما وراء النهر حقًّا ، فأى حاجة به إلى هذا التدليس ، وإنما ذنبه عند ابن الجوزى أنه شافعى وله أسوة بغيره ، فإن ابن الجوزى لم يبق على أحد غير الحنابلة .

وكانت ولادة أبى سعيد السمعانى المذكور فى شعبان سنة ست وخمسمائة ، وكان أبوه وجده فاضلين ، والسمعانى منسوب إلى سمعان وهو بطن من تميم .

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة :

وفى هذه السنة : فارق زين الدين على كجك بن بكتكين نائب قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل خدمة قطب الدين واستقر بأربل ، وكانت فى إقطاع زين الدين على المذكور قد عمى وطرش .

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة :

ذكر ملك نور الدين قلعة جعبر

فى هذه السنة : ملك نور الدين محمود قلعة جعبر وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك ابن على بن مالك بن سالم بن مالك بن بدران بن المقلد بن المثيب العقيلى ، وكانت بأيديهم من أيام السلطان ملكشاه ، ولم يقدر نور الدين على أخذها إلا بعد أن أسر صاحب مالك المذكور

بنو كلاب وأحضروه إلى نور الدين محمود ، واجتهد به على تسليمها فلم يفعل فأرسل عسكرًا مقدمهم فخر الدين مسعود بن أبى على الزعفرانى ، وردفه بعسكر آخر مع مجد الدين أبى بكر المعروف بابن الداية ، وكان رضيع نور الدين ، وحصروا قلعة جعبر فلم يظفروا منها بشىء ، ومازالوا على صاحبها مالك حتى سلمها وأخذ عنها عوضًا مدينة سرو بأعمالها ، والملوحة من بلد حلب وعشرين ألف دينار معجلة ، وباب بزاعة .

ذكر ملك أسد الدين شيركوه مصر وقتل شاور ، ثم ملك صلاح الدين وهو ابتداء الدولة الأيوبية

فى هذه السنة : أعنى سنة أربع وستين وخمسمائة فى ربيع الأول ، سار أسد الدين شيركوه ابن شاذى إلى ديار مصر ومعه العساكر النورية ، وسبب ذلك تمكن الفرنج من البلاد المصرية ، وتحكمهم على المسلمين بها حتى ملكوا بلبيس قهرًا فى مستهل صفر من هذه السنة ونهبوها وقتلوا أهلها وأسروهم ، ثم ساروا من بلبيس ونزلوا على القاهرة عاشر صفر وحاصروها فأحرق شاور مدينة مصر خوفا من أن يملكها الفرنج ، وأمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة ، فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يومًا ، فأرسل العاضد الخليفة إلى نور الدين يستغيث به ، وأرسل فى الكتب شعور النساء .

وصانع شاور الفرنج على ألف ألف دينار يحملها إليهم ، فحمل إليهم مائة ألف دينار وسألهم أن يرحلوا على القاهرة ليقدر على جمع المال وحمله فرحلوا – فجهز نور الدين العسكر مع شيركوه ، وأنفق فيهم المال ، وأعطى شيركوه مائتى ألف دينار سوى الثياب والدواب والأسلحة وغير ذلك ، وأرسل معه عدة أمراء منهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب على كره منه ، أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب الملك من بيته ، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه ﴿ وعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وهُو شَرٌّ لَكُمْ ﴾(١) ، ولما قارب شيركوه مصر رحل الفرنج من ديار مصر على أعقابهم إلى بلادهم ، فكان هذا لمصر فتحًا جديدًا ، ووصل أسد الدين شيركوه إلى القاهرة فى رابع ربيع الآخر ، واجتمع بالعاضد وخلع عليه ، وعاد إلى خيامه بالخلعة العاضدية ، وأجرى عليه وعلى عسكره الإقامات الوافرة ، وشرع شاور يماطل شيركوه فيما بذله لنور الدين من تقرير المال ،

---

(١) سورة البقرة من الآية ٢١٦ .

وإفراد ثلث البلاد له ، ومع ذلك فكان شاور يركب كل يوم إلى أسد الدين شيركوه ويعده ويمنيه ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[1] .

ثم إن شاور عزم على أن يعمل دعوة لشيركوه وأمرائه ويقبض عليهم فمنعه ابنه الكامل بن شاور من ذلك ، ولما رأى عسكر نور الدين من شاور ذلك عزموا على الفتك بشاور ، واتفق على ذلك صلاح الدين يوسف ، وعزالدين جرديك وغيرهما وعرفوا شيركوه بذلك فنهاهم عنه ، واتفق أن شاور قصد شيركوه على عادته فلم يجده فى المخيم ، وكان قد مضى لزيارة قبر الشافعى رضى الله عنه . فلقى صلاح الدين وجرديك شاور وأعلماه برواح شيركوه إلى زيارة الشافعى ، فساروا جميعًا إلى شيركوه ، فوثب صلاح الدين وجرديك ومن معهما على شاور وألقوه إلى الأرض عن فرسه وأمسكوه فى سابع ربيع الآخر من هذه السنة – أعنى سنة أربع وستين وخمسمائة –فهرب أصحابه عنه ، وأرسلوا أعلموا شيركوه بما فعلوه فحضر ، ولم يمكنه إلا إتمام ذلك .

وسمع العاضد الخبر ، فأرسل إلى شيركوه يطلب منه إنفاذ رأس شاور فقتله ، وأرسل رأسه إلى العاضد ، ودخل بعد ذلك شيركوه إلى القصر عند العاضد ، فخَلَع عليه العاضد خِلَع الوزارة ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش ، وسار بالخِلَع إلى دار الوزارة وهى التى كان فيها شاور واستقر فى الأمر ، وكتب له منشور بالإنشاء الفاضلى أو له بعد البسملة :

من عبدالله ووليه أبى محمد الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الأجلّ الملك المنصور سلطان الجيوش ولى الأئمة مجير الأمة أسد الدين أبى الحارث شيركوه العاضدى عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته ، سلام عليك ، فإنا نحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو .

ونسأله أن يصلى على محمد خاتم النبيين وسيدِ المرسلين وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين وسلم تسليما ».

ثم ذكر تفويض أمور الخلافة إليه ووصايا أضربنا عنها للاختصار ، وكتب العاضد بخطه على طرة المنشور : « هذا عهد لم يعهد لوزير بمثله ، فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلًا لحملها ، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة ، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى بنوة البنوة » .

ومدحت الشعراء أسد الدين ، ووصل إليه من الشام مديح لعماد الكاتب قصيدة أولها :

بالجد أدركتَ ما أدْركتَ لا اللَّعب كم راحة جُنِيَتْ من دَوْحَة التعب

(١) سورة النساء من الآية ١٢٠ .

يا شيركوه بن شاذى الملك دعوة مَنْ … نادى فعرَّف خير ابن لخير أب
جرى الملوك وما حازوا بركضهم … من المَدَى فى العلا ما حزت بالخَبَبِ
تمل من ملك مصر رتبة قصرت … عنها الملوك فطالت سائر الرتب
قد أمكنت أسد الدين الفريسة من … فتح البلاد فباد نحوها وثب

وفى شيركوه وقتل شاور يقول عرقلة الدمشقى :

لقد فاز بالملك العقيم خليفة … له شيركوه العاضدىّ وزير
هو الأسد الضارى الذى جل خطبه … وشاور كلب للرجال عقور
بغى وطغى حتى لقد قال صحبه … على مثلها كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربة قبره … ولا زال فيها منكر ونكير

وأما الكامل بن شاور ، فلما قتل أبوه دخل القصر ، فكان آخر العهد به .

ولما لم يبق لأسد الدين شيركوه منازع أتاه أجله ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾[1] ، وتوفى يوم السبت الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة ، فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام .

وكان شيركوه وأيوب ابنى شاذى من بلد دوين ، قال ابن الأثير : وأصلهما من الأكراد الروادية ، فقصدا العراق وخدما بهروز شحنة السلجوقية ببغداد ، وكان أيوب أكبر من شيركوه فجعله بهروز مستحفظًا لقلعة تكريت ، ولما انكسر عماد الدين زنكى من عسكر الخليفة ومرَّ على تكريت خدمه أيوب وشيركوه ، ثم إن شيركوه قتل إنسانًا بتكريت فأخرجهما بهروز من تكريت فلحقا بخدمة عماد الدين زنكى فأحسن إليهما وأعطاهما إقطاعات جليلة ، ولما ملك عماد الدين زنكى قلعة بعلبك جعل أيوب مستحفظًا لها ، ولما حاصره عسكر دمشق بعد موت زنكى سلمها أيوب إليهم على إقطاع كبير شرطوه له ، وبقى أيوب من أكبر أمراء عسكر دمشق ، وبقى شيركوه مع نور الدين محمود بعد قتل أبيه زنكى ، وأقطعه نور الدين حمص والرحبة لما رأى من شجاعته وزاده عليهما ، وجعله مقدم عسكره ، فلما أراد نور الدين ملك دمشق أمر شيركوه فكاتب أخاه أيوب ،فساعد أيوب نور الدين على ملك دمشق وبقيا مع نور الدين إلى أن أرسل شيركوه إلى مصر مرة بعد أخرى حتى ملكها وتوفى فيها فى هذه السنة على ما ذكرناه .

ولما توفى شيركوه كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب بن شاذى ، وكان قد سار معه على كره ، قال صلاح الدين : أمرنى نور الدين بالسير مع عمى شيركوه ، وكان قد قال شيركوه بحضرته لى : تجهّز يا يوسف للمسير ، فقلتُ : والله لو أعطيتُ ملك مصر ما سرت

(١) من الآية ٤٣ سورة الأنعام .

إليها ، فلقد قاسيتُ بالإسكندرية ما لا أنساهُ أبدًا ، فقال لنور الدين : لابد من مسيره معي ، فأمرني نور الدين وأنا أستقيل ، فقال نور الدين : لابد من مسيرك مع عمك ، فشكوت الضائقة ، فأعطاني ما تجهزتُ به ، فكأنما أنساق إلى الموت ، فلما مات شيركوه ، طلب جماعة من الأمراء النورية التقدم على العسكر وولاية الوزارة العاضدية ، منهم : عين الدولة الياروقي ، وقطب الدين ينال المنبجي ، وسيف الدين على بن أحمد المشطوب الهكاري ، وشهاب الدين محمود الحارمي وهو خال صلاح الدين ، فأرسل العاضد [مَنْ] أحضر صلاح الدين وولاه الوزارة ولقبه بالملك الناصر ، فلم تطعه الأمراء المذكورون ، وكان مع صلاح الدين الفقيه عيسى الهكاري ، فسعى مع المشطوب حتى أماله إلى صلاح الدين ، ثم قصد الحارمي وقال : هذا ابن أختك ، وعزه وملكه لك ، فمال إليه أيضًا ، ثم فعل بالباقين كذلك ، فكلهم أطاع غير عين الدولة الياروقي فإنه قال : أنا لا أخدم يوسف ، وعاد إلى نور الدين بالشام .

وثبت قدم صلاح الدين على أنه نائب لنور الدين ، وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الإسفهلار[1] ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيمًا عن أن يكتب اسمه ، وكان لا يفرده بكتاب بل إلى الأمير صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا ، ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أباه أيوب وأهله ، فأرسلهم إليه نور الدين ، فأعطاهم صلاح الدين الإقطاعات بمصر ، وتمكن من البلاد ، وضعف أمر العاضد ، ولما فوض الأمر إلى صلاح الدين تاب عن شرب الخمر ، وأعرض عن أسباب اللهو ، وتقمص لباس الجد ، ودام على ذلك إلى أن توفاه الله تعالى .

قال ابن الأثير مؤلف الكامل : رأيت كثيرًا من ابتدئ بالملك ينتقل إلى غير عقبه :

* فإن معاوية تغلّب وملك ، فانتقل الملكُ إلى بني مروان بعده .
* ثم ملّك السفاح من بني العباس ، فانتقل الملك إلى أخيه المنصور وعقبه .
* ثم السامانية أول من ابتدئ بالملك منهم نصر بن أحمد ، فانتقل الملك إلى أخيه إسماعيل وعقبه .
* ثم عماد الدولة بن بويه ملّك ، فانتقل الملك إلى عقب أخيه ركن الدولة .
* ثم ملّك طغريل بك السلجوقي ، فانتقل الملك إلى عقب أخيه داود .
* ثم شيركوه ملك ، فانتقل الملك إلى ابن أخيه – ولما قام صلاح الدين بالملك لم يبق الملك في عقبه ، بل انتقل إلى أخيه العادل وعقبه ، ولم يبق لأولاد صلاح الدين غير حلب ،

---

(١) الإسفهلار : هو لقب يطلق على كبير الأمراء .

وكان سبب ذلك كثرة قتل من يتولى ذلك أولاً وأخذه الملك وعيون أهله وقلوبهم متعلقة به فيحرم عقبه ذلك .

ولما استقر قدم صلاح الدين فى الوزارة قتل مؤتمن الخلافة وكان مقدم السودان ، فاجتمعت السودان وهم حفاظ القصر فى عدد كثير ، وجرى بينهم وبين صلاح الدين وعسكره وقعة عظيمة بين القصرين انهزم فيها السودان ، وقتل منهم خلق كثير ، وتبعهم صلاح الدين فأجلاهم قتلا وتهجيجًا ، وحكم صلاح الدين على القصر ، وأقام فيه بهاء الدين قراقوش الأسدى وكان خصيًّا أبيض ، وبقى لا يجرى فى القصر صغيرة ولا كبيرة إلا بأمر صلاح الدين .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : كان بين إينانج صاحب الرى والدكز حرب انتصر فيها الدكز وملك الرى ، وهرب إينانج وانحصر فى بعض القلاع ، فأرسل الدكز ورغب غلمان إينانج فى الإقطاعات إن قتلوا إينانج أستاذهم فقتلوه ولحقوا بالدكز فلم يف لهم وقال : مثل هؤلاء لا ينبغى الإبقاء عليهم ، فهربوا إلى البلاد ، ولحق بعضهم وهو الذى قتل أستاذه بخوارزم شاه فصلبه لخيانته أستاذه .

وفيها : توفى الشيخ أبو محمد الفارقى وكان أحد الزهاد وله كرامات كثيرة ، كان يتكلم على الخاطر ، وكلامه مجموع مشهور .

وفيها : توفى ياروق أرسلان التركمانى ، وكان مقدمًا كبيرًا ، وإليه تنسب الطائفة الياروقية من التركمان ، وكان عظيم الخلقة ، يسكن بظاهر حلب ، وبنى على شاطئ قويق هو وأتباعه عمائر كثيرة ، وتعرف الآن بالياروقية وهى مشهورة هناك .

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة :

فيها : سارت الفرنج إلى دمياط وحصروها ، وشحنها صلاح الدين بالرجال والسلاح والذخائر ، وأخرج على ذلك أموالاً عظيمة ، فحصروها خمسين يومًا ، وخرج نور الدين فأغار على بلادهم بالشام ، فرحلوا عائدين على أعقابهم ولم يظفروا بشىء منها ، قال صلاح الدين : ما رأيتُ أكرمَ من العاضد ، أرسل إلىَّ مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها .

وفيها : سار نور الدين وحاصر الكرك مدة ثم رحل عنه .

وفيها : كانت زلزلة عظيمة خربت الشام ، فقام نور الدين فى عمارة الأسوار وحفظ البلاد أتم قيام ، وكذلك خربت بلاد الفرنج فخافوا من نور الدين واشتغل كل منهم عن قصد الآخر بعمارة ما خرب من بلاده .

وفيها : فى ذى الحجة مات قطب الدين مودود بن زنكى بن أُقسنقر صاحب الموصل ، وكان مرضه حمى حادة ، ولما مات صرف أرباب الدولة الملك عن ابنه الأكبر عماد الدين زنكى بن مودود إلى أخيه الذى هو أصغر منه وهو سيف الدين غازى بن مودود ،فسار عماد الدين زنكى إلى عمه نور الدين مستنصرًا به ، وتوفى قطب الدين وعمره أربعون سنة تقريبًا ، وكانت مدة ملكه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفًا ، وكان من أحسن الملوك سيرة .

وفى هذه السنة : توفى الملك طغريل بك بن قاورت بك صاحب كرمان ، واختلف أولاده بهرام شاه ،وأرسلان شاه وهو الأكبر ، واستنجد كل منهما وطلب الملك فاتفق فى تلك المدة أن أرسلان شاه الأكبر مات فاستقر بهرام شاه فى ملك كرمان .

وفيها : توفى مجد الدين أبو بكر بن الداية رضيع نور الدين ، وكانت حلب وحارم وقلعة جعبر إقطاعة ، فأقر نور الدين أخاه عليًّا بن الداية على إقطاعه .

وفيها : توفى محمد بن محمد بن ظفر صاحب كتاب « سلوان المطاع » صنفه لبعض القواد بصقلية سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، وله أيضًا كتاب « نجباء الأبناء » ، وشرح مقامات الحريرى ، ومولده بصقلية ، وتنقل بالبلاد ، وأقام بمكة شرفها الله تعالى ، وسكن آخر وقت مدينة حماة وتوفى بها ، ولم يزل يكابد الفقر حتى مات رحمه الله تعالى .

ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة :

ذكر وفاة المستنجد وخلافة المستضىء
وهو ثالث ثلاثينهم

فى هذه السنة : تاسع ربيع الآخر ، توفى المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتفى لأمر الله أبى عبد الله محمد بن المستظهر بالله ، ومولده مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمسمائة وكان أسمر تام القامة طويل اللحية ، وكان سبب موته أنه مرض واشتد مرضه ، وكان قد خاف منه أستاذ داره عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء ، وقطب الدين قيماز المقتفوى وهو حينئذ أكبر أمراء بغداد ، فاتفقا ووضعا الطبيب على أن يصف له ما يهلكه فوصف له دخول الحمام فامتنع منه لضعفه ، ثم إنه دخلها وغلق عليه الباب فمات .

ولما مات المستنجد أحضر عضد الدين وقطب الدين المستضىء بأمر الله ابن المستنجد واشترطا عليه شروطًا : أن يكون عضد الدين وزيرًا ، وابنه كمال الدين أستاذ داره ، وقطب الدين أمير العسكر فأجابهم إلى ذلك ، واسم المستضىء الحسن وكنيته أبو محمد ، ولم يل الخلافة مَنْ اسمه حسن غير الحسن بن على المستضىء فبايعوه بالخلافة يوم مات أبوه بيعة خاصة وفى غده بيعة عامة ، وكان المستنجد حسن السيرة ، أطلق كثيرًا من المكوس[1] ، وكان شديدًا على أهل العبث والفساد .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : سار نور الدين محمود بن زنكى إلى الموصل وهى بيد ابن أخيه غازى بن مودود بن عماد الدين زنكى بن أقسنقر ، فاستولى عليها نور الدين وملكها ، ولما ملك نور الدين الموصل قرر أمرها ، وأطلق المكوس منها ، ثم وهبها لابن أخيه سيف الدين غازى المذكور ، وأعطى سنجار لعماد الدين زنكى بن مودود ، وهو أكبر من أخيه سيف الدين غازى ، فقال كمال الدين الشهر زورى : فى هذا طريق إلى أذى يحصل للبيت الأتابكى ، لأن عماد الدين كبير لا يرى طاعة أخيه سيف الدين ، وسيف الدين هو الملك لا يرى الإغضاء لعماد الدين ، فيحصل الخلف وتطمع الأعداء .

وفى هذه السنة : سار صلاح الدين عن مصر ، فغزا بلاد الفرنج قرب عسقلان والرملة ، وعاد إلى مصر ، ثم خرج إلى أيلة وحصرها ، وهى للفرنج على ساحل البحر الشرقى ، ونقل إليها المراكب وحصرها برًا وبحرًا ، وفتحها فى العشر الأول من ربيع الآخر ، واستباح أهلها وما فيها وعاد إلى مصر ، ولما استقر صلاح الدين بمصر ، كان بمصر دار للشحنة تسمى دار المعونة يحبس فيها فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعية ، وكذلك بنى دار الغزل مدرسة للشافعية ، وعزل قضاة المصريين وكانوا شيعة ، ورتب قضاة شافعية ، وذلك فى العشرين من جمادى الآخرة ، وكذلك اشترى تقى الدين عمر ابن أخيه صلاح الدين منازل الغز وبناها مدرسة للشافعية .

وفى هذه السنة : توفى القاضى ابن الخلال من أعيان الكتاب المصريين وفضلائهم ، وكان صاحب ديوان الإنشاء بها .

---

(١) المَكْس : الجباية انظر لسان العرب مادة مكس .

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة :

ذكر إقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلوية

فى هذه السنة : ثانى جمعة من المحرم قطعت خطبة العاضد لدين الله أبى محمد عبد الله بن الأمير يوسف ابن الحافظ لدين الله أبى الميمون عبد المجيد بن أبى القاسم محمد ، ولم يل الخلافة ابن المستنصر بالله أبى تميم معد ابن الظاهر لإعزاز دين الله أبى الحسن على ابن الحاكم بأمر الله أبى على المنصور ابن العزيز بالله أبى منصور ابن المعز لدين الله أبى تميم معد بن المنصور بالله أبى الطاهر إسماعيل ابن القائم بأمر الله أبى القاسم محمد ابن المهدى بالله أبى محمد عبيد الله أول الخلفاء العلويين من هذا البيت ، وقد مرَّ ذكر نسبه فى ابتداء دولتهم .

وكان سبب الخطبة العباسية بمصر ، أنه لما تمكن صلاح الدين من مصر وحكم على القصر وأقام فيه قراقوش الأسدى ، وكان خصيًّا أبيض ، وبلغ نور الدين ذلك ، أرسل إلى صلاح الدين يأمره حتمًا جزمًا بقطع الخطبة العلوية ، وإقامة الخطبة العباسية ، فراجعه صلاح الدين فى ذلك خوف الفتنة ، فلم يلتفت نور الدين إلى ذلك وأصر عليه .

وكان العاضد قد مرض ، فأمر صلاح الدين الخطباء أن يخطبوا للمستضىء ويقطعوا خطبة العاضد فامتثلوا ذلك ، ولم ينتطح فيها عنزان ، وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله بقطع خطبته ، فتوفى العاضد يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع خطبته ، ولما توفى العاضد جلس صلاح الدين للعزاء ، واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه ، وكان كثرته تخرج عن الإحصاء ، وكان فيه أشياء نفيسة من الأعلاق المثمنة والكتب والتحف ، فمن ذلك الحبل الياقوت ، وكان وزنه سبعة عشر درهمًا أو سبعة عشر مثقالاً – قال ابن الأثير مؤلف الكامل : أنا رأيته ووزنته .

ومما حكى أنه كان بالقصر طبل للقولنج إذا ضُرِبَ الإنسان به ضَرِطَ ، فكُسِرَ ولم يعلموا به إلا بعد ذلك ، ونقل صلاح الدين أهل العاضد إلى موضع من القصر وَوَكَّلَ بهم من يحفظهم ، وأخرج جميع من فيه من عَبْدٍ وأَمَةٍ ، فباع البعض وعتق البعض ووهب البعض ، وخلا القصر من سكانه كأن لم يغنَ بالأمس ، ولما اشتد مرض العاضد أرسل إلى صلاح الدين يستدعيه ، فظن ذلك خديعة فلم يمض إليه ، فلما توفى علم صدقه فندم لتخلفه عنه .

وجميع من خطب له منهم بالخلافة أربع عشرة خليفة : المهدى والقائم والمنصور والمعز

والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلى والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد – وجميع مدة خلافتهم من حين ظهر المهدى بسجلماسة فى ذى الحجة سنة ست وتسعين ومائتين إلى أن توفى العاضد فى هذه السنة ، أعنى سنة سبع وستين وخمسمائة – مائتان واثنتان وسبعون سنة تقريبًا ، وهذا دأب الدنيا ، لم تعط إلا واستردت ، ولم تحل إلا وتمررت ، ولم تصف إلا وتكدرت ، بل صفوها لا يخلو من الكدر .

ولما وصل خبر الخطبة العباسية بمصر إلى بغداد ، ضربت لها البشائر عدة أيام وسيرت الخلع مع عماد الدين صندل – وهو من خواص الخدم المقتفوية – إلى نور الدين وصلاح الدين ، والخطباء وسيرت الأعلام السود .

وكان العاضد المذكور قد رأى فى منامه أن عقربًا خرجت من مسجد بمصر معروف ذلك المسجد للعاضد ، ولدغته ، فاستيقظ العاضد مرعوبًا ، واستدعى من يعبر الرؤيا ، وقَصَّ ما رآه عليه فعبره له بوصول أذى إليه من شخص بذلك المسجد ، فتقدم العاضد إلى والى مصر بإحضار مَنْ بذلك المسجد ، فأحضر إليه شخصًا صوفيًّا يقال له نجم الدين الخُبُوشانِى ، فاستخبره العاضد عن مقدمه وسبب مقامه بالمسجد المذكور ، فأخبره بالصحيح فى ذلك ، فرآه العاضد أضعف من أن يناله بمكروه فوصله بمال وقال له : ادع لنا ياشيخ وأمره بالانصراف ، فلما أراد السلطان صلاح الدين إزالة الدولة العلوية والقبض عليهم استفتى فى ذلك ، فأفتاه بذلك جماعة من الفقهاء ، وكان نجم الدين الخُبُوشَانى المذكور من جملتهم ، فبالغ فى الفتيا وصرح فى خطه بتعديد مساويهم وسلب عنهم الإيمان وأطال الكلام فى ذلك ، فصح بذلك رؤيا العاضد .

ذكر غير ذلك

وفى هذه السنة : جرى بين نور الدين وصلاح الدين الوحشة فى الباطن ، فإن صلاح الدين سار ونازل الشوبك وهى للفرنج ، ثم رحل عنه خوفًا أن يأخذه ، فلم يبق ما يعوق نور الدين عن قصد مصر فتركه ولم يفتحه لذلك ، وبلغ نور الدين ذلك فكتمه ، وتوحش باطنه لصلاح الدين .

ولما استقر صلاح الدين بمصر ، جمع أقاربه وكبراء دولته وقال : بلغنى أن نور الدين يقصدنا فما الرأى ؟ فقال تقى الدين عمر ابن أخيه : نقاتله ونصدّه ، وكان ذلك بحضرة أبيهم نجم الدين أيوب ، فأنكر على تقى الدين ذلك وقال : أنا والدكم ، لو رأيت نور الدين ، نزلت وقبّلت الأرض بين يديه ، بل اكتب وقل لنور الدين ، إنه لو جاءنى من عندك إنسان واحد ،

وربط المنديل فى عنقى وجرّنى إليك ، سارعتُ إلى ذلك ، وانفضوا على ذلك ، ثم اجتمع أيوب بابنه صلاح الدين خلوة وقال له : لو قصدنا نور الدين ، أنا كنتُ أول من يمنعه ويقاتله ، ولكن إذا أظهرنا ذلك ، يترك نور الدين جميع ما هو فيه ويقصدنا ، ولا ندرى ما يكون من ذلك ، وإذا أظهرنا له الطاعة تمادى الوقت بما يحصل به الكفاية من عند الله ، فكان كما قال .

وفى هذه السنة : توفى الأمير محمد بن مردانيش ، صاحب شرقى بلاد الأندلس ، وهى مرسية وبلنسية وغيرهما ، فقصد أولاده أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ملك المغرب ، وسلموا إليه بلادهم ، فسُرَّ يوسف بذلك وتسلّمها منهم ، وتزوج بأختهم ، وأكرمهم ووصلهم بالأموال الجزيلة ، وكان قد قصدهم يوسف المذكور فى مائة ألف مقاتل ، فأجابوا بدون قتال كما ذكرنا .

وفى هذه السنة : عبر الخطا نهر جيحون ، فجمع خوارزم شاه أرسلان بن أتسز بن محمد ابن أنوش تكين عساكره ، وسار إلى لقائهم ، فمرض خوارزم شاه ، ورجع مريضًا ، وأرسل عسكرًا مع بعض المقدمين ، فاقتتلوا مع الخطا ، وانهزم عسكر خوارزم شاه وأسر مقدمهم ، ورجع الخطا إلى بلادهم بعد ذلك .

وفى هذه السنة : اتخذ نور الدين بالشام الحمام الهوادى ، وتسمّى المناسيب لنقل البطايق والأخبار .

وفيها : عزل المستضىء وزيره عضد الدين بن رئيس الرؤساء مكرهًا ، لأن قطب الدين قيماز ألزمه بعزله ، فلم يمكنه مخالفته .

وفيها : مات يحيى بن سعدون بن تمام الأزدى الأندلسى القرطبى ، وكان إمامًا فى القراءة والنحو وغيره من العلوم ، توفى بالموصل .

وفيها : توفى أبو محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد ، المعروف بابن الخشاب البغدادى ، العالم المشهور فى الأدب والنحو والتفسير والحديث ، وكان متضلعًا فى العلوم ، وكان قليل الاكتراث بالمأكل والملبس .

وفيها : توفى نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن على بن عبد النور بن قلاقس الشاعر المشهور الإسكندرى ، مدح القاضى الفاضل ، وكان كثير الأسفار ، سار إلى صقلية فى سنة ثلاث وخمسين ، ثم عاد وسار إلى اليمن فى سنة خمس وستين وخمسمائة وفى كثرة أسفاره يقول :

النـاس كثر ولكن لا يقـدّر لى إلاّ مـرافقـة المـلاح والحـادى

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة :

فى هذه السنة : توفى خوارزم شاه أرسلان بن أتسز بن محمد بن أنوشتكين وكان قد عاد

من قتال الخطا مريضًا ، ولما مات ملك بعده ابنه الصغير سلطان شاه محمود ، ودبرت والدته المملكة ، وكان ابنه الأكبر علاء الدين تكين مقيمًا فى جَنْدٍ قد أقطعه أبوه إياه ، فلما بلغه موت أبيه ، وولاية أخيه الصغير أنف من ذلك واستنجد بالخطا ، وسار إلى أخيه سلطان شاه وطرده ، ثم إن سلطان شاه قصد ملوك الأطراف ، واستنجدهم على أخيه تكش وطرده ، وكانت الحرب بينهم سجالاً حتى مات سلطان شاه فى سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، واستقر فى ملك خوارزم أخوه تكش بن أرسلان ، وفى تلك الحروب بين الأخوين قتل المؤيد (أى به) ، قتله تكش صَبرًا ، وملك بعده ابنه طغانشاه ابن المؤيد (أى به) .

وفى هذه السنة : سار شمس الدولة توران شاه بن أيوب ، أخو صلاح الدين الأكبر من مصر إلى النوبة للتغلب عليها ، فلم تعجبه تلك البلاد ، فغنم وعاد إلى مصر .

وفى هذه السنة : توفى شمس الدين الدكز بهمدان ، وملك بعده ابنه محمد البهلوان ولم يختلف عليه أحد ، وكان الدكز هذا مملوكًا للكمال السميرى وزير السلطان محمود ، ثم صار للسلطان محمود ، فلما ولى السلطان مسعود ولاه وكبّره حتى صار ملك أذربيجان وغيرها من بلاد الجبل وأصفهان والرى ، وكان عسكره خمسين ألف فارس ، وكان يخطب فى بلاده بالسلطنة للسلطان أرسلان بن طغريل بك ، ولم يكن لأرسلان معه حكم ، وكان الدكز حسن السيرة .

وفى هذه السنة : سار طائفة من الترك من ديار مصر مع مملوك لتقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب اسمه قراقوش إلى أفريقية ، ونزلوا على طرابلس الغرب فحاصرها مدة ثم فتحها ، واستولى عليها قراقوش المذكور ، وملك كثيرًا من بلاد أفريقية .

وفيها : غزا أبو يعقوب بن عبد المؤمن بلاد الفرنج بالأندلس .

وفيها : سار نور الدين محمود بن زنكى إلى بلاد قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان ، واستولى على مرعش وبهنسا ومرزبان وسيواس ، فأرسل إليه قليج أرسلان يستعطفه ويطلب الصلح ، فقال نور الدين : لا أرضى إلا بأن ترد ملطية على ذى النون بن الدانشمند ، وكان قليج أرسلان قد أخذها منه ، فبذل له سيواس ، واصطلح معه نور الدين ، فلما مات نور الدين عاد قليج أرسلان واستولى على سيواس ، وطرد ابن الدانشمند .

وفيها : سار صلاح الدين من مصر إلى الكرك وحصرها ، وكان قد واعد نور الدين أن يجتمعا على الكرك ، وسار نور الدين من دمشق حتى وصل إلى الرقيم ، وهو بالقرب من الكرك ، فخاف صلاح الدين من الاجتماع بنور الدين ، فرحل صلاح الدين عن الكرك عائدًا إلى مصر ، وأرسل تحفا إلى نور الدين ، واعتذر أن أباه أيوب مريض ويخشى أن يموت فتذهب مصر ، فقبل نور الدين عذره فى الظاهر وعلم المقصود ، ولما وصل صلاح الدين إلى مصر ، وجد أباه أيوب قد مات ، وكان سبب موت نجم الدين أيوب بن شاذى المذكور أنه

ركب بمصر فنفرت به فرسه ، فوقع وحمل إلى قصره ، وبقى أيامًا ومات في السابع والعشرين من ذى الحجة من هذه السنة ، وكان أيوب خبيرًا عاقلاً حسن السيرة كريمًا كثير الإحسان .

وفيها : توفى أبونزار حسن بن أبى الحسن صافى بن عبد الله بن نزار النحوى ، وقد ناهز الثمانين ، وهو المعروف بملك النحاة ، وبرع فى النحو حتى فاق فيه أهل طبقته ، وكان معجبًا بنفسه ، ولقب نفسه بملك النحاة ، وكان يسخط على من يخاطبه بغير ذلك ، وقرأ الفقه على مذهب الشافعى ، وكذلك قرأ الأصولين والخلاف ، وسافر إلى خراسان وكرمان وغزنة ، ثم رحل إلى الشام ، واستوطن دمشق .

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة :

ذكر ملك شمس الدولة توران شاه ابن أيوب اليمن

كان صلاح الدين وأهله خائفين من نور الدين ، فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر ، بحيث إن قصدهم نور الدين قاتلوه ، فإن هزمهم التجئوا إلى تلك المملكة ، فجهز صلاح الدين أخاه توران شاه إلى النوبة فلم تعجبهم بلادها ، ثم سيره فى هذه السنة بعسكر إلى اليمن ، وكان صاحب اليمن حينئذ إنسانًا يسمى عبد النبى المقدم الذكر فى سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، فتجهز توران شاه ووصل إلى اليمن وجرى بينه وبين عبد النبى قتال ، فانتصر توران شاه وهزم عبد النبى ، وهجم زبيد وملكها وأسر عبد النبى ، ثم قصد عدن ، وكان صاحبها إنسانًا اسمه ياسر فخرج لقتال توران شاه ، فهزمه توران شاه وهجم عدن وملكها ، وأسر ياسر أيضًا ، واستولى توران شاه على بلاد اليمن ، واستقرت فى ملك صلاح الدين ، واستولى على أموال عظيمة لعبد النبى وكذلك من عدن .

ذكر قتل جماعة من المصريين وعمارة اليمنى

فى هذه السنة : فى رمضان صلب صلاح الدين جماعة من أعيان المصريين ، فإنهم قصدوا الوثوب عليه وإعادة الدولة العلوية ، فعلم بهم وصلبهم عن آخرهم ، فمنهم عبد الصمد الكاتب ، والقاضى العويرس ، وداعى الدعاة ، وعمارة بن على اليمنى الشاعر الفقيه ، وله

أشعار حسنة ، فمنها ما يتعلق بأحوال العلويين وانقراض دولتهم قوله قصيدة منها :

رميت يادهر كف المجد بالشلل وجيده بعد حسن الحلى بالعطل
جدعت مارنك الأقنى فأنفك لا ينفك ما بين أمر الشين والخجل
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة على فجيعتها فى أكرم الدول
ياعاذلى فى هوى أبناء فاطمة لك الملامة أن أقصرت فى عذل
بالله زر ساحة القصرين وابك معى عليهما لا على صفين والجمل
وقل لأهلهما والله لا التحمت فيكم جروحى ولا قرحى بمندمل
ماذا ترى كانت الإفرنج فاعلة فى نسل آل أمير المؤمنين على

ومنها :

وقد حصلتم عليها واسم جدكم محمد وأبوكم خير منتعل
مررت بالقصر والأركان خالية من الوفود وكانت قبلة القبل

ومنها :

والله لا فاز يوم الحشر مبغضكم ولا نجا من عذاب الله غير ولى .
أئمتى وهداتى والذخيرة لى إذا ارتهنت بما قدمت من عملى
والله لاحلت عن حبى لهم أبدًا ما أخر الله لى فى مدة الأجل

وأيضًا له فيهم :

غصبت أمية إرث آل محمد سفهًا وشنت غارة الشنآن :
وغدت تخالف فى الخلافة أهلها وتقابل البرهان بالبرهان
لم تقتنع حكامهم بركوبهم ظهر النفاق وغارب العدوان
وقعودهم فى رتبة نبوية لم يبنها لهم أبو سفيان
حتى أضافوا بعد ذلك أنهم أخذوا بثار الكفر فى الإيمان
فأتى زياد فى القبيح زيادة تركت يزيد يزيد فى النقصان

ذكر وفاة نور الدين محمود

فى هذه السنة : توفى الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى بن أُقسنقر ، صاحب الشام وديار الجزيرة وغير ذلك ، يوم الأربعاء حادى عشر شوال بعلة الخوانيق بقلعة دمشق المحروسة ، وكان نور الدين قد شرع يتجهز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين ، وكان يريد أن يخلى ابن أخيه سيف الدين غازى بن مودود فى الشام قبالة الفرنج ، ويسير هو بنفسه إلى مصر ، فأتاه أمر الله الذى لا مردّ له ، وكان نور الدين أسمر ، طويل القامة ، ليس له لحية إلا فى حنكه ، حسن الصورة ، وكان قد اتسع ملكه جدًّا ، وخطب له بالحرمين ، واليمن لما ملكها توران شاه بن أيوب ، وكذلك كان يخطب له بمصر ، وكان مولد نور الدين سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، وطبق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله ، وكان من الزهد والعبادة على قدم عظيم ، وكان يصلّى كثيرًا من الليل ، فكان كما قيل :

جمع الشجاعة والخشوع لربه ما أحسن المحراب فى المحراب

وكان عارفًا بالفقه على مذهب أبى حنيفة ، وليس عنده فيه تعصب ، وهو الذى بنى أسوار مدن الشام مثل دمشق وحمص وحماة وحلب وشيزر وبعلبك وغيرها لما تهدمت بالزلازل ، وبنى المدارس الكثيرة الحنفية والشافعية ، ولا يحتمل هذا المختصر ذكر فضائله .

ولما توفى نور الدين قام ابنه الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود بالملك بعده ، وعمره إحدى عشرة سنة ، وحلف له العسكر بدمشق وأقام بها ، وأطاعه صلاح الدين بمصر ، وخطب له بها ، وضربت السكة باسمه ، وكان المتولى لتدبير الملك الصالح وتدبير دولته الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك ، المعروف بابن المقدم ، ولما مات نور الدين ، وتملك ابنه الملك الصالح ، سار من الموصل سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى ، وملك جميع البلاد الجزرية .

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة :

ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر

فى أول هذه السنة : اجتمع على رجل من أهل الصعيد يقال له الكنز جمع كثير ، وأظهر الخلاف على صلاح الدين ، فأرسل صلاح الدين إليه عسكرًا ، فاقتتلوا وقتل الكنز وجماعة معه وانهزم الباقون .

ذكر ملك صلاح الدين دمشق وغيرها

فى هذه السنة : سلخ ربيع الأول ، ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب مدينة دمشق وحمص وحماة ، وسببه أن شمس الدين بن الداية المقيم بحلب ، أرسل سعد الدين كمشتكين يستدعى الملك الصالح بن نور الدين من دمشق إلى حلب ، ليكون مقامه بها ، فسار الملك الصالح إلى حلب مع سعد الدين كمشتكين ، ولما استقر بحلب وتمكن كمشتكين ، قبض على شمس الدين بن الداية وإخوته ، وقبض على الرئيس ابن الخشاب وإخوته ، وهو رئيس حلب ، واستبدّ سعد الدين بتدبير الملك الصالح ، فخافه ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق ، وكاتبوا صلاح الدين بن أيوب صاحب مصر ، واستدعوه ليملكوه عليهم ، فسار صلاح الدين جريدة[1] فى سبعمائة فارس ، ولم يلبث ووصل إلى دمشق ، فخرج كل من كان بها من العسكر ، والتقوه وخدموه ، ونزّل بدار والده أيوب ، المعروفة بدار العقيقى وعصت عليه القلعة ، وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريحان ، فراسله صلاح الدين واستماله ، فسلّم القلعة إليه ، فصعد إليها صلاح الدين ، وأخذ ما فيها من الأموال .

ولما ثبت قدمه وقرر أمر دمشق ، استخلف بها أخاه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب ، وسار إلى حمص مستهل جمادى الأولى ، وكانت حمص وحماة وقلعة بارين وسلمية وتل خالد والرها من بلد الجزيرة ، فى إقطاع فخر الدين مسعود بن الزعفرانى ، فلما مات نور الدين ، لم يمكن فخر الدين مسعود المقام بحمص وحماة لسوء سيرته مع الناس ، وكانت هذه البلاد له بغير قلاعها ، فإن قلاعها كان فيها ولاة لنور الدين ، وليس لفخر الدين معهم فى القلاع حكم إلا بارين ، فإن قلعتها كانت له أيضا ، ونزل صلاح الدين على حمص فى حادى عشر جمادى الأولى ، وملك المدينة ، وعصت عليه القلعة ، فترك عليها من يضيق عليها ورحل إلى حماة ، فملك مدينتها مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة ، وكان بقلعتها الأمير عز الدين جرديك ، أحد المماليك النورية ، فامتنع فى القلعة ، فذكر له صلاح الدين أنه ليس له غرض سوى حفظ البلاد للملك الصالح إسماعيل ، وإنما هو نائبه ، وقصده من جرديك المسير إلى حلب فى رسالة ، فاستحلفه جرديك على ذلك ، وسار جرديك إلى حلب برسالة صلاح الدين ، واستخلف فى قلعة حماة أخاه ، فلما وصل جرديك إلى حلب ، قبض عليه كمشتكين وسجنه ،

---

(١) جريدة : أى لم يكن معه راجلا فى السير ، أوجدّ فى السير .

فلما علم أخوه بذلك سلم قلعة حماة إلى صلاح الدين فملكها ، ثم سار صلاح الدين إلى حلب وحصرها وبها الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين ، فجمع أهل حلب ، وقاتلوا صلاح الدين وصدوه عن حلب ، وأرسل سعد الدين كمشتكين إلى سنان مقدم الإسماعيلية أموالا عظيمة ليقتلوا صلاح الدين ، فأرسل سنان جماعة فوثبوا على صلاح الدين فقتلوا دونه ، واستمر صلاح الدين محاصرًا لحلب إلى مستهل رجب ، ورحل عنها بسبب نزول الفرنج على حمص ، ووصل صلاح الدين إلى حماة ثامن رجب ، وسار إلى حمص فرحل الفرنج عنها ، ووصل صلاح الدين إلى حمص ، وحصر قلعتها ، وملكها فى الحادى والعشرين من شعبان من هذه السنة ، ثم سار إلى بعلبك فملكها .

ولما استقر ملك صلاح الدين لهذه البلاد ، أرسل الملك الصالح إلى ابن عمه سيف الدين غازى صاحب الموصل ، يستنجده على صلاح الدين ، فجهز جيشه صحبة أخيه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى ، وجعل مقدم الجيش أكبر أمرائه وهو عز الدين محمود ، ولقبه سلقندار ، وطلب أخاه الأكبر عماد الدين زنكى بن مودود صاحب سنجار ليسير فى النجدة أيضًا ، فامتنع مصانعة لصلاح الدين ، فسار بسيف الدين غازى وحصره بسنجار ، ووصل عسكر الموصل صحبة مسعود بن مودود وسلقندار إلى حلب ، وانضم إليهم عسكر حلب ، وساروا إلى صلاح الدين ، فأرسل صلاح الدين يبذل حمص وحماة ، وأن تقر بيده دمشق ، وأن يكون فيها نائبًا للملك الصالح فلم يجيبوا إلى ذلك ، وساروا إلى قتاله ، واقتتلوا عند قرون حماة ، فانهزم عسكر الموصل وحلب ، وغنم صلاح الدين وعسكره أموالهم ، وتبعهم صلاح الدين حتى حصرهم فى حلب ، وقطع صلاح الدين حينئذ خطبة الملك الصالح ابن نور الدين ، وأزال اسمه عن السكة ، واستبد بالسلطنة ، فراسلوا صلاح الدين فى الصلح على أن يكون له ما بيده من الشام وللملك الصالح ما بقى بيده منه ، فصالحهم على ذلك ، ورحل عن حلب فى العشر الأول من شوال من هذه السنة ، أعنى سنة سبعين وخمسمائة .

وفى العشر الأخير من شوال من هذه السنة : ملك السلطان صلاح الدين قلعة بارين وأخذها من صاحبها فخر الدين مسعود بن الزعفرانى ، وكان فخر الدين المذكور من أكابر الأمراء النورية .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : ملك البهلوان بن الدكز مدينة تبريز ، وأخذها من أقسنقر الأحمد يلى .

وفيها : مات شملة التركمانى صاحب خورستان ، وملك ابنه بعده .

وفيها : وقع بين الخليفة وبين قطب الدين قيماز مقدم عسكر بغداد فتنة ، فنهبت دار قيماز وهرب إلى الحلة ، ثم إلى الموصل ، فلحق قيماز فى الطريق عطش شديد ، فهلك أكثر أصحابه ، ومات قطب الدين قيماز قبل أن يصل إلى الموصل ، فحمل ودفن بظاهر باب العمادى ، ولما هرب قيماز خلع الخليفة على عضد الدولة الوزير ، وأعاده إلى الوزارة .

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وخمسمائة :

ذكر انهزام سيف الدين غازى صاحب الموصل من السلطان صلاح الدين

فى هذه السنة : عاشر شوال ، كان المصاف بين السلطان صلاح الدين وبين سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى بتل السلطان ، فهرب سيف الدين غازى والعساكر التى كانت معه ، فإنه كان قد استنجد بصاحب حصن كيفا ، وصاحب ماردين وغيرهما ، وتمت على سيف الدين غازى الهزيمة حتى وصل الموصل مرعوبًا ، وقصد الهروب منها إلى بعض القلاع فثبته وزيره وأقام بالموصل ، واستولى السلطان صلاح الدين على أثقال عسكر الموصل وغيرهم وغنم ما فيها ، ثم سار السلطان صلاح الدين إلى بزاعة فحصرها وتسلمها ، ثم سار إلى منبج فحصرها فى آخر شوال ، وصاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجى ، وكان شديد البغض لصلاح الدين ، وفتحها عنوة ، وأسرينال ، وأخذ جميع موجوده ثم أطلقه ، فسارينال إلى الموصل فأقطعه سيف الدين غازى مدينة الرقة ، ثم سار السلطان صلاح الدين إلى إعزاز ونازلها ثالث ذى القعدة ، وتسلمها حادى عشر ذى الحجة ، فوثب إسماعيلى على صلاح الدين فى حصاره أعزاز فضربه بسكين فى رأسه فجرحه ، فأمسك صلاح الدين يدى الإسماعيلى ، وبقى يضرب بالسكين فلا يؤثر ، حتى قتل الإسماعيلى على تلك الحال ، ووثب آخر عليه فقتل أيضًا ، وجاء السلطان إلى خيمته مذعورًا ، وأعرض جنده ، وأبعد من أنكره منهم .

ولما ملك السلطان أعزاز رحل عنها ، ونازل حلب فى منتصف ذى الحجة وحصرها وبها الملك الصالح بن نور الدين ، وانقضت هذه السنة وهو محاصر لحلب ، فسألوا صلاح الدين فى الصلح فأجابهم إليه ، وأخرجوا إليه بنتًا صغيرة لنور الدين محمود فأكرمها السلطان صلاح الدين ، وأعطاها شيئًا كثيرًا ، وقال لها : ما تريدين ؟ فقالت : أريد قلعة أعزاز وكانوا قد علموها ذلك فسلمها إليهم ، واستقر الصلح ، ورحل السلطان صلاح الدين عن حلب فى العشرين من المحرم سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : سار أمير الحاج العراقى طاشتكين ، وأمره الخليفة بعزل صاحب مكة مكثر ابن عيسى ، فجرى بين الحجاج وبينه قتال ، فانهزم مكثر فى البرية ، وأقام أخاه داود مكانه بمكة .

وفيها : فى رمضان ، قدم شمس الدولة توران شاه بن أيوب من اليمن إلى الشام ، وأرسل إلى أخيه صلاح الدين يعلمه بوصوله ، وكتب إليه أبياتًا من شعر ابن المنجم المصرى :

وإلى صلاح الدين أشكو أننى   من بعده مضنى الجوانح مولع
جزعًا لبعد الدار عنه ولم أكن   لولا هواه لبعد دار أجزع
ولأركبن إليه متن عزائمى   ويخب بى ركب الغرام ويوسع
ولأسرين الليل لا يسرى به   طيف الخيال ولا البروق اللمع
وأقدمن إليه قلبى مخبرًا   أنى بجسمى عن قريب أتبع
حتى أشاهد منه أسعد طلعة   من أفقها صبح السعادة يطلع

وفيها : توفى الحافظ أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله ، المعروف بابن عساكر الدمشقى الملقب نور الدين ، كان إمامًا فى الحديث ، ومن أعيان الفقهاء الشافعية ، صنف تاريخ دمشق فى ثمانين مجلدًا على وضع تاريخ بغداد ، أتى فيه بالغرائب ، ومولد المذكور فى أول سنة تسع وتسعين وأربعمائة .

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة :

فيها : قصد السلطان صلاح الدين بلد الإسماعيلية فى المحرم ، فنهب بلدهم وخرّبه وأحرقه ، وحصر قلعة مصياف ، فأرسل سنان مقدم الإسماعيلية إلى خال صلاح الدين ، وهو شهاب الدين الحارمى صاحب حماة يسأله أن يسعى فى الصلح ، فسأل الحارمى الصفح عنهم ،

فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وصالحهم ، ورحل عنهم ، وأتم السلطان صلاح الدين مسيره ، ووصل إلى مصر ، فإنه كان قد بعد عهده بها بعد أن استقر له ملك الشام .

ولما وصل إلى مصر فى هذه السنة ، أمر ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة والقلعة التى على جبل المقطم ، ودور ذلك تسعة وعشرون ألف ذراع وثلثمائة ذراع بالذراع الهاشمى ولم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين .

وفى هذه السنة : أمر صلاح الدين ببناء المدرسة التى على الشافعى بالقرافة بمصر وعمل بالقاهرة مارستان .

وفيها : تولى القاضى جمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشهر زورى قاضى دمشق وجميع الشام .

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة :

فى هذه السنة : فى جمادى الأولى ، سار السلطان صلاح الدين من مصر إلى ساحل الشام لغزو الفرنج ، فوصل إلى عسقلان فى الرابع والعشرين من الشهر ، فنهب وتفرق عسكره فى الإغارات ، وبقى السلطان فى بعض العسكر ، فلم يشعر إلا بالفرنج قد طلعت عليه ، فقاتلهم أشد قتال ، وكان لتقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ولد اسمه أحمد ، وهو من أحسن الشباب أول ما قد تكاملت لحيته ، فأمره أبوه تقى الدين بالحملة على الفرنج ، فحمل عليهم وقاتلهم ، فأثر فيهم أثرًا كبيرًا وعاد سالمًا ، فأمره أبوه بالعود إليهم ثانية ، فحمل عليهم فقتل شهيدًا ، وتمت الهزيمة على المسلمين ، وقاربت حملات الفرنج السلطان فمضى منهزمًا إلى مصر على البرية ومعه من سلم ، فلقوا فى طريقهم مشقة وعطشًا شديدًا ، وهلك كثير من الدواب ، وأخذت الفرنج العسكر الذين كانوا يتفرقون فى الإغارات أسرى ، وأسر الفقيه عيسى ، وكان من أكبر أصحاب السلطان صلاح الدين ، فافتداه السلطان من الأسر بعد سنتين بستين ألف دينار ، ووصل السلطان إلى القاهرة نصف جمادى الآخرة .

قال الشيخ عز الدين علىّ بن الأثير مؤلف الكامل : « ورأيت كتابًا بخط يد صلاح الدين إلى أخيه توران شاه نائبه بدمشق يذكر له الوقعة ، وفى أوله :

ذكـرتـك والخـطى تَخْـطِرُ بيننـا   وقـد نهلت منـا المثقفـة السمـر

ويقول فيه : « لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة ، وما نجانا الله منه إلا لأمر يريده سبحانه وتعالى :

* وما ثبتت إلا وفى نفسها أمر * » .

وفى هذه السنة : سار الفرنج وحصروا مدينة حماة فى جمادى الأولى ، وطمع الفرنج بسبب بعد السلطان بمصر وهزيمته من الفرنج ، ولم يكن غير توران شاه بدمشق ينوب عن أخيه صلاح الدين ، وليس عنده كثير من العسكر ، وكان توران شاه أيضًا كثير الانهماك فى اللذات ، مائلاً إلى الراحات ، ولما حصروا حماة كان بها صاحبها شهاب الدين الحارمى خال صلاح الدين وهو مريض ، واشتد حصار الفرنج لحماة ، وطال زحفهم عليها ، حتى أنهم هجموا بعض أطراف المدينة ، وكادوا يملكون البلد قهرًا ، ثم جدّ المسلمون فى القتال ، وأخرجوا الفرنج إلى ظاهر السور ، وأقام الفرنج كذلك على حماة أربعة أيام ، ثم رحلوا عنها إلى حارم ، وعقيب رحيلهم عنها مات صاحبها شهاب الدين الحارمى ، وكان له ابن من أسن الناس شبابًا مات قبله بثلاثة أيام .

وفى هذه السنة : قبض الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين صاحب حلب على سعد الدين كمشتكين ، وكان قد تغلب على الأمر ، وكانت حارم لكمشتكين ، فأرسل الملك الصالح إليهم فلم يسلّموها إليه ، فأمر كمشتكين أن يسلّمها فأمرهم بذلك ، فلم يقبلوا منه ، فأمر تعذيب كمشتكين ليسلّموا القلعة ، فعذب وأصحابه يرونه ولا يرحمونه ، فمات فى العذاب ، وأصبر أصحابه على الامتناع ، ووصل الفرنج إلى حارم بعد رحيلهم عن حماة ، وحصروا حارم مدة أربعة أشهر ، فأرسل الملك الصالح مالاً للفرنج وصالحهم ، فرحلوا عن حارم ، وقد بلغ بأهلها الجهد ، وبعد أن رحل الفرنج عنها ، أرسل إليها الملك الصالح عسكرًا وحصروها ، فلم يبق بأهلها ممانعة ، فسلموها إلى الملك الصالح ، فاستناب بقلعة حارم مملوكا كان لأبيه اسمه سرخك .

وفى هذه السنة : فى المحرم ، خطب للسلطان طغريل بن أرسلان بن طغريل ابن السلطان محمد ابن السلطان ملكشاه ، المقيم ببلاد الدكز ، وكان أبوه أرسلان الذى تقدم خبره قد توفى ، ولم يذكر ابن الأثير وفاة أرسلان بن طغريل إلا فى هذا الموضع ، وكان ينبغى أن يذكره قبل هذه السنة .

وفيها : فى ذى الحجة ، قتل عضد الدين محمد بن عبد الله بن هبة الله وزير الخليفة ، وكان قد عبر دجلة عازمًا على الحج فقتله الإسماعيلية ، وحمل مجروحًا إلى منزله فمات به ، وكان مولده فى جمادى الأولى سنة أربع عشرة وخمسمائة .

وفيها : توفى صدقة بن الحسين الحداد الذى ذيل تاريخ ابن الزعفرانى ببغداد .

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة :

فى هذه السنة : طلب توران شاه من أخيه السلطان صلاح الدين بعلبك ، وكان السلطان

اعطاها شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم ، لمَّا سلّم دمشق إلى صلاح الدين ، فلم يمكن صلاح الدين منع أخيه عن ذلك ، فأرسل إلى ابن المقدم ليسلم بعلبك فعصى بها ولم يسلّمها ، فأرسل السلطان وحصره ببعلبك ، وطال حصارها ، فأجاب ابن المقدم إلى تسليمها على عوض ، فعوض عنها وتسلمها السلطان ، وأقطعها أخاه توران شاه .

وفيها : كان بالبلاد غلاء عام ، وتبعه وباء شديد .

وفيها : سير السلطان صلاحُ الدين ابن أخيه تقى الدين عمر إلى حماة ، وابن عمه محمد ابن شيركوه إلى حمص ، وأمرهما بحفظ بلادهما ، فاستقر كل منهما ببلده .

وفيها : توفى الحصيص الشاعرُ ، واسمه سعد بن محمد بن سعد ، وشعره مشهور ، فمنه :

لا تلمنى فى شقائى بالعلا ... رغد العيش لربات الحجال
سيف عزا زانه رونقه ... فهو بالطبع غنى عن صقال

وفيها : ماتت شهدة بنت أحمد بن عمر الأبرى ، سمعت الحديث من السراج وطراد وغيرهما ، وعمرت حتى قاربت مائة سنة ، وسمع عليها خلق كثير لعلو إسنادها .

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة :

فيها : سار السلطان صلاح الدين وفتح حصنًا كان بناه الفرنج عند مخاضة الأحزان بالقرب من بانياس عند بيت يعقوب ، وفى ذلك يقول علىّ بن محمد الساعاتى الدمشقى :

أتسكن أوطان النبيين عصبة ... تمين لدى إيمانها وهى تحلف
نصحتكم والنصح للدين واجب ... ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

وفيها : كان حرب بين عسكر السلطان صلاح الدين ومقدمهم ابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وبين عسكر قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان ، صاحب بلاد الروم ، وسببها أن حصن رعبان كان بيد شمس الدين ابن المقدم ، فطمع فيه قليج أرسلان وأرسل إليه عسكرًا كثيرًا ليحصروه ، وكانوا قريب عشرين ألفا ، فسار إليهم تقى الدين فى ألف فارس فهزمهم ، وكان تقى الدين يفتخر ويقول : « هزمت بألف عشرين ألفا » .

ذكر وفاة المستضىء وخلافة الإمام الناصر وهو رابع ثلاثينهم

فى هذه السنة : ثانى ذى القعدة ، توفى المستضىء بأمر الله ، أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد ، وأمه أم ولد أرمنية ، وكانت خلافته نحو تسع سنين وسبعة أشهر ، وكان مولده سنة ست وثلاثين وخمسمائة ، وكان عادلاً ، حسن السيرة ، وكان قد حكم فى دولة ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر ، المعروف بابن العطار ، بعد قتل عضد الدين الوزير ، فلما مات المستضىء قام ظهير الدين بن العطار وأخذ البيعة لولده الإمام الناصر لدين الله ، ولما استقرت البيعة للإمام الناصر حكم أستاذ الدار مجد الدين أبو الفضل ، فقبض فى سابع ذى القعدة على ظهير الدين بن العطار ونقل إلى التاج ، وأخرج ظهير الدين المذكور ميتاً على رأس حمال ليلة الأربعاء ثانى عشر ذى القعدة ، فثارت به العامة ، وألقوه عن رأس الحمال ، وشدُّوا فى ذَكَره حبلاً وسحبوه فى البلد ، وكانوا يضعون فى يده مغرفة ، يعنى أنها قلم ، وقد غمس تلك المغرفة فى العذرة ويقولون : وقع لنا يا مولانا ، هذا فعلهم به ، مع حسن سيرته فيهم ، وكفه عن أموالهم ، ثم خلص منهم ودفن .

وفى هذه السنة : فى ذى القعدة ، نزل توران شاه أخو السلطان عن بعلبك ، وطلب عوضها الإسكندرية ، فأجابه السلطان صلاح الدين إلى ذلك ، وأقطع بعلبك لعز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، فسار إليها فرخشاه ، وسار شمس الدين توران شاه إلى الإسكندرية وأقام بها إلى أن مات بها .

ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة :

ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل

فى هذه السنة : ثالث صفر ، توفى سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى بن أُقسنقر صاحب الموصل والديار الجزرية ، وكان مرضه السل وطال ، وكان عمره نحو ثلاثين سنة ، وكانت ولايته عشر سنين ونحو ثلاثة أشهر ، وكان حسن الصورة مليح الشباب تام القامة أبيض اللون عاقلا عادلاً عفيفاً شديد الغيرة ، لا يدخل بيته غير الخدم إذا كانوا صغاراً ، فإذا كبر أحدهم منعه ، وكان عفيفاً عن أموال الرعية مع شح كان فيه ، وحين حضره الموت ،

أوصى بالمملكة بعده إلى أخيه عز الدين مسعود بن مودود ، وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه بن غازى ، فاستقر ذلك بعد موته حسبما قرره ، وكان مدبر الدولة والحاكم فيها مجاهد الدين قيماز .

وفى هذه السنة : سار السلطان صلاح الدين إلى جهة قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم ، ووصل إلى رعبان ثم اصطلحوا ، فقصد صلاح الدين بلاد ابن ليون الأرمنى ، وشن فيها الغارات ، فصالحه ابن ليون على مال حمله ، وأسرى أطلقهم .

وفيها : توفى شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين الأكبر بالإسكندرية ، وكان له معها أكثر بلاد اليمن ، ونوابه هناك يحملون إليه الأموال من زبيد وعدن وغيرهما ، وكان أجود الناس وأسخاهم كفا ، يخرج كل ما يحمل إليه من أموال اليمن ، ودخل الإسكندرية ، ومع هذا فلما مات كان عليه نحو مائتى ألف دينار مصرية دينًا عليه ، فوفاها أخوه صلاح الدين عنه لما وصل إلى مصر ، ووصل السلطان صلاح الدين إلى مصر فى هذه السنة فى شعبان ، واستخلف بالشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك .

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة :

فى هذه السنة : عزم البرنس صاحب الكرك على المسير إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم للاستيلاء على تلك النواحى الشريفة ، وسمع ذلك عز الدين فرخشاه نائب عمه السلطان صلاح الدين بدمشق ، فجمع وقصد بلاد الكرك وأغار عليها ، وأقام فى مقابلة البرنس ، ففرق البرنس جموعه ، وانقطع عزمه عن الحركة .

وفيها : وقع بين نواب توران شاه باليمن بعد موته اختلاف ، فخشى السلطان صلاح الدين على اليمن ، فجهز إليه عسكرًا مع جماعة من أمرائه ، فوصلوا إلى اليمن واستولوا عليه ، وكان نواب توران شاه : على عدن عز الدين عثمان بن الزنجيلى ، وعلى زبيد حطان بن كامل بن منقذ الكنانى من بيت صاحب شيزر .

ذكر وفاة الملك الصالح
صاحب حلب

فى هذه السنة : فى رجب ، توفى الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكى بن أقسنقر صاحب حلب وعمره نحو تسع عشرة سنة ، ولما اشتد به مرض القولونج ، وصف له

الأطباء الخمر ، فمات ولم يستعمله ، وكان حليمًا عفيف اليد والفرج واللسان ، ملازما لأمور الدين ، لا يعرف له شيء مما يتعاطاه الشباب ، وأوصى بملك حلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى صاحب الموصل ، فلما مات سار مسعود ومجاهد الدين قيماز من الموصل إلى حلب ، واستقر فى ملكها ، ولما استقر مسعود بن مودود فى ملك حلب ، كاتبه أخوه عماد الدين زنكى بن مودود صاحب سنجار فى أن يعطيه حلب ، ويأخذ منه سنجار ، فأشار قيماز بذلك فلم يمكن مسعود إلا موافقته ، فأجاب إلى ذلك ، فسار عماد الدين إلى حلب وتسلّمها ، وسلم سنجار إلى أخيه مسعود ، وعاد مسعود إلى الموصل .

وفى هذه السنة : فى شعبان ، توفى أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبى سعيد النحوى ، المعروف بابن الأنبارى ببغداد ، وله تصانيف حسنة فى النحو ، وكان فقيهًا .

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة :

ذكر مسير السلطان صلاح الدين إلى الشام

فى هذه السنة : خامس المحرم ، سار السلطان صلاح الدين عن مصر إلى الشام ، ومن عجيب الاتفاق أنه لما برز من القاهرة ، وخرجت أعيان الناس لوداعه ، أخذ كل منهم يقول شيئًا فى الوداع وفراقه ، وفى الحاضرين معلم لبعض أولاد السلطان ، فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد :

تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار

فتطير صلاح الدين ، وانقبض بعد انبساطه ، وتنكد المجلس على الحاضرين ، فلم يعد صلاح الدين بعدها إلى مصر مع طول المدة ، وسار السلطان صلاح الدين ، وأغار فى طريقه على بلاد الفرنج وغنم ، ووصل إلى دمشق فى حادى عشر صفر من السنة ، ولما سار السلطان إلى الشام اجتمعت الفرنج قرب الكرك ليكونوا على طريقه ، فانتهز فرخشاه ابن أخى السلطان صلاح الدين ونائبه بدمشق الفرصة ، وسار إلى الشقيف بعساكر الشام وفتحه ، وأغار على ما يجاوره من بلاد الفرنج ، وأرسل إلى السلطان وبشره بذلك .

ذكر إرسال سيف الإسلام
إلى اليمن

فى هذه السنة : سير السلطان أخاه سيف الإسلام طغتكين إلى بلاد اليمن ليملكها ويقطع الفتن منها ، وكان بها حطان بن منقذ الكنانى ، وعز الدين عثمان الزنجيلى ، وقد عادا إلى ولايتها ، فإن الأمير الذى كان سيره السلطان نائبًا إلى اليمن تولى وعزلها ثم توفى ، فعاد بين حطان وعثمان الفتن قائمة ، فوصل سيف الإسلام إلى زبيد ، فتحصن حطان فى بعض القلاع ، فلم يزل سيف الإسلام يتلطف به حتى نزل إليه فأحسن صحبته ، ثم إن حطان طلب دستورًا ليسير إلى الشام فلم يجبه إلا بجهد ، فجهز حطان أثقاله قدامه ، ودخل حطان ليودع سيف الإسلام فقبض عليه وأرسل استرجع أثقاله ، وأخذ جميع أمواله ، وكان فى جملة ما أخذه سيف الإسلام من حطان سبعين غلاف زردية مملوءة ذهبًا عينًا ، ثم سجن حطان فى بعض قلاع اليمن ، فكان آخر العهد به .

وأما عثمان الزنجيلى ، فإنه لما جرى لحطان ذلك خاف وسار نحو الشام ، وسير أمواله فى البحر ، فصادفهم مراكب فيها أصحاب سيف الإسلام ، فأخذوا كل ما لعثمان الزنجيلى وصفت بلاد اليمن لسيف الإسلام .

ذكر غارات السلطان الملك صلاح الدين
وما استولى عليه من البلاد

فى هذه السنة : سار السلطان صلاح الدين من دمشق فى ربيع الأول ، ونزل قرب طبرية وشن الإغارة على بلاد الفرنج مثل بانياس وجينين والغور ، فغنم وقتل وعاد إلى دمشق ، ثم سار عنها إلى بيروت وحصرها ، وأغار على بلادها ثم عاد إلى دمشق ، ثم سار من دمشق إلى البلاد الجزرية ، وعبر الفرات من البيرة ، فصار معه مظفر الدين كُوكَبُورى بن زين الدين على بن بكتكين ، وكان حينئذ صاحب حران ، وكاتب السلطان صلاح الدين ملوك تلك الأطراف واستمالهم ، فأجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وصار معه ، ونازل السلطان الرها وحاصرها وملكها وسلمها إلى مظفر الدين كُوكَبُورى صاحب حران ، ثم سار السلطان إلى الرقة وأخذها من صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبيجى ، فسار ينال

إلى عز الدين مسعود صاحب الموصل ، ثم سار صلاح الدين إلى الخابور وملك قرقيسيا وماكسين وعربان والخابور ، واستولى على الخابور جميعه ، ثم سار إلى نصيبين وحاصرها وملك المدينة ثم القلعة ، ثم أقطع نصيبين أميرًا كان معه يقال له أبو الهيجا السمين ، ثم سار عن نصيبين وقصد الموصل وقد استعد صاحبها عز الدين مسعود ومجاهد الدين قيماز للحصار ، وشحنوها بالرجال والسلاح فحصر الموصل ، وأقام عليها منجنيقًا ، فأقاموا عليه من داخل المدينة تسعة مجانيق ، وضايق الموصل فنزل السلطان صلاح الدين محاذاة باب كندة ، ونزل صاحب حصن كيفا على باب الجسر ، ونزل تاج الملوك بورى أخو صلاح الدين على باب العمادى وجرى القتال بينهم ، وكان ذلك فى شهر رجب من هذه السنة ، فلما رأى أن حصارها يطول رحل عن الموصل إلى سنجار وحاصرها وملكها ، واستناب بها سعد الدين بن معين الدين أنز ، وكان من أكابر الأمراء وأحسنهم صورة ، ثم سار السلطان صلاح الدين إلى حران وعزل فى طريقه عن نصيبين أبا الهيجا السمين .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : عمل البرنس صاحب الكرك أسطولاً فى بحر أيلة ، وساروا فى البحر فرقتين : فرقة أقامت على حصن أيلة يحصرونه ، وفرقة سارت نحو عيذاب يفسدون فى السواحل ، وبغتوا المسلمين فى تلك النواحى ، فإنهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجًا قط ، وكان بمصر الملك العادل أبو بكر نائبًا عن أخيه السلطان صلاح الدين ، فعمر أسطولاً فى بحر عيذاب وأرسله مع حسام الدين الحاجب لولو وهو متولى الأسطول بديار مصر ، وكان مظفرًا فيه شجاعًا ، فسار لولو مجدًا فى طلبهم ، وأوقع بالذين يحاصرون أيلة فقتلهم وأسرهم ، ثم سار فى طلب الفرقة الثانية ، وكانوا قد عزموا على الدخول إلى الحجاز ومكة والمدينة حرسها الله تعالى ، وسار لولو يقفو أثرهم ، فبلغ رابغ فأدركهم بساحل الحورا ، وتقاتلوا أشد قتال ، فظفر الله تعالى بهم ، وقتل لولو أكثرهم وأخذ الباقين أسرى ، وأرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها ، وعاد بالباقين إلى مصر فقتلوا عن آخرهم .

وفى هذه السنة : توفى عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك ، وكان ينوب عن صلاح الدين بدمشق ، وهو ثقته من بين أهله ، وكان فرخشاه شجاعًا كريمًا فاضلاً ، وله شعر جيد ، ووصل خبر موته إلى صلاح الدين وهو فى البلاد الجزرية ، فأرسل إلى دمشق شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم ليكون بها ، وأقر بعلبك على بهرام شاه بن فرخشاه المذكور .

وفيها : توفى أبو العباس أحمد بن على بن الرفاعى من سواد واسط ، وكان صالحًا ذا قبول عظيم عند الناس ، وله من التلامذة ما لا يحصى .

وفيها : توفى بقرطبة ، خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال الخزرجى الأنصارى ، وكان من علماء الأندلس ، وله التصانيف المفيدة ، ومولده فى سنة أربع وتسعين وأربعمائة .

وفيها : توفى بدمشق ، مسعود بن محمد بن مسعود النيسابورى الفقيه الشافعى ، ولد سنة خمس وخمسمائة ، وهو الملقب قطب الدين ، وكان إمامًا فاضلًا فى العلوم الدينية ، قدم إلى دمشق ، وصنف عقيدة للسلطان صلاح الدين ، وكان السلطان يُقرئها أولاده الصغار .

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة :

ذكر ما ملكه السلطان صلاح الدين من البلاد

فى هذه السنة : ملك السلطان صلاح الدين حصن آمد بعد حصار وقتال فى العشر الأول من المحرم ، وسلمها إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا ، ثم سار إلى الشام ، وقصد تل خالد من أعمال حلب وملكها ، ثم سار إلى عين تاب وحصرها ، وبها ناصر الدين محمد أخو الشيخ إسماعيل ، الذى كان خازن نور الدين محمود بن زنكى ، وكان قد سلم نور الدين عين تاب إلى إسماعيل المذكور ، فبقيت معه إلى الآن ، فحاصرها السلطان وملكها بتسليم صاحبها إليه ، فأقره السلطان عليها ، وبقى فى خدمة السلطان ومن جملة أمرائه ، ثم سار السلطان إلى حلب وحصرها وبها صاحبها عماد الدين زنكى بن مودود بن عماد الدين زنكى بن آقسنقر وطال الحصار عليه وكان قد كثر اقتراحات أمراء حلب وعسكرها عليه ، وقد ضجر من ذلك ، وكره حلب كذلك ، فأجاب السلطان صلاح الدين إلى تسليم حلب على أن يعوض عنها بسنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج ، واتفقوا على ذلك ، وسلم حلب إلى السلطان فى صفر من هذه السنة فكان ينادون أهل حلب على عماد الدين المذكور : يا حمار بعت حلب بسنجار ، وشرط السلطان على عماد الدين المذكور الحضور إلى خدمته بنفسه وعسكره إذا استدعاه ، ولا يحتج بحجة عن ذلك .

ومن الاتفاقات العجيبة أن محيى الدين بن الزكىّ قاضى دمشق ، مدح السلطان بقصيدة منها :

وفتحكم حَلبًا بالسيف فى صفر   مبشّر بفتوح القدس فى رجب

فوافق فتح القدس فى رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وكان فى جملة من قتل على حلب تاج الملوك تورى بن أيوب أخو السلطان الأصغر ، وكان كريمًا شجاعًا ، طعن فى ركبته

فانفكت فمات منها ، ولما استقر الصلح عمل عماد الدين زنكى المذكور دعوة للسلطان، واحتفل لها ، فبيناهم فى سرورهم ، إذ جاء إنسان فأسَرَّ إلى السلطان بموت أخيه تورى ، فوَجدَ عليه فى قلبه وَجْدًا عظيماً ، وأمر بتجهيزه سرًّا ، ولم يُعْلِم السلطان فى ذلك الوقت أحدًا ممن كان فى الدعوة بذلك لئلا يتنكد عليهم ما هم فيه ، وكان يقول السلطان : ما وقعت حلب علينا رخيصة بموت تورى ، وكان هذا من السلطان من الصبر العظيم .

ولما ملك السلطان حلب ، أرسل إلى حارم وبها سرخك الذى ولّاه الملك الصالح بن نور الدين فى تسليم حارم ، وجرت بينهما مراسلات ، فلم ينتظم بينهما حال ، وكاتب سرخك الفرنج ، فوثب عليه أهل القلعة وقبضوا عليه وسلموا حارم إلى السلطان فتسلمها ، وقرر أمر حلب وبلادها وأقطع أعزاز أميرًا يقال له سليمان بن جندر .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : قبض عز الدين مسعود صاحب الموصل على نائبه مجاهد الدين قيماز .

وفيها : لمَّا فرغ السلطان من تقرير أمر حلب ، جعل فيها ولده الملك الظاهر غازى ، وسار إلى دمشق ، وتجهز منها للغزو ، فعبر نهر الأردن تاسع جمادى الآخرة من هذه السنة ، فأغار على بيسان وحرقها ، وشنَّ الغارات على تلك النواحى ، ثم تجهز السلطان إلى الكرك وأرسل إلى نائبه بمصر وهو أخوه الملك العادل أن يلاقيه إلى الكرك ، فسارا واجتمعا عليها ، وحصر الكرك وضيق عليها ، ثم رحل عنها فى منتصف شعبان ، وسار معه أخوه العادل ، وأرسل السلطان ابن أخيه الملك المظفر تقى الدين عمر إلى مصر نائبا عنه موضع الملك العادل ، ووصل السلطان إلى دمشق ، وأعطى أخاه أبا بكر العادل مدينة حلب وقلعتها وأعمالها وسيره إليها فى شهر رمضان من هذه السنة وأحضر ولده الظاهر منها إلى دمشق .

وفى هذه السنة : فى جمادى الآخرة ، توفى محمد بن بختيار بن عبد الله الشاعر المعروف بالأبلة .

وفى هذه السنة : أعنى سنة تسع وسبعين وخمسمائة فى أواخرها ، توفى شَاهْرَ مَنْ سكمان بن ظهير الدين إبراهيم بن سكمان القطبى صاحب خِلاط ، وقد تقدم ذكر شَاهْرَمَنْ المذكور فى سنة إحدى وعشرين وخمسمائة ، وكان عمر سكمان لما توفى أربعًا وستين سنة ، ولما مات سكمان كان بكتمر مملوكه بميافارقين ، فلما سمع بكتمر بموته ، سار من ميافارقين ووصل إلى خلاط ، وكان أكثر أهلها يريدونه ، وكان مماليك شاهْرَ مَنْ متفقين معه ، فأول وصوله استولى على خلاط وتملكها ، وجلس على كرسى شاهْرَ مَن ، واستقر فى مملكة خلاط حتى قتل فى سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، حسبما نذكره إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة ثمانين وخمسمائة :

ذكر وفاة يوسف بن عبد المؤمن

فى هذه السنة : سار أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ملك المغرب إلى بلاد الأندلس وعبر البحر فى جمع عظيم من عساكره ، وقصد بلاد الفرنج ، فحصر شنترين من غرب الأندلس ، وأصابه مرض فمات منه فى ربيع الأول ، وحمل فى تابوت إلى مدينة أشبيلية ، وكانت مدة مملكته اثنتين وعشرين سنة وشهورا ، وكان حسن السيرة ، واستقامت له المملكة لحسن تدبيره ، ولما مات بايع الناس ولده يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، وكنيته أبو يوسف وملكوه عليهم فى الوقت الذى مات فيه أبوه لئلايكونوا بغير ملك يجمع كلمتهم لقربهم من العدو ، فقام يعقوب بالملك أحسن قيام ، وأقام راية الجهاد وأحسن السيرة .

ذكر غزو السلطان الكرك

فى هذه السنة : فى ربيع الآخر ، سار السلطان صلاح الدين من دمشق للغزوة ، وكتب إلى مصر فسارت عساكرها إليه ، ونازل الكرك وحصره وضيق على من به ، وملك ربض الكرك وبقيت القلعة ، وليس بينها وبين الربض غير خندق خشب ، وقصد السلطان صلاح الدين طَمَّهُ فلم يقدر لكثرة المقاتلة ، فجمعت الفرنج فارسها وراجلها وقصدوه فلم يمكن السلطان إلا الرحيل ، فرحل عن الكرك ، وسار إليهم فأقاموا فى أماكن وعرة ، وأقام السلطان قبالتهم ، وسار من الفرنج جماعة ودخلوا الكرك ، فعلم بامتناعه عليه ، فسار إلى نابلس وأحرقها ونهب ما بتلك النواحى ، وقتل وأسر وسبى فأكثر ، ثم سار إلى سَبَسْطِيَّة وبها مشهد زكريا ، فاستنقذ ما بها من أسرى المسلمين ، ثم سار إلى جنينين ثم عاد إلى دمشق .

ذكر وفاة صاحب ماردين

فى هذه السنة : مات قطب الدين إيلغازى بن نجم الدين البى بن تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق صاحب ماردين ، أقول : إنه قد تقدم فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة ذكر ملك البى ولد إيلغازى المذكور ، وبقى البى فى ملك ماردين حتى مات ، وملك بعده ابنه إيلغازى المذكور ، ولم يقع لى وفاة البى وملك إيلغازى المذكورين متى كان لأثبته .

ولما مات إيلغازى المذكور ، كان له أولاد أطفال ، فأقيم فى الملك بعده حسام الدين بولق

أرسلان ، وقام بتدبير المملكة وترتيبها مملوك والده نظام الدين البقش حتى كبر بولق أرسلان ، وكان به هوج وخبط ، فمات بولق أرسلان ، وأقام البقش بعده أخاه الأصغر ناصر الدين أرتق أرسلان بن قطب الدين إيلغازى ، ولم يكن له حكم ، بل الحكم إلى البقش وإلى مملوك لبقش اسمه لولو ، وكان قد تغلب على أستاذه البقش ، بحيث كان لا يخرج عن رأى لولو المذكور ، ولم يكن لناصر الدين أرتق أرسلان صاحب ماردين من الحكم شىء .

وبقى الأمر كذلك إلى سنة إحدى وستمائة ، فمرض النظام البقش ، وأتاه ناصر الدين صاحب ماردين يعوده ، فلما خرج من عنده خرج معه لولو ، فضربه ناصر الدين بسكين فقتله ، ثم عاد إلى البقش فقتله وهو مريض ، واستقل أرتق أرسلان بملك ماردين من غير منازع .

وفى هذه السنة : توفى شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل بن أبى سعيد أحمد ، وكان قد سار من عند الخليفة إلى السلطان صلاح الدين فى رسالة ومعه شهاب الدين بشير الخادم ، ليصلحا بين السلطان صلاح الدين وبين عز الدين مسعود صاحب الموصل ، فلم ينتظم حال ، واتفق أنهما مرضا بدمشق ، وطلبا المسير إلى العراق ، وسارا فى الحر فمات بشير بالسخنة ، ومات صدر الدين شيخ الشيوخ بالرحبة ، ودفن بمشهد البوق ، وكان أوحد زمانه ، قد جمع بين رئاسة الدين والدنيا .

وفيها : فى المحرم ، أطلق عز الدين مسعود صاحب الموصل ، مجاهد الدين قيماز من الحبس ، وأحسن إليه .

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وخمسمائة :

ذكر حصار السلطان صلاح الدين الموصل

فى هذه السنة : حصر السلطان صلاح الدين الموصل[1] ، وهو حصاره الثانى ، فأرسل إليه عز الدين مسعود صاحب الموصل والدته وابنة عمه نور الدين محمود بن زنكى وغيرهما من النساء وجماعة ، يطلبون منه ترك الموصل وما بأيديهم فردهم ، واستقبح الناس ذلك من صلاح الدين لاسيما وفيهن بنت نور الدين محمود ، وحاصر الموصل وضايقها وبلغه وفاة شاهر مَنّ صاحب خِلاط فى ربيع الآخر من هذه السنة ، فسار عن الموصل إلى جهة خِلاط ، فاستدعى أهلها ليملكها .

---

(١) وردت فى الطبعة الأوروبية بغداد .

ذكر وفاة صاحب حصن كيفا

فى هذه السنة : توفى نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن وآمد ، وملك بعده ولده سقمان ، ولقبه قطب الدين ، وكان صغيراً ، فقام بتدبيره القوام بن سماقا الأشعردى ، وحضر سقمان إلى السلطان صلاح الدين وهو نازل على ميافارقين ، فأمره على ما كان بيد والده نور الدين محمد ، وأقام معه أميراً من أصحاب أبى سقمان المذكور .

ذكر ملك السلطان صلاح الدين ميافارقين

لما سار السلطان عن الموصل إلى خِلاط ، جعل طريقه على ميافارقين ، وكانت لصاحب ماردين الذى توفى ، وفيها من حفظها من جهة مشاهْرَمَنّ صاحب أخلاط المتوفى ، فحاصرها السلطان وملكها فى سلخ جمادى الأولى ، ثم إن السلطان رجع عن قصد خِلاط إلى الموصل ، فجاءته رسل عز الدين مسعود يسألونه الصلح ، واتفق حينئذ أن السلطان صلاح الدين مرض ، وسار من كفر زمار عائداً إلى حران ، فلحقته رسل صاحب الموصل بالإجابة إلى ما طلب ، وهو أن يسلم صاحب الموصل إلى السلطان صلاح الدين شهرزور وأعمالها ، وولاية القرابلى وجميع ما وراء الزاب ، وأن يخطب للسلطان صلاح الدين على جميع منابر الموصل ومابيده ، وأن يضرب اسمه على الدراهم والدنانير ، وتسلم السلطان ذلك ، واستقر الصلح ، وأمنت البلاد ، ووصل السلطان إلى حران وأقام بها مريضاً ، واشتد به المرض حتى أيسوامنه ، ثم إنه عوفى وعاد إلى دمشق فى المحرم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة .

ولما اشتد مرض السلطان سارابن عمه محمد بن شيركوه بن شاذى صاحب حمص إلى حمص ، وكاتب بعض أكابر دمشق فى أن يسلموا إليه دمشق إذا مات السلطان .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : ليلة عيد الأضحى ، شرب بحمص صاحبها ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شاذى فأصبح ميتاً ، قيل : إن السلطان صلاح الدين دس عليه من سقاه سماً لما بلغه مكاتبته أهل دمشق فى مرضه ، ولما مات أقر السلطان حمص وما كان بيد محمد على ولده شيركوه بن محمد وعمره اثنتا عشرة سنة ، وخلف صاحب حمص شيئاً كثيراً من الدواب والآلات وغيرها ، فاستعرضها السلطان عند نزوله بحمص فى عودته من حران ، وأخذ أكثرها ولم يترك إلا مالا خير فيه .

وفيها : توفى الحافظ محمد بن عمر بن أحمد الأصفهانى المدينى المشهور ، وكان إمام عصره فى الحفظ والمعرفة ، وله فى الحديث وعلومه تآليف مفيدة ، وله كتاب « الغيث » فى مجلد كمل به كتاب « الغريبين » للهروى ، واستدرك فيه عليه مواضع ، وهو كتاب نافع ، وكان مولده سنة إحدى وخمسمائة .

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة :

ذكر نقل الملك العادل أخى السلطان من حلب وإخراج الملك الأفضل ابن السلطان من مصر إلى دمشق

فى هذه السنة : أحضر السلطان ولده الملك الأفضل من مصر وأقطعه دمشق ، وسببه أن الملك المظفر تقى الدين عمر ابن أخى السلطان ، كان نائب عمه بمصر ، وكان معه الملك الأفضل ، فأرسل تقى الدين يشتكى من الأفضل : إنى لا أتمكن من استخراج الخراج ، فإنى إذا أحضرت من عليه الخراج وأردت عقوبته ، يطلقه الملك الأفضل ، فأرسل السلطان وأخرج ابنه الملك الأفضل من مصر وأقطعه دمشق .

وتغيّر السلطان على تقى الدين عمر فى الباطن ، فإنه ظن أنه إنما أخرج ولده من مصر ليتملّك مصر إذا مات السلطان ، ثم أحضر أخاه العادل من حلب ، وجعل معه ولده العزيز عثمان ابن السلطان نائبا عنه بمصر ، واستدعى تقى الدين عمر من مصر ، فقيل : إنه توقف عن الحضور ، وقصد اللحاق بمملوكه قراقوش المستولى على بعض بلاد أفريقية وبرقة من المغرب ، وبلغ السلطان ذلك فساءه ، وأرسل يستدعى تقى الدين عمر ويلاطفه فحضر إليه ، ولما حضر تقى الدين عند السلطان زاده على حماة منبج والمعرّة وكفر طاب وميافارقين وجبل جور بجميع أعمالها ، واستقر العادل والعزيز عثمان فى مصر ، ولما أخذ السلطان حلب من أخيه العادل أقطعه عوضها حران والرّها .

ذكر وفاة البهلوان وملك أخيه قَزل

فى هذه السنة : فى أولها ، توفى البهلوان محمد بن الدكز ، صاحب بلد الجبل همدان والرى وأصفهان وأذربيجان وأرانية وغيرها من البلاد ، وكان عادلا حسن السيرة ، وملك البلاد بعده أخوه قزل أرسلان واسمه عثمان ، وكان السلطان طغريل بن أرسلان بن طغريل بن محمد بن

ملكشاه السلجوقى مع البهلوان ، وله الخطبة فى بلاده ، وليس له من الأمر شىء ، فلما مات البهلوان خرج طغريل عن حكم قَزل وكثر جمعه ، واستولى على بعض البلاد ، وجرت بينه وبين قَزل حروب .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : غدر البرنس صاحب الكرك ، وأخذ قافلة عظيمة من المسلمين وأسرهم فأرسل السلطان يطلب منه إطلاقهم بحكم الهدنة التى كانت بينهم على ذلك فلم يفعل ، فنذر السلطان أنه إن أظفره الله به قتله بيده .

وفيها : توفى أبو محمد عبد الله بن أبى الوحش برى بن عبد الجبار بن برى المصرى ، الإمام فى علم النحو واللغة ، اشتغل عليه جماعة وانتفعوا به ، ومن جملتهم أبو موسى الجزولى صاحب المقدمة الجزولية فى النحو ، وكانت وفاته بمصر ، وولد بها فى سنة تسع وتسعين وأربعمائة .

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة :

ذكر غزوات السلطان الملك الناصر صلاح الدين وفتوحاته

فى هذه السنة : جمع السلطان العساكر ، وسار بفرقة من العسكر ، وضايق الكرك خوفاً على الحجاج من صاحب الكرك ، وأرسل فرقة أخرى مع ولده الملك الأفضل ، فأغاروا على بلد عكا وتلك الناحية ، وغنموا شيئاً كثيراً ، ثم سار السلطان ونزل على طبرية وحصر مدينتها وفتحها عنوة بالسيف ، وتأخرت القلعة ، وكانت طبرية للقومص صاحب طرابلس وكان قد هادن السلطان ودخل فى طاعته ، فأرسلت الفرنج إلى القومص المذكور القسوس والبطرك ينهونه عن موافقة السلطان ويوبخونه ، فصار معهم واجتمع الفرنج لملتقى السلطان .

ذكر وقعة حطين ، وهى الوقعة العظيمة التى فتح الله بها الساحل وبيت المقدس

لما فتح السلطان مدينة طبرية ، اجتمعت الفرنج فى ملوكهم بفارسهم وراجلهم ، وساروا إلى السلطان ، فركب السلطان من عند طبرية ، وسار إليهم يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر ، والتقى الجمعان ، واشتد بينهم القتال ، ولما رأى القومص شدّة الأمر حمل على من قدامه من المسلمين ، وكان هناك تقى الدين صاحب حماة ، فأفرج له وعطف عليهم ، فنجا القومص ووصل إلى طرابلس ، وبقى مدة يسيرة ومات غَبْنًا ، ونصر الله المسلمين ، وأحدقوا بالفرنج من كل ناحيةٍ ، وأبادوهم قتلا وأسْرًا ، وكان فى جملة من أسر ملك الفرنج الكبير والبرنس أرناط صاحب الكرك وصاحب جبيل وابن الهنفرى ومقدم الدَّاويَّة وجماعة من الاسبتارية ، وما أصيبت الفرنج من حين خرجوا إلى الشام ، وهى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة إلى الآن بمصيبة مثل هذه الوقعة .

ولما انقضى المصاف ، جلس السلطان فى خيمته ، وأحضر ملِك الفرنج ، وأجلسه إلى جانبه ، وكان الحر والعطش به شديداً ، فسقاه السلطان ماء مثلوجاً ، وسقى ملك الفرنج منه البرنس أرناط صاحب الكرك ، فقال له السلطان : إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذنى فيكون أماناً له ، ثم كلم السلطان البرنس ووبخه وفزعه على غدره وقصده الحرمين الشريفين ، وقام السلطان بنفسه فضرب عنقه ، فارتعدت فرائص ملك الفرنج ، فسكن جأشه ، ثم عاد السلطان إلى طبرية وفتح قلعتها بالأمان ، ثم سار إلى عكا وحاصرها وفتحها بالأمان ، ثم أرسل أخاه الملك العادل فنازل مَجْدَ اليابا[1] وفتحه عنوة بالسيف ، ثم سار السلطان إلى تبنين ففتحها بالأمان ، ثم سار إلى صيدا فأخلاها صاحبها وتسلمها السلطان ساعة وصوله لتسع بقين من جمادى الأولى من هذه السنة ، ثم سار إلى بيروت فحصرها وتسلمها فى التاسع والعشرين من جمادى الأولى بالأمان ، وكان حصرها مدة ثمانية أيام ، وكان صاحب جبيل من جملة الأسرى ، فبذل جبيل فى أن يسلمها ويطلق سراحه فأجيب إلى ذلك ، وكان صاحب جبيل من

---

(١) هكذا فى الأصل ، أما فى معجم البلدان لياقوت الحموى فهى مَجْدَلْيَابَة : قرية قرب الرملة فيها حصن محكم .

أعظم الفرنج وأشدهم عداوة للمسلمين ، ولم تك عاقبة إطلاقه حميدة ، وأرسل السلطان فتسلم جبيل وأطلقه .

وفيها : حضر المركيس فى سفينة إلى عكا وهى للمسلمين ، ولم يعلم المركيس بذلك واتفق هجوم الهواء ، فراسل المركيس الملك الأفضل وهو بعكا يقترح أمراً بعد آخر ، والملك الأفضل يجيب المركيس إلى ذلك ، إلى أن هب الهواء فأقلع المركيس إلى صور ، واجتمع عليه الفرنج الذين بها وملك صوراً ، وكان وصول المركيس إلى صور ، وإطلاق الفرنج الذين يأخذ السلطان بلادهم بالأمان ويحملهم إلى صور من أعظم أسباب الضرر التى حصلت حتى راحت عكا ، وقوى الفرنج بذلك ، ثم سار السلطان إلى عسقلان وحاصرها أربعة عشر يوماً ، وتسلمها بالأمان سلخ جمادى الآخرة ، ثم بث السلطان عسكره ، ففتحوا الرملة والداروم وغزة وبيت لحم وبيت جبْرين والنطرون وغير ذلك .

ثم سار السلطان ونازل القدس ، وبه من النصارى عدد يفوت الحصر ، وضايق السلطان السور بالنقابين ، واشتد القتال ، وغلقوا السور ، فطلب الفرنج الأمان فلم يجبهم السلطان إلى ذلك وقال : لا آخذها إلا بالسيف مثل ما أخذها الفرنج من المسلمين ، فعاودوه فى الأمان ، وعرفوه ما هم عليه من الكثرة ، وأنهم إن أيسوا منه من الأمان قاتلوا خلاف ذلك ، فأجابهم السلطان إليه بشرط أن يؤدى كل من بها عشرة الدنانير ، عشرة الدنانير من الرجال ، ويؤدى النساء خمسة ، ويؤدوا عن كل طفل دينارين ، وأى من عجز عن الأداء كان أسيراً ، فأجيب إلى ذلك ، وسلمت إليه المدينة يوم الجمعة فى السابع والعشرين من رجب ، وكان يوماً مشهوداً ، ورفعت الأعلام الإسلامية على أسوار المدينة ، ورتب السلطان على أبواب البلد مَنْ يقبض منهم المال المذكور ، فخان المرتبون فى ذلك ، ولم يحملوا منه إلا القليل .

وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير مذهب ، وتسلق المسلمون وقلعوه فسمع لذلك ضجة لم يعهد مثلها من المسلمين للفرح والسرور ، ومن الكفار بالتفجع والتوجع ، وكان الفرنج قد عملوا فى غربى الجامع الأقصى هرياً ومستراحاً ، فأمر السلطان بإزالة ذلك ، وإعادة الجامع إلى ما كان عليه ، وكان نور الدين محمود بن زنكى قد عمل منبراً بحلب قد تعب عليه مدة وقال : هذا لأجل القدس ، فأرسل السلطان صلاح الدين أحضر المنبر من حلب وجعله فى الجامع الأقصى ، وأقام السلطان بعد فتوح القدس بظاهره إلى الخامس والعشرين من شعبان ، يرتب أمور البلد وأحوالها ، وأمر بعمل الرُّبُط والمدارس الشفعوية .

ثم رحل السلطان إلى عكا ، ورحل منها إلى صور وصاحبها المركيس ، وقد حصنها بالرجال وحفر خندقها ، ونزل السلطان على صور تاسع شهر رمضان وحاصرها وضايقها ، وطلب الأسطول فوصل إليه فى عشرة شوان ، فاتفق أن الفرنج كبسوهم فى الشوانى ، وأخذوا خمسة

شوان ولم يسلم من المسلمين إلا من سبح ونجا ، وأخذ الباقون ، وطال الحصار عليها ، فرحل السلطان عنها فى آخر شوال ، وكان أول كانون الأول ، وأقام بعكا ، وأعطى العساكر الدستور ، فسار كل واحد إلى بلده ، وبقى السلطان بعكا فى حلقته ، وأرسل إلى هوبين ففتحها بالأمان .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : سار شمس الدين محمد بن عبد الملك ، عرف بابن المقدم بعد فتح القدس حاجاً ، وكان هو أمير الحاج الشامى ، ليجمع بين الغزوة وزيارة القدس والخليل عليه السلام والحج فى عام واحد ، فسار ووقف بعرفات ، ولما أفاض أرسل إليه طاشتكين أمير الحاج العراقى يمنعه من الإفاضة قبله ، فلم يلتفت إليه ، فسار العراقيون واتقعوا مع الشاميين ، فقتل بينهم جماعة ، وابن المقدم يمنع أصحابه من القتال ، ولو أمكنهم لانتصفوا من العراقيين ، فجرح ابن المقدم ومات شهيداً ، ودفن بمقبرة المَعْلَى

وفيها : قوى أمر السلطان طغريل بن أرسلان شاه بن طغريل بن السلطان محمد بن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ، وملك كثيراً من البلاد ، فأرسل قزل بن الدكز إلى الخليفة يستنجده ويخوفه عاقبة أمر طغريل .

وفيها : سار شهاب الدين الغورى ، وغزا بلاد الهند .

وفيها : قتل الخليفة الناصر أستاذ داره مجد الدين أبا الفضل بن الصاحب ، ولم يكن للخليفة معه حكم ، وظهر له أموال عظيمة فأخذت جميعها .

وفيها : استوزر الخليفة الناصر لدين الله أبا المظفر عبيد الله بن يونس ، ولقبه جلال الدين ، ومشى أرباب الدولة فى ركابه حتى قاضى القضاة ، وكان ابن يونس من خملة الناس ، فكان يمشى ويقول : لعن الله طول العمر .

وفيها : توفى قاضى القضاة الدامغانى ، وكان قد ولى القضاء للمقتفى .

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة :

ذكر فتوحات السلطان صلاح الدين وغزواته

شتى السلطان هذه السنة فى عكا ، ثم سار بمن معه وقصد كوكب ، وجعل على حصارها أميراً يقال له قيماز النجمى ، وسار منها فى ربيع الأول ودخل دمشق ، ففرح الناس بقدومه ، وكتب إلى الأطراف باجتماع العساكر ، وأقام فى دمشق تقدير خمسة أيام ، وسار من دمشق فى منتصف ربيع الأول من هذه السنة ، ونزل على بحيرة مقدس غربى حمص ، وأتته العساكر بها ، فأولهم عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى بن أقسنقر صاحب سنجار ونصيبين ، ولما تكاملت عساكره رحل ونزل تحت حصن الأكراد ، وشن الغارات على بلاد الفرنج ، وسار من حصن الأكراد فنزل على أنطرطوس سادس جمادى الأولى ، فوجد الفرنج قد أخلوا أنطرطوس ، فسار إلى مرقية ، فوجدهم قد أخلوها أيضًا ، فسار إلى تحت المرقب وهو للاستبتار ، فوجد لا يرام ولا لأحد فيه مطمع فسار إلى جبلة ووصل إليها ثامن جمادى الأولى ، وتسلمها حالة وصوله ، فجعل فيها لحفظها الأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر ، ثم سار السلطان إلى اللاذقية ، ووصل إليها فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى ، ولها قلعتان ، فحصر القلعتين ، وزحف إليهما ، فطلب أهلها الأمان فأمنهم وتسلم القلعتين .

ولما ملك السلطان اللاذقية ، سلّمها إلى ابن أخيه الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فعمرها وحصّن قلعتها ، وكان تقىُّ الدين عظيم الهمّة فى تحصين القلاع والغرامة عليها ، كما فعل بقلعة حماة ، ثم رحل السلطان عن اللاذقية فى السابع والعشرين من جمادى الأولى إلى صهيون وحاصرها وضايقها ، فطلب أهلها الأمان فلم يجبهم إلا على أمان أهل القدس فيما يؤدونه فأجابوه إلى ذلك ، وتسلّم السلطان قلعة صهيون ، وسلمها إلى أمير من أصحابه يقال له ناصر الدين منكورس ، صاحب قلعة أبى قبيس ثم فرق عسكره فى تلك الجبال ، فملكوا حصن بلاد نوس ، وكان الفرنج الذين به قد هربوا منه وأخلوه ، وملكوا حصن العيد وحصن الجماهريين ، ثم سار السلطان من صهيون ثالث جمادى الآخرة ، ووصل إلى قلعة بكاس ، فأخلاها أهلها وتحصنوا بقلعة الشغر ، فحصرها ووجدها منيعة وضايقها ، فأرمى الله فى قلوب أهلها الرعب ، وطلبوا الأمان وتسلمها يوم الجمعة سادس جمادى الآخرة بالأمان ، وأرسل السلطان ولده الملك الظاهر غازى صاحب حلب ، فحصر سرمينية وضايقها

وملكها ، واستنزل أهلها على قطيعة قررها عليهم ، وهدم الحصن وعفى أثره ، وكان فى هذا الحصن ، وفى الحصون المذكورة من أسرى المسلمين الجم الغفير ، فأطلقوا فأعطوا الكسوة والنفقة ، ثم سار السلطان من الشغر إلى برزية ورتب عسكره ثلاثة أقسام وداومها بالزحف ، وملكها بالسيف فى السابع والعشرين من جمادى الآخرة ، وسبى وأسر وقتل أهلها .

قال مؤلف الكامل ابن الأثير : كنت مع السلطان فى مسيره وفتحه هذه البلاد طلباً للغزوة فنحكى ذلك عن مشاهدة ، ثم سار السلطان فنزل على جسر الحديد وهو على العاصى بالقرب من أنطاكية ، فأقام عليه أياماً حتى تلاحق به من تأخر من العسكر ، ثم سار إلى دربساك ونزل عليها ثامن رجب من هذه السنة ، وحاصرها وضايقها وتسلمها بالأمان على شرط ألا يخرج أحد منها إلا بثيابه فقط ، وتسلمها تاسع عشر رجب ، ثم ثار من دربساك إلى بغراس وحصرها وتسلمها بالأمان على حكم أمان دربساك ، وأرسل بيمند صاحب أنطاكية إلى السلطان يطلب منه الهدنة والصلح وبذل إطلاق كل أسير عنده ، فأجابه السلطان إلى ذلك ، واصطلحوا ثمانية أشهر ، وكان صاحب أنطاكية حينئذ أعظم ملوك الفرنج فى هذه البلاد ، فإن أهل طرابلس سلموا إليه طرابلس بعد موت القومص صاحبها على ما ذكرناه ، فجعل بيمند صاحب أنطاكية ابنه فى طرابلس ، ولما فرغ السلطان من أمر هذه البلاد والهدنة ، سار إلى حلب فدخلها ثالث شعبان وسار منها إلى دمشق ، وأعطى عماد الدين زنكى بن مودود دستوراً ، وكذلك أعطى غيره من العساكر الشرقية ، وجعل طريقه لما رحل من حلب على قبر عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فزاره ، وزار الشيخ الصالح أبا زكريا المغربى وكان مقيما هناك ، وكان من عباد الله الصالحين وله كرامات ظاهرة .

وكان مع السلطان أبو فليتة الأمير قاسم بن مهنا الحسينى ، صاحب مدينة الرسول صلّى الله عليه وسلم ، وشهد معه مشاهده وفتوحاته ، وكان السلطان يتبرك برؤيته ، ويتيمن بصحبته ، ويرجع إلى قوله ، ودخل السلطان دمشق فى شهر رمضان المعظم ، فأشير عليه بتفريق العساكر ليريحوا ويستريحوا ، فقال السلطان : إن العمر قصير والأجل غير مأمون ، وكان السلطان لما سار إلى البلاد الشمالية قد جعل على الكرك وغيرها من يحصرها ، وخلا أخاه الملك العادل فى تلك الجهات يباشر ذلك ، فأرسل أهل الكرك يطلبون الأمان ، فأمر الملك العادل لحصارها بتسلمها فتسلموا الكرك والشوبك وما بتلك الجهات من البلاد ، ثم سار السلطان من دمشق فى منتصف رمضان وسار إلى صفد فحصرها وضايقها وتسلمها بالأمان ، ثم سار إلى كوكب وعليها قيماز النجمى يحاصرها فضايقها السلطان وتسلمها بالأمان فى منتصف ذى القعدة ، وسير أهلها إلى صور ، وكان اجتماع أهل هذه القلاع فى صور من أعظم أسباب الضرر على المسلمين ، ظهر ذلك فيما بعد ، ثم سار السلطان إلى القدس فعيّد فيه عيد الأضحى ، ثم سار إلى عكا فأقام بها حتى انسلخت السنة .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : أرسل قزل بن الدكز يستنجد بالخليفة الإمام الناصر على طغريل بن أرسلان بن طغريل السلجوقى ، ويحذره عاقبة أمره ، فأرسل الخليفة عسكرًا إلى طغريل ، والتقوا ثامن ربيع الأول من هذه السنة قرب همدان ، فانهزم عسكر الخليفة ، وغنم طغريل أموالهم ، وأسر مقدم العسكر جلال الدين عبيد الله وزير الخليفة .

وفيها : توفى محمد بن عبد الله الكاتب المعروف بابن التعاويذى الشاعر المشهور ، وقصائده فى الغزل والنسيب مشهورة ، وله فى غير ذلك أشياء حسنة أيضاً ، فمنها وقد صودر ببغداد جماعة من الدواوين من جملة قصيدته :

يا قاصداً بغداد حز عن بلدة ... للجور فيها زجرة وعتاب
إن كنت طالب حاجة فارجع فقد ... سدت على الراجى بها الأبواب
والناس قد قامت قيامتهم فلا ... أنساب بينهم ولا أسباب
والمرء يسلمه أبوه وعرسه ... ويخونه القرباء والأحباب
لا شافع تغنى شفاعته ولا ... جان له مما جناه متاب
شهدوا معادهم فعاد مصدقًا ... من كان قبل بعثه يرتاب
جسر وميزان وعرض جرائد ... وصحائف منشورة وحساب
ما فاتهم من يوم ما وعدوا به ... فى الحشر إلا راحم وهاب

ومولد ابن التعاويذى المذكور فى سنة تسع عشرة وخمسمائة .

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة :

فى هذه السنة : سار السلطان صلاح الدين ونزل بمرج عيون ، وحضر إليه صاحب شقيف أرنون ، وبذل إليه تسليم الشقيف ، بعد مدة ظهر بها خديعة منه ، فلما بقى للمدة ثلاثة أيام استحضره السلطان ، وكان اسم صاحب الشقيف أرناط ، فقال له السلطان فى التسليم فقال : لا يوافقنى عليه أهلى وأهل الحصن ، فأمسكه السلطان وبعثه إلى دمشق فحبس .

ذكر حصار الفرنج عكا

كان قد اجتمع بصور أهل البلاد التى أخذها السلطان بالأمان ، فكثر جمعهم حتى صاروا فى عالم لا يحصى كثرتهم ، وأرسلوا إلى البحر يبكون ويستنجدون ، وصوروا صورة المسيح

وصورة عربى يضرب المسيح وقد أدماه ، وقالوا : هذا نبى العرب يضرب المسيح ، فخرجت النساء من بيوتهنّ ، ووصل من الفرنج فى البحر عالم لا يحصون كثرة ، وساروا إلى عكا من صور ونازلوها فى منتصف رجب من هذه السنة ، وضايقوا عكا ، وأحاطوا بسورها من البحر إلى البحر ، ولم يبق للمسلمين إليها طريق ، فسار إليهم السلطان ، ونزل قريب الفرنج وقاتلهم فى مستهل شعبان وباتوا على ذلك وأصبحوا ، فحمل تقى الدين عمر صاحب حماة من ميمنة السلطان على الفرنج فأزالهم عن موقفهم والتزق بالصور ، وانفتح الطريق إلى المدينة ، يدخل المسلمون ويخرجون وأدخل السلطان إلى عكا عسكرًا نجدة ، فكان من جملتهم أبو الهيجاء السمين ، وبقى المسلمون يغادون القتال ويراوحونه إلى العشرين من شعبان ، ثم كان بين المسلمين وبينهم وقعة عظيمة ، فإن الفرنج اجتمعوا وضربوا مع السلطان مصافاً ، وحملوا على القلب فأزالوه ، وأخذوا يقتلون فى المسلمين إلى أن بلغوا إلى خيمة السلطان ، فانحاز السلطان إلى جانب وانضاف إليه جماعة ، وانقطع مدد الفرنج واشتغلوا بقتال الميمنة ، فحمل السلطان على الفرنج الذين خرقوا القلب ، وانعطف عليهم العسكر فأفنوهم قتلا ، فكانت قتلى الفرنج نحو عشرة آلاف نفس ، ووصل المنهزمون من المسلمين بعضهم إلى طبرية ، وبعضهم وصل إلى دمشق ، وجافت الأرض بعد هذه الوقعة ، ولحق السلطان مرض ، وحدث له قولونج ، فأشار عليه الأمراء بالانتقال من ذلك الموضع ، فوافقهم ورحل عن عكا رابع عشر رمضان من هذه السنة إلى الخروبة .

فلمّا رحل ، تمكن الفرنج من حصار عكا ، وانبسطوا فى تلك الأرض ، وفى تلك الحال وصل أسطول المسلمين فى البحر مع حسام الدين لولو وكان شهماً ، فظفر ببطشه للفرنج فأخذها ، ودخل بها إلى عكا ، فقوى قلوب المسلمين ، وكذلك وصل الملك العادل بعسكر مصر وبالسلاح إلى أخيه السلطان ، فقويت قلوب المسلمين بوصوله .

ذكر غير ذلك

فيها : توفى بالخروبة الفقيه عيسى ، وكان مع السلطان ، وهو من أعيان عسكره ، كان جنديًا فقيها شجاعًا ، وكان من أصحاب الشيخ أبى القاسم البرزى .

وفيها : توفى محمد بن يوسف بن محمد بن قائد ، الملقب موفق الدين الأربلى الشاعر المشهور ، وكان إماماً مقدمًا فى علم العربية ، وكان أعلم الناس بالعروض وأحذقهم بنقد الشعر ، وأعرفهم بجيده من رديئه ، واشتغل بعلوم الأوائل ، وحلّ كتاب أقليدس ، وهو شيخ أبى البركات بن المستوفى صاحب تاريخ أربل ، ورحل بن القائد المذكور إلى شهر زور ، وقام

بها مدة . ثم رحل إلى دمشق ، ومدح السلطان صلاح الدين يوسف ، ومن شعره قصيدة مدح بها زين الدين يوسف صاحب أربل منها :

رب دار بالحمى طال بلاها ... عكف الركب عليها فبكاها
كان لى فيها زمان وانقضى ... فسقى الله زمانى وسقاها
قل لجيران مواثيقهمُ ... كلما أحكمتها رثت قواها
كنتُ مشغوفًا بكم إذْ كنتمُ ... شجرًا لا يبلغ الطير ذراها
وإذا ما طامع أغرى بكم ... عرض اليأس لنفسى فثناها
فصبابات الهوى أولها ... طَمَعُ النفس وهذا منتهاها
لا تظنوا لى إليكم رجعة ... كشف التجريب عن عينى عماها
إن زين الدين أولانى يدًا ... لم تدع لى رغبة فيما سواها

وهى طويلة ، اقتصرنا منها على هذا القدر ، وكان أبوه محمد تاجرًا يتردد إلى البحرين لتحصيل اللآلى من المغاصات .

وفيها : توفى محمود بن على بن أبى طالب بن عبد الله الأصبهانى المعروف بالقاضى ، صاحب الطريقة فى الخلاف ، وصنف فيه التعليقة ، وهى عمدة المدرسين فى إلقاء الدروس ، ومن لم يذكرها فإنما هو لقصور فهمه عن إدراك دقائقها ، وكان متفننا فى العلوم ، وله فى الوعظ اليد الطولى .

ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة :

فى هذه السنة : بعد دخول صفر ، رحل السلطان صلاح الدين عن الخروبة ، وعاد إلى قتال الفرنج على عكا ، وكان الفرنج قد عملوا قرب سور عكا ثلاثة أبرجة ، طول البرج ستون ذراعًا ، جاءوا بخشبها من جزائر البحر ، وعملوها طبقات ، وشحنوها بالسلاح والمقاتلة ، ولبسوها جلود البقر والطين بالخل لئلا تعمل فيها النار ، فتحيَّل المسلمون وأحرقوا البرج الأول فاحترق بمن فيه من الرجال والسلاح ، ثم أحرقوا الثانى والثالث ، وانبسطت نفوس المسلمين لذلك بعد الكآبة ، ووصل إلى السلطان العساكر من البلاد ، وبلغ المسلمون وصول ملك الألمان ، وكان قد سار من بلاد وراء القسطنطينية بمائة ألف مقاتل ، واهتم المسلمون لذلك ، وأيسوا من الشام بالكلية ، فسلط الله تعالى على الألمان الغلاء والوباء ، فهلك أكثرهم فى الطريق .

ولما وصل ملكهم إلى بلاد الأرمن ، نزل فى نهر هناك اغتسل فغرق ، وأقاموا ابنه مقامه ،

فرجع من عسكره طائفة إلى بلادهم ، وطائفة خامرت ابن الملك المذكور فرجعوا أيضًا ، ولم يصل مع ابن ملك الألمان إلى الفرنج الذين على عكا غير تقدير ألف مقاتل ، وكفى الله المسلمين شرهم ، وبقى السلطان والفرنج على عكا يتناوشون القتال إلى العشرين من جمادى الآخرة ، فخرجت الفرنج من خنادقهم بالفارس والراجل ، وأزالوا الملك العادل عن موضعه ، وكان معه عسكر مصر ، فعطفت عليهم المسلمون ، وقتلوا من الفرنج خلقًا كثيراً ، فعادوا إلى خنادقهم ، وحصل للسلطان مغص ، فانقطع فى خيمة صغيرة ، ولولا ذلك لكانت الفيصلة ، ولكن إذا أراد الله أمرًا فلا مردّ له .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : لما قوى الشتاء واشتدت الرياح ، أرسل الفرنج المحاصرون عكا مراكبهم إلى صور خوفًا عليها أن تنكسر ، فانفتحت الطريق إلى عكا فى البحر ، وأرسل البدل إليها ، فكان العسكر الذين خرجوا منها أضعاف الواصلين إليها فحصل التفريط بذلك لضعف البدل .

وفيها : فى ثامن شوال ، توفى زين الدين يوسف بن زين الدين على كوجك صاحب أربل ، وكان مع السلطان فى عسكره ، ولما توفى أقطع السلطان صلاح الدين أربل أخاه مظفر الدين كوكبورى بن زين الدين على كوجك ، وأضاف إليه شهرزور وأعمالها ، وارتجع ما كان بيد مظفر الدين وهو حران والرها ، وسار مظفر الدين إلى أربل وملكها .

وفيها : استولى الخليفة الناصر لدين الله على حديثة عانة بعد أن حصرها مدة .

وفيها : أقطع السلطان ما كان بيد مظفر الدين وهو حران والرها وسمساط والموزر الملك المظفر تقى الدين عمر زيادة على ما بيده وهو مايافارقين ، ومن الشام حماة والمعرة وسلمية ومنبج وقلعة نجم وجبلة واللاذقية وبلاطنس ومكرابيك .

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة :

ذكر استيلاء الفرنج على عكا

واستمر حصار الفرنج لعكا إلى هذه السنة ، وكانوا قد أحاطوا بها من البحر إلى البحر ، وحفروا عليهم خندقًا ، فلم يتمكن السلطان من الوصول إليهم ، وكانوا محاصرين لعكا ، وهم

كالمحصورين من السلطان ، واشتد حصارهم لعكا وطال ، وضعف من بها عن حفظ البلد ، وعجز السلطان صلاح الدين عن دفع العدو عنهم ، فخرج الأمير سيف الدين على بن أحمد المشطوب من عكا وطلب الأمان من الفرنج على مال وأسرى يقومون به للفرنج فأجابوهم إلى ذلك ، وصمدت أعلام الفرنج على عكا ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة من هذه السنة ، واستولوا على البلد بما فيها ، وحبسوا المسلمين فى أماكن من البلد وقالوا : إنما نحبسهم ليقوموا بالمال والأسرى وصليب الصلبوت ، وكتبوا إلى السلطان صلاح الدين بذلك ، فحصل ما أمكن تحصيله من ذلك ، وطلب منهم إطلاق المسلمين ، فلم يجيبوا إلى ذلك ، فعلم منهم الغدر واستمر أسرى المسلمين بها ، ثم قتل الفرنج من المسلمين جماعة كثيرة ، واستمروا بالباقين فى الأسر ، وبعد استيلاء الفرنج على عكا وتقرير أمرها ، رحلوا عنها مستهل شعبان نحو قيسارية ، والمسلمون يسايرونهم ويتحفظون منهم ، ثم ساروا من قيسارية إلى أرسوف ، ووقع بينهم وبين المسلمين مصاف أزالوا المسلمين عن موقفهم ، ووصلوا إلى سوق المسلمين ، فقتلوا من السوقية وغيرهم خلقًا كثيرًا ، ثم سار الفرنج إلى يافا وقد أخلاها المسلمون فملكوها ، ثم رأى السلطان تخريب عسقلان مصلحة لئلا يحصل لها ما حصل لعكا ، فسار إليها وأخلاها وخربها ، ورتب الحجارين فى تفليق أسوارها وتخريبها فدكها إلى الأرض ، فلما فرغ السلطان من تخريب عسقلان ، رحل عنها ثانى شهر رمضان إلى الرملة ، فخرب حصنها ، وخرب كنيسة لد ، ثم سار إلى القدس وقرر أموره ، وعاد إلى مخيمه بالنظرون[1] ثامن شهر رمضان ، ثم تراسل الفرنج والسلطان فى الصلح على أن يتزوج الملك العادل أخو السلطان بأخت ملك الانكتار ، ويكون للملك العادل القدس ، ولامرأته عكا ، فحضر القسيسون وأنكروا عليها ذلك ، إلا أن يتنصر الملك العادل ، فلم يتفق بينهم حال ، ثم رحل الفرنج من يافا إلى الرملة ثالث ذى القعدة ، وبقى فى كل يوم يقع بين المسلمين وبينهم مناوشات ، فلقوا من ذلك شدة شديدة ، وأقبل الشتاء ، وحالت الأوحال بينهم ، ولما رأى السلطان ذلك ، وقد ضجرت العساكر أعطاهم الدستور ، وسار إلى القدس لسبع بقين من ذى القعدة ، ونزل داخل البلد ، واستراحوا مما كانوا فيه ، وأخذ السلطان فى تعمير القدس وتحصينه ، وأمر العسكر بنقل الحجارة ، وكان السلطان ينقل الحجارة بنفسه على فرسه ليقتدى به العسكر ، فكان يجتمع عند العمالين فى اليوم الواحد مايكفيهم لعدة أيام .

---

(١) هكذا فى الأصل وربما الأقرب إلى الصواب أن تكون اللفظة بالنطرون .

ذكر وفاة الملك المظفر تقى الدين عمر

كان الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، قد سار إلى البلاد المرتجعة من كوكبورى التى زاده إياها عمه السلطان من وراء الفرات ، وهى حران وغيرها ، فامتدت عين الملك المظفر إلى بلاد مجاوريه ، واستولى على السويدا وحانى ، واتقع مع بكتمر صاحب خلاط فكسره وحصره فى خلاط ، وتملك على معظم البلاد ، ثم رحل عنها ونازل ملازكرد وهى لبكتمر وضايقها ، وكان فى صحبته ولده الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر عمر المذكور ، فعرض للملك المظفر مرض شديد وتزايد به ، حتى توفى يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان من هذه السنة ، أعنى سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، فأخفى ولده الملك المنصور وفاته ، ورحل عن ملازكرد ، ووصل به إلى حماة ودفنه بظاهرها ، وبنى إلى جانب التربة مدرسة ، وذلك مشهور هناك .

وكان الملك المظفر شجاعاً شديد البأس ، ركنا عظيما من أركان البيت الأيوبى ، وكان عنده فضل وأدب ، وله شعر حسن ، واتفق أن فى ليلة الجمعة التى توفى فيها الملك المظفر ، توفى فيها حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ، وأمه ست الشام بنت أيوب أخت السلطان ، فأصيب السلطان فى تاريخ واحد بابن أخيه وابن أخته ، ولما مات الملك المظفر ، راسل ابنه الملك المنصور السلطان صلاح الدين ، واشترط شروطا نسبه السلطان فيها إلى العصيان ، وكاد أمره يضطرب بالكلية ، فراسل الملك المنصور عمه الملك العادل فى استعطاف خاطر السلطان ، فما برح الملك العادل بأخيه السلطان يراجعه ويشفع فى الملك المنصور حتى أجابه السلطان ، وقرر الملك المنصور حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم ، وارتجع السلطان البلاد الشرقية وما معها وأقطعها أخاه الملك العادل بعد أن شرط السلطان أن الملك العادل ينزل عن كل ماله من الإقطاع بالشام خلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء ونصف خاصه بمصر ، وأن يكون عليه فى كل سنة ستة آلاف غرارة ، تحمل من الصلت والبلقاء إلى القدس ، ولما استقر ذلك ، سار الملك العادل إلى البلاد الشرقية لتقرير أمورها فقررها ، وعاد إلى خدمة السلطان فى آخر جمادى الآخرة من السنة القابلة ، أعنى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، ولما قدم الملك العادل على السلطان ، كان الملك المنصور صاحب حماة صحبته ، فلما رأى السلطان الملك المنصور بن تقى الدين ، نهض واعتنقه وغشيه البكاء وأكرمه وأنزله فى مقدمة عسكره .

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفى هذه السنة : فى شعبان ، قتل قزل أرسلان ، واسمه عثمان بن الدكز ، وهو الذى ملك أذربيجان وهمدان وأصفهان والرى بعد أخيه محمد البهلوان ، وكان قد قوى عليه السلطان طغريل السلجوقى وهزم عسكر بغداد ، كما تقدم ذكره ، ثم إن قزل أرسلان تغلب ، واعتقل السلطان طغريل بن أرسلان بن طغريل فى بعض البلاد ، وسار قزل أرسلان بعد ذلك إلى أصفهان ، وتعصب على الشافعية ، وأخذ جماعة من أعيانهم فصلبهم ، وعاد إلى همدان ، وخطب لنفسه بالسلطنة ، ودخل لينام على فراشه ، وتفرق عنه أصحابه ، فدخل عليه من قتله على فراشه ولم يعرف قاتله .

وفيها : قدم معز الدين قيصر شاه بن قليج أرسلان ، صاحب بلاد الروم إلى السلطان صلاح الدين ، وسببه أن والده فرق مملكته على أولاده ، وأعطى ولده هذا ملطية ، ثم تغلب بعض إخوته على والده ، وألزمه بأخذ ملطية من أخيه المذكور ، فخاف من ذلك ، فسار إلى السلطان ملتجئًا إليه ، فأكرمه السلطان وزوجه بابنة أخيه الملك العادل ، وعاد معز الدين إلى ملطية فى ذى القعدة ، وقد انقطعت أطماع أخيه منه .

قال ابن الأثير : لما ركب السلطان صلاح الدين ليودع معز الدين قيصر شاه المذكور ، ترجل معز الدين له ، فترجل السلطان صلاح الدين ، ولما ركب السلطان صلاح الدين عضده قيصر شاه وركبه ، وكان علاء الدين بن عز الدين مسعود صاحب الموصل مع السلطان إذ ذاك فسوى ثياب السلطان أيضاً ، فقال بعض الحاضرين فى نفسه : ما بَقِيتَ تبالى يا ابن أيوب ، بأى موتة تموت ، يركبك ملكٌ سلجوق ، ويسوى قماشك ابن أتابك زمكى .

وفيها : قتل أبو الفتح يحيى بن حنش بن أميرك ، الملقب شهاب الدين السهروردى الحكيم الفيلسوف بقلعة حلب محبوسًا ، أمر بخنقه الملك الظاهر غازى بأمر والده السلطان صلاح الدين ، قرأ المذكور الأصولين والحكمة بمراغة على مجد الدين الجيلى ، شيخ الإمام فخر الدين ، ثم سافر السهروردى المذكور إلى حلب ، وكان علمه أكثر من عقله ، فنسب إلى انحلال العقيدة ، وأنه يعتقد مذهب الفلاسفة ، فأفتى الفقهاء بإباحة دمه ، لما ظهر من سوء مذهبه واشتهر عنه ، وكان أشدهم عليه فى ذلك زين الدين ومجد الدين ابنا جهيل ، حكي الشيخ سيف الدين الآمدى قال : اجتمعت بالسهروردى فى حلب فقال لى : لابد أن أملك الأرض ، فقلت له : من أين لك هذا ؟ قال : رأيت فى المنام كأنى شربت ماء البحر ، فقلت : لعله يكون اشتهار علمك وما يناسب هذا ، فرأيته لا يرجع عما وقع فى نفسه ، ووجدته كثير

العلم ، قليل العقل ، وكان عمره لما قتل ثمانيًا وثلاثين سنة ، وله عدة مصنفات فى الحكمة منها : التلويحات والتنقيحات والمشارع والمطارحات وكتاب الهياكل وحكمة الإشراق ، وكان ينتسب إلى أنه يعرف السيميا وله نظم حسن فمنه :

أبداً تحن إليكم الأرواح ووصالكم ريحانها والـراح
وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم وإلى لذيذ لقائكم ترتاح
وارحمتا للعاشقـين تكلفوا ستر المحبة والهوى فضاح
وإذا هُم كتموا يحدث عنهم عند الوشاة المدمع السحاح
لا ذنب للعشاق أن غلب الهوى كتمانهم فنمى الغرام وباحوا

وهى قصيدة طويلة اقتصرنا منها على هذا القدر .

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة :

وفيها : سار الفرنج إلى عسقلان ، وشرعوا فى عمارتها فى المحرم والسلطان فى القدس .

وفيها : قتل المركيس صاحب صور لعنه الله تعالى ، قتله بعض الباطنية ، وكانوا قد دخلوا فى زى الرهبان إلى صور .

ذكر عقد الهدنة مع الفرنج وعود السلطان إلى دمشق

وسبب ذلك أن ملك الانكتار مرض وطال عليه البيكار ، فكاتب الملك العادل يسأله الدخول على السلطان فى الصلح ، فلم يجبهم السلطان إلى ذلك ، ثم اتفق رأى الأمراء على ذلك لطول البيكار ، وضجر العسكر ونفدت نفقاتهم ، فأجاب السلطان إلى ذلك ، واستقر أمر الهدنة فى يوم السبت ثامن عشر شعبان ، وتحالفوا على ذلك فى يوم الأربعاء الثانى والعشرين من شعبان ولم يحلف ملك الانكتار ، بل أخذوا يده وعاهدوه ، واعتذر بأن الملوك لا يحلفون ، وقنع السلطان بذلك ، وحلف الكندهرى ابن أخيه وخليفته فى الساحل ، وكذلك حلف غيره من عظماء الفرنج ، ووصل ابن الهنفرى وباليان إلى خدمة السلطان ، ومعهما جماعة من المقدمين ، وأخذوا يد السلطان على الصلح ، واستحلفوا الملك العادل أخا السلطان والملك الأفضل والظاهر ابنى السلطان ، والملك المنصور صاحب حماة محمد بن تقى الدين عمر ، والملك المجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص ، والملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك ، والأمير بدر الدين إيلدرم الياروقى صاحب تل باشر ، والأمير سابق

الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر ، والأمير سيف الدين على بن أحمد المشطوب وغيرهم من المقدمين الكبار ، وعقدت هدنة عامة فى البحر والبر ، وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر ، أولها أيلول ، الموافق الحادى والعشرين من شعبان ، وكانت الهدنة على أن يستقر بيد الفرنج يافا وعملها ، وقيسارية وعملها ، وأرسوف وعملها ، وحيفا وعملها ، وعكا وعملها ، وأن تكون عسقلان خرابًا ، واشترط السلطان دخول بلاد الإسماعيلية فى عقد هدنته ، واشترط الفرنج دخول صاحب أنطاكية وطرابلس فى عقد هدنتهم ، وأن يكون لد والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين ، فاستقرت القاعدة على ذلك .

ثم رحل السلطان إلى القدس فى رابع شهر رمضان ، وتفقد أحواله ، وأمر بتشييد أسوار ، وزاد فى وقف المدرسة التى عملها بالقدس ، وهذه المدرسة كانت قبل الإسلام تعرف بصند حَنَّة ، يذكرون أن فيها قبر حَنَّة أم مريم ، ثم صارت فى الإسلام دار علم قبل أن يتملك الفرنج بالقدس ، ثم لما ملك الفرنج القدس فى سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة أعادوها كنيسة ، كما كانت قبل الإسلام ، فلما فتح السلطان القدس أعادها مدرسة ، وفوض تدريسها ووقفها إلى القاضى بهاء الدين بن شداد ، ولما استقر أمر الهدنة أرسل السلطان مائة حجار لتخريب عسقلان ، وأن يخرج من بها من الفرنج ، وعزم على الحج والإحرام من القدس ، وكتب إلى أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن بذلك ، ثم فنده الأمراء وقالوا : لا نعتمد على هدنة الفرنج خوفاً من غدرهم ، فانتقض عزمه عن ذلك ، ثم رحل السلطان عن القدس لخمس مضين من شوال إلى نابلس ، ثم سار إلى بيسان ، ثم إلى كوكب فبات بقلعتها ، ثم رحل إلى طبرية ولقيه بها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى وقد خلص من الأسر ، وكان قد أسر بعكا لما أخذها الفرنج مع من أسر ، فسار قراقوش مع السلطان إلى دمشق ، ثم سار منها قراقوش إلى مصر ، ثم سار السلطان إلى بيروت ، ووصل إلى خدمته بيمند صاحب أنطاكية يوم السبت حادى وعشرين شوال ، فأكرمه السلطان وفارقه غد ذلك اليوم ، وسار السلطان إلى دمشق ودخلها يوم الأربعاء لخمس بقين من شوال ، وفرح الناس به لأن غيبته كانت عنهم مدة أربع سنين .

وأقام العدل والإحسان بدمشق ، وأعطى السلطان العساكر الدستور ، فودعه ولده الملك الظاهر وداعًا لالقاء بعده وسار إلى حلب ، وبقى عند السلطان بدمشق ولده الملك الأفضل والقاضى الفاضل ، وكان الملك العادل قد استأذن السلطان ، وسار من القدس إلى الكرك لينظر فى مصالحه ، ثم عادل الملك العادل إلى دمشق طالبًا البلاد الشرقية التى صارت له بعد تقى الدين ، فوصل إلى دمشق فى الحادى والعشرين من ذى القعدة ، وخرج السلطان إلى لقائه .

وفى يوم الخميس ، السادس والعشرين من شوال من هذه السنة ، توفى الأمير سيف الدين

على بن أحمد المشطوب بنابلس ، وكانت إقطاعة ، فوقف السلطان ثلث نابلس على مصالح القدس ، وأقطع الباقى للأمير عماد الدين أحمد بن سيف الدين على بن المشطوب وأميرين معه .

ذكر وفاة السلطان عز الدين قليج أرسلان صاحب بلاد الروم وأخبار الذين تولوا بعده

فى هذه السنة : أعنى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، فى منتصف شعبان ، توفى السلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان يبغو بن سلجوق ، وكان ملكه فى سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وكان ذا سياسة حسنة ، وهيبة عظيمة ، وعدل وافر ، وغزوات كثيرة ، وكان له عشرة بنين ، قد ولى كل واحد منهم قطرًا من بلاد الروم ، وأكبرهم قطب الدين ملكشاه بن قليج أرسلان المذكور ، وكان قد أعطاه أبوه سيواس ، فسولت له نفسه القبض على أبيه وإخوته والانفراد بالسلطنة ، وساعده على ذلك صاحب أرزنكان ، فسار قطب الدين ملكشاه ، وهجم على والده قليج أرسلان بمدينة قونية وقبض عليه ، وقال لوالده وهو فى قبضته : أنا بين يديك أنفذ أوامرك ، ثم إنه أشهد على والده بأنه قد جعله ولى عهده ، ثم مضى ملكشاه المذكور إلى حرب أخيه نور الدين سلطان شاه صاحب قيسارية ووالده فى القبضة معه ، وهو يظهر أن ما يفعله إنما هو بأمر والده ، فخرج عسكر قيسارية لحربه ، فوجد أبوه عز الدين قليج أرسلان عند اشتغال العسكر بالقتال فرصة ، فهرب إلى ولده سلطان شاه صاحب قيسارية فأكرمه وعظمه ، كما يجب عليه ، فرجع قطب الدين ملكشاه إلى قونية وخطب لنفسه بالسلطنة ، وبقى أبوه قليج أرسلان يتردد فى بلاده بين أولاده ، كلما ضجر منه واحد منهم ينتقل إلى الآخر ، حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان صاحب برغلو ، فقوى أباه قليج أرسلان وأعطاه وجمع له وحشد ، وسار معه إلى قونية فملكها وأخذها من ابنه ملكشاه ، ثم سار إلى أقصرا ، فاتفق أن عز الدين قليج أرسلان مرض ومات فى التاريخ المذكور ، فأخذه ولده كيخسرو وعاد به إلى قونية فدفنه بها ، واتفق موت ملكشاه بعد موت أبيه قليج أرسلان بقليل ، فاستقر كيخسرو فى ملك قونية وأثبت أنه ولى عهد أبيه قليج أرسلان ، ثم إن ركن الدين سليمان أخا غياث الدين كيخسرو قوى على أخيه كيخسرو وأخذ منه قونية ، فهرب كيخسرو إلى الشام مستجيرا بالملك الظاهر صاحب حلب .

ثم مات ركن الدين سليمان سنة ستمائة ، وملك بعده ولده قليج أرسلان بن سليمان فرجع

غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان إلى بلاد الروم ، وأزال ملك قليج أرسلان بن سليمان وملك بلاد الروم جميعها ، واستقرت له السلطنة ببلاد الروم ، وبقى كذلك إلى أن قتل ، وملك بعده ابنه عز الدين كيكاوس بن كيخسرو ، ثم توفى كيكاوس وملك بعده أخوه السلطان علاء الدين كيقباذ ين كيخسرو ، وتوفى علاء الدين كيقباذ سنة أربع وثلاثين وستمائة ، وملك بعده ولده غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو ، وكسره التتر سنة إحدى وأربعين وستمائة ، وتضعضع حينئذ ملك السلاطين السلجوقية ببلاد الروم ، ثم مات غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان بن سلجوق ، وانقضى بموت كيخسرو المذكور سلاطين بلاد الروم فى الحقيقة ، لأن من صار بغده لم يكن له من السلطنة غير مجرد الاسم ، وخلف كيخسرو المذكور صبيين هما : ركن الدين وعز الدين فملكا معًا مدة مديدة ، ثم انفرد ركن الدين بالسلطنة ، وهرب أخوه عز الدين إلى قسطنطينية ، وتغلب على ركن الدين معين الدين البرواناه ، والبلاد فى الحقيقة للتتر ، ثم إن البرواناه قتل ركن الدين ، وأقام أبداً لركن الدين يخطب له بالسلطنة والحكم للبرواناه وهو نائب التتر على ماسنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : غزا شهاب الدين الغورى الهند ، فغنم وقتل مالا يحصى .

وفيها : خرج السلطان طغريل بن أرسلان بن طغريل من الحبس ، بعد قتل قزل أرسلان بن الدكز ، وكان قزل قد اعتقله حسبما تقدم ذكره فى سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

وفيها : توفى راشد الدين سنان بن سليمان بن محمد ، وكنيته أبو الحسن ، صاحب دعوة الإسماعيلية بقلاع الشام وأصله من البصرة .

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة :

ذكر وفاة السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبى المظفر يوسف بن أيوب بن شادى وشىء من أخباره

دخلت هذه السنة والسلطان بدمشق على أكمل مايكون من المسرة ، وخرج إلى شرقى دمشق متصيدًا ، وغاب خمسة عشر يومًا وصحبته أخوه الملك العادل ، ثم عاد إلى دمشق ،

وودعه أخوه الملك العادل وداعًا لا لقاء بعده ، فمضى إلى الكرك وأقام فيه حتى بلغه وفاة السلطان ، وأقام السلطان بدمشق ، وركب فى يوم الجمعة خامس عشر صفر وتلقى الحجاج ، وكان عادته ألا يركب إلا وهو لابس كزاغند[1] ، فركب ذلك اليوم ، وقد اجتمع بسبب ملتقى الحجاج وركوبه عالم عظيم ، ولم يلبس الكزاغند ، ثم ذكره وهو راكب ، فطلب الكزاغند فلم يجده ، وقد حملوه معه ، ولما التقى الحجاج استعبرت عيناه كيف فاته الحج ، ووصل إليه مع الحجاج ولد أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن ، ثم عاد السلطان بين البساتين إلى جهة المنيبع ، ودخل إلى القلعة على الجسر إليها ، وكانت هذه آخر ركباته ، فلحقه ليلة السبت سادس عشر صفر كسل عظيم ، وغشيه نصف الليل حمى صفراوية ، وأخذ المرض فى التزايد ، وقصده الأطباء فى الرابع ، فاشتد مرضه ، وحدث له فى التاسع رعشة ، وغاب ذهنه ، وامتنع من تناول المشروب ، واشتد الإرجاف فى البلد ، وغشى الناس من الحزن والبكاء عليه مالا يمكن حكايته ، وحقن فى العاشر حقنتين ، فحصل له راحة ، وتناول من ماء الشعير مقدارًا صالحًا ، ثم لحقه عرق كثير حتى نفذ من الفراش ، واشتد المرض ليلة الثانى عشر من مرضه وهى ليلة السابع والعشرين من صفر ، وحضر عنده الشيخ أبو جعفر إمام الكلاسة ليبيت عنده فى القلعة ، بحيث إن احتضر بالليل ذكره الشهادة .

وتوفى السلطان فى الليلة المذكورة ، أعنى فى الليلة المستقرة عن نهار الأربعاء السابع والعشرين من صفر بعد صلاة الصبح من هذه السنة ، أعنى سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، وبادر القاضى الفاضل بعد صلاة الصبح ، فحضر وفاته ، ووصل القاضى بهاء الدين بن شداد بعد موته وانتقاله إلى رحمة الله وكرامته ، وغسله الفقيه الدولعى خطيب دمشق ، وأخرج بعد صلاة الظهر من نهار الأربعاء المذكور ، فى تابوت مسجى بثوب ، وجميع ما احتاجوا من الثياب فى تكفينه أحضره القاضى الفاضل من جهة حل عرفة ، وصلى عليه الناس ، ودفن فى قلعة دمشق فى الدار التى كان مريضًا فيها ، وكان نزوله إلى جدته وقت صلاة العصر من النهار المذكور ، وكان الملك الأفضل ابنه قد حلف الناس له قبل وفاة والده عندما اشتد مرضه ، وجلس للعزاء فى القلعة ، وأرسل الملك الأفضل على الكتب بوفاة والده إلى أخيه العزيز عثمان بمصر ، وإلى أخيه الظاهر غازى بحلب ، وإلى عمه الملك العادل أبى بكر بالكرك .

ثم إن الملك الأفضل عمل لوالده تربة قرب الجامع ، وكانت داراً لرجل صالح ، ونقل

---

(١) الكزاغند : قال صاحب كتاب « الملابس المملوكية » تأليف ل . ا . ماير ترجمة صلاح الشيق ما نصه ص ٧١ و ٧٢ « والبريجاندين الذى يطلق عليه اسم كزاغند أشير إليه كثيرًا فى القرن الثالث عشر ، فهو لابد أن يكون حلة شائعة الاستعمال فى تلك الأيام ، ولكنه كان فخمًا إلى درجة حملت السلطان على ارتدائه كذلك » ، ويقول فى هامش ص ٧٢ فى وصف الكزاغند « كان من المألوف أن يرتديه صلاح الدين دائمًا أثناء ركوبه ، وكان له ياقة عريضة ، ولم يكن فى استطاعة سكين أن تقطعه ، ولا يمكن للنصل أن ينفذ منه ليلحق بالجسد .

إليها السلطان يوم عاشوراء سنة اثنتين وخمسمائة ، ومشى الملك الأفضل بين يدى تابوته ، وأخرج من باب القلعة على دار الحديث إلى باب البريد ، وأدخل الجامع ووضع قدام الستر ، وصلى عليه القاضى محيى الدين ابن القاضى زكى الدين ثم دفن ، وجلس ابنه الملك الأفضل فى الجامع ثلاثة أيام للعزاء ، وأنفقت ست الشام بنت أيوب أخت السلطان فى هذه النوبة أموالا عظيمة ، وكان مولد السلطان صلاح الدين بتكريت فى شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، فكان عمره قريباً من سبع وخمسين سنة ، وكانت مدة ملكه للديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة ، وملكه الشام قريباً من تسع عشرة سنة ، وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً وبنتاً واحدة ، وكان أكبر أولاده الملك الأفضل نور الدين على بن يوسف ، ولد بمصر سنة خمس وستين وخمسمائة ، وكان العزيز عثمان أصغر منه بنحو سنتين ، وكان الظاهر صاحب حلب أصغر منهما ، وبقيت البنت حتى تزوجها ابن عمها الملك الكامل صاحب مصر ، ولم يخلف السلطان صلاح الدين فى خزانته غير سبعة وأربعين درهماً ، وحرم واحد صورى ، وهذا من رجل له الديار المصرية والشام وبلاد الشرق واليمن ، دليل قاطع على فرط كرمه ، ولم يخلف داراً ولا عقاراً .

قال العماد الكاتب : حسبت ما أطلقه السلطان فى مدة مقامه بمرج عكا من خيل عراب وأكاديش ، فكان اثنى عشر ألف رأس ، وذلك غير ما أطلقه من أثمان الخيل المصابة فى القتال ، ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب ، أو موعود به ، ولم يؤخر صلاة عن وقتها ، ولا صلى إلا فى جماعة ، وكان إذا عزم على أمر توكل على الله ، ولا يفضل يوماً على يوم ، وكان كثير سماع الحديث النبوى ، قرأ مختصراً فى الفقه ، تصنيف سليم الدارى ، وكان حسن الخلق ، صبوراً على ما يكره ، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه ، يسمع من أحدهم ما يكره ، ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه ، وكان يوما جالسًا فرمى بعض المماليك بعضاً بسرموزة فأخطأته ، ووصلت إلى السلطان فأخطأته ووقعت بالقرب منه ، فالتفت إلى الجهة الأخرى ليتغافل عنها ، وكان طاهر المجلس فلا يذكر أحد فى مجلسه أحداً إلا بالخير ، وطاهر اللسان فما يولع بشتم قط .

قال العماد الكاتب : مات بموت السلطان الرجال ، وفات بوفاته الأفضال ، وغاضت الأيادى وفاضت الأعادى ، وانقطعت الأرزاق ، وادلهمت الآفاق ، وفجع الزمان بواحده وسلطانه ، ورزئ الإسلام بمشيد أركانه .

ذكر ما استقر عليه الحال
بعد وفاة السلطان

لما توفى السلطان الملك الناصر صلاح الدين ، استقر فى الملك (بدمشق) وبلادها المنسوبة إليها ، ولده الملك الأفضل نور الدين على ، و (بالديار المصرية) الملك العزيز عماد الدين عثمان ، و (بحلب) الملك الظاهر غياث الدين غازى ، و (بالكرك والشوبك والبلاد الشرقية) الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب ، و (بحماة وسَلَمْية والمعرة ومنبج وقلعة نجم) الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقى الدين عمر ، و (ببعلبك) الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، و (بحمص والرحبة وتدمر) شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذى ، وبيد الملك الظافر خضر بن السلطان صلاح الدين (بصرى) ، وهوفى خدمة أخيه الملك الأفضل .

وبيد جماعة من أمراء الدولة بلاد وحصون منهم : سابق الدين بن الداية بيده (شيزر) وأبو قبيس وناصر الدين بن كورس بن خماردكين بيده (صهيون وحصن برزية) ، وبدر الدين دلدرم بن بهاء الدين ياروق بيده (تل باشر) ، وعز الدين أسامة بيده (كوكب وعجلون) ، وعز الدين إبراهيم بن شمس الدين بن المقدم بيده (بعرين وكفرطاب وفامية) .

والملك الأفضل هو الأكبر من أولاد السلطان ، والمعهود إليه بالسلطنة ، واستوزر الملك الأفضل ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير مصنف « المثل السائر » ، وهو أخو عز الدين بن الأثير مؤلف التاريخ المسمى « بالكامل » ، فحسّن للملك الأفضل طرد أمراء أبيه ، ففارقوه إلى أخويه العزيز والظاهر .

قال العماد الكاتب : وتفرد الوزير فى توزره ، ومد الجزرى فى جزره ، ولما اجتمعت أكابر الأمراء بمصر ، حسنوا للملك العزيز الانفراد بالسلطنة ، ووقعوا فى أخيه الأفضل ، فمال إلى ذلك ، وحصلت الوحشة بين الأخوين الأفضل والعزيز .

وفى هذه السنة : بعد موت السلطان ، قدم الملك العادل من الكرك إلى دمشق وأقام فيها وظيفة العزاء على أخيه ، ثم توجه إلى بلاده التى وراء الفرات .

ذكر حركة عز الدين مسعود صاحب الموصل إلى البلاد الشرقية التى بيد الملك العادل وعوده وموته

فى هذه السنة : لما مات السلطان صلاح الدين كاتب عز الدين مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل ملوك البلاد المجاورين للموصل يستنجدهم ولذلك اتفق مع أخيه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجار ، وسار إلى جهة حران وغيرها ، فلحق عز الدين مسعود إسهال قوى وضعف ، فترك العسكر مع أخيه عماد الدين وعاد إلى الموصل ، وصحبه مجاهد الدين قيماز ، فخلف العسكر عز الدين لابنه أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن أقسنقر ، وقوى بعز الدين مسعود المرض ، وتوفى فى السابع والعشرين من شعبان فى هذه السنة ، فكانت مدة ما بين وفاته ووفاة السلطان صلاح الدين نصف سنة ، وكانت مدة ملك عز الدين بن مسعود للموصل ثلاث عشرة سنة وستة أشهر ، وكان ديناً خيراً كثير الإحسان ، وكان أسمر مليح الوجه خفيف العارضين ، يشبه جده عماد الدين زنكى ، واستقر فى ملك الموصل بعده ولده أرسلان شاه ، وكان القيم بأمره مجاهد الدين قيماز .

ذكر قتل بكتمر صاحب خِلاط

فى هذه السنة : فى أول جمادى الأولى ، قتل سيف الدين بكتمر صاحب خِلاط ، وكان بين قتله وبين موت السلطان صلاح الدين شهران ، ولما بلغ بكتمرموت السلطان صلاح الدين أسرف فى إظهار الشماتة بموت السلطان ، وضرب البشائر ببلاده ، وفرح فرحًا كثيرًا ، وعمل تختًا يجلس عليه ، ولقب نفسه السلطان المعظم صلاح الدين ، وكان اسمه بكتمر ، فسمى نفسه الملك العزيز ، فلم يمهله الله تعالى ، وكان بكتمر هذا من مماليك ظهير الدين شاهر مَنّ ، وكان له خشداش اسمه هزار دينارى ، وكان قد قوى وتزوج ابنة بكتمر ، وطمع فى الملك ، فوضع على بكتمر من قتله .

ولما قتل ملك بعده هزار دينارى خِلاط وأعمالها ، واسم هزار دينارى المذكور آقسنقر ، ولقبه بدر الدين ، جلبه تاجر جرجانى اسمه على إلى خِلاط ، فاشتراه منه شاهْرَمَنّ سكمان بن إبراهيم ، وأعجب به شاهر مَنّ فجعله ساقياً له ، ولقّبه هزار دينارى ، وبقى على

ذلك برهة من الزمان ، فلما تولى بكتمر على مملكة خِلاط ، بقى المذكور من أكبر الأمراء ، وتزوج بينت بكتمر عينا خاتون ، فلما قتل بكتمر خلف ولدًا ، فأخذ هزار ديناري المذكور ولد بكتمر وأمه واعتقلهما بقلعة أرزاس عوش ، وكان عمر ابن بكتمر إذ ذاك نحو سبع سنين ، واستمر بدر الدين أقسنقر هزار ديناري في مملكة خِلاط حتى توفى فى سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، حسبما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : شتى شهاب الدين الغوري فى برشاور ، وجهز مملوكه أيك فى عساكر كثيرة إلى بلاد الهند ، ففتح وغنم وعاد منصوراً مؤيداً .

وفيها : توفى سلطان شاه بن أرسلان بن أطسز بن محمد بن أتوشتكين ، وكان قد ملك مرو وخراسان ، ولما مات انفرد أخوه تكش بالمملكة ، وقد تقدم ذكرهما فى سنة ثمان وستين وخمسمائة .

وفيها : مات الأمير داود بن عيسى بن محمد بن أبى هاشم أمير مكة ، وما زالت إمارة مكة له تارة ولأخيه مكثرتارة حتى مات .

ثم دخلت سنة تسعين وخمسمائة :

ذكر قتل طغريل وملك خوارزم شاه الريّ

كان طغريل بن أرسلان بن طغريل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل السلجوقى قد حبسه قزل أرسلان بن الدكز ، وخرج طغريل من الحبس فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، وملك همدان وغيرها ، وجرى حرب بينه وبين مظفر الدين أزبك بن البهلوان محمد بن الدكز ، وقيل بل هو قطلغ إينانج أخو أزبك المذكور ، فانهزم ابن البهلوان ، ثم إن ابن البهلوان بعد هزيمته ، استنجد بخوارزم شاه علاء الدين تكش فخاف منه ، فلم يجتمع بخوارزم شاه فسار خوارزم شاه تكش وملك الرى ، وذلك فى سنة ثمان وثمانين ، وبلغ تكش أن أخاه سلطان شاه قد قصد خوارزم ، فصالح طغريل السلجوقى ، وعاد تكش إلى خوارزم ، وبقى الأمر كذلك حتى مات سلطان شاه فى سنة تسع وثمانين

وخمسمائة ، فتسلم تكش مملكة أخيه سلطان شاه وخزائنه ، وولى ابنه محمد بن تكش نيسابور ، وولى ابنه الأكبر ملكشاه بن تكش مرو .

ولما دخلت سنة تسعين ، سارتكش إلى حرب طغريل السلجوقى ، فسار طغريل إلى لقائه قبل أن يجمع عساكره ، والتقى العسكران بالقرب من الرى ، وحمل طغريل بنفسه فقتل ، وكان قتله فى الرابع والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة ، وحمل رأس طغريل إلى تكش ، فأرسله إلى بغداد فنصب بها عدة أيام ، وسارتكش فملك همدان وتلك البلاد جميعها ، وسلم بعضها إلى ابن البهلوان وأقطع بعضها لمماليكه ، ورجع إلى خوارزم ، وهذا طغريل بن أرسلان شاه بن طغريل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ، هو آخر السلاطين السلجوقية الذين ملكوا بلاد العجم ، وقد تقدم ذكر ابتداء الدولة السلجوقية فى سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة .

وأول من ملك منهم العراق ، وأزال دولة بنى بويه طغريل بك بن ميكائيل بن سلجوق ، ثم ملك بعده ابن أخيه ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل ، ثم ابنه ملكشاه بن ألب أرسلان ، ثم ابنه محمود بن ملكشاه وكان طفلا ، فقامت بتدبير المملكة أم محمود تركان خاتون ، ومات محمود وهو ابن سبع سنين ، وملك أخوه بركيارق بن ملكشاه ، ثم أخوه محمد بن ملكشاه ، ثم ابنه محمود بن محمد المذكور ، ثم ابنه داود بن محمود بن محمد المذكور مدة يسيرة ، ثم عمه طغريل بن محمد ، ثم أخوه مسعود بن محمد ، ثم ابن أخيه ملكشاه بن محمود بن محمد أياما يسيرة ، ثم أخوه محمد بن محمود ، ثم بعد محمد المذكور اختلفت العساكر ، وقام من بنى سلجوق ثلاثة : أحدهم ملكشاه بن محمود أخو محمد المذكور ، والثانى سليمان شاه بن محمد ابن السلطان ملكشاه ، وهو عم محمد المذكور ، والثالث أرسلان شاه بن طغريل بن محمد ابن السلطان ملكشاه .

وكان الدكز متزوجاً بأم أرسلان شاه المذكور ، فقوى عليها سليمان شاه ، واستقر فى همدان فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، ثم قبض سليمان شاه وقتل ، وكذلك سم ملكشاه بن محمود المذكور ومات بأصفهان فى السنة المذكورة ، أعنى سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وانفرد بالسلطنة أرسلان شاه بن طغريل ربيب الدكز ، ثم ملك بعده ابنه طغريل بن أرسلان شاه بن طغريل المذكور فى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وجرى له ما ذكرناه حتى قتله تكش فى هذه السنة ، أعنى سنة تسعين وخمسمائة ، وانقرضت به الدولة السلجوقية من تلك البلاد .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : أرسل الخليفة الإمام الناصر عسكراً مع وزيره مؤيد الدين محمد بن على المعروف بابن القصاب إلى خورستان ، وهى بلاد ابن شملة وأولاده من بعده ، وكان قد مات صاحبها ابن شملة فاختلفت أولاده ، فوصل عسكر الخليفة إلى خورستان ، وملكوا مدينة تستر فى المحرم سنة إحدى وتسعين وغيرها من البلاد ، وكذلك ملكوا قلعة الناظر وقلعة كاكرد وقلعة لاموج وغيرها من القلاع والحصون ، فأنفذوا بنى شملة أصحاب بلاد خورستان إلى بغداد .

وفى هذه السنة : أعنى سنة تسعين ، استحكمت الوحشة بين الأخوين العزيز والأفضل ابنى السلطان صلاح الدين ، فسار العزيز فى عسكر مصر ، وحصر أخاه الأفضل بدمشق ، فأرسل الأفضل إلى عمه العادل وأخيه الظاهر وابن عمه الملك المنصور صاحب حماة يستنجدهم ، فساروا إلى دمشق وأصلحوا بين الأخوين ، ورجع العزيز إلى مصر ، ورجع كل ملك إلى بلده ، وأقبل الملك الأفضل بدمشق على شرب الخمر وسماع الأغانى والأوتار ليلا ونهاراً ، وأشاع ندماؤه أن عمّه الملك العادل حسّن له ذلك ، وكان يعمله بالخفية ، فأنشده العادل :

* فلا خير فى اللذات من دونها ستر *

فقبل وصية عمه وتظاهر بذلك ، وفوض أمر المملكة إلى وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزرى ، يدبرها برأيه الفاسد ، ثم إن الملك الأفضل أظهر التوبة عن ذلك ، وأزال المنكرات وواظب على الصلوات ، وشرع فى نسخ مصحف بيده .

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة :

وفيها : سار ابن القصاب وزير الخليفة بعد ملك خورستان إلى همدان فملكها ، وملك غيرها من بلاد العجم ، وأخذ يستولى على سائر البلاد للخليفة ، فتوفى مؤيد الدين بن القصّاب المذكور فى أوائل شعبان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة .

وفيها : غزا ملك الغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الفرنج بالأندلس ، وجرى بينهم مصاف عظيم انتصر فيه المسلمون ، وقتل من الفرنج مالا يحصى وولوا منهزمين ، وغنم المسلمون منهم مالا يحصى .

وفيها : جهز الخليفة الإمام الناصر عسكراً مع مملوك له يقال له سيف الدين طغريل ، فاستولوا على أصفهان .

وفيها : قدَّم مماليك البهلوان عليهم مملوكاً من البهلوانية يقال له كلجا ، فعظم أمر كلجا واستولى على الرَّى وهمدان .

وفيها : عاود الملك العزيز عثمان صاحب مصر قصد الشام ومنازلة أخيه الملك الأفضل ، فسار ونزل الغوار من أرض السواد من بلاد دمشق ، فاضطرب بعض عسكر العزيز عليه وهم طائفة من الأمراء الأسدية وفارقوه ، فبادر العزيز العود إلى مصر بمن بقى معه من العسكر ، وكان الملك الأفضل قد استنجد بعمه الملك العادل لمَّا قصده أخوه العزيز ، فلمَّا رحل العزيز عائداً إلى مصر ، رحل الملك الأفضل وعمه العادل ومن انضم إليهما من الأسدية وساروا فى أثر العزيز طالبين مصر ، فساروا حتى نزلوا على بلبيس ، وقد ترك فيها العزيز جماعة من الصلاحية ، وقصد الملك الأفضل مناجزتهم بالقتال فمنعه العادل عن ذلك ، فقصد الأفضل المسير إلى مصر والاستيلاء عليها ، فمنعه عمه العادل أيضًا عن ذلك وقال : مصر لك متى شئت ، وكاتب العادل العزيز فى الباطن وأمره بإرسال القاضى الفاضل ليصلح بين الإخوان ، وكان القاضى الفاضل قد اعتزل عن ملابستهم لما رأى من فساد أحوالهم ، فدخل عليه الملك العزيز وسأله ، فتوجه القاضى الفاضل من القاهرة إلى عند الملك العادل ، واجتمع به ، واتفقا على أن يصلحا بين الأخوين فأصلحا بينهما ، وأقام الملك العادل بمصر عند العزيز ابن أخيه ليقرر أمور مملكته ، وعاد الأفضل إلى دمشق .

وفيها : كان بين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ملك الغرب ، وبين الفرنج بالأندلس شمالى قرطبة حروب عظيمة انتصر فيها يعقوب وانهزم الفرنج .

ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة :

وفيها : سار شهاب الدين الغورى صاحب غزنة إلى بلاد الهند ، وفتح قلعة عظيمة تسمَّى بهنكر بالأمان ، ثم سار إلى قلعة كوكيرو بينهما نحو خمسة أيام ، فصالحه أهلها على مال حملوه إليه ، ثم سار فى بلاد الهند فغنم وأسر وعاد إلى غزنة .

وفيها : قتل صدر الدين محمد بن عبد اللطيف بن محمد الخجندى ، رئيس الشافعية بأصفهان وهو الذى سلم أصفهان إلى عسكر الخليفة ، قتله سنقر الطويل شِحْنَة للخليفة[1] بسبب منافرة جرت بينهما .

---

(١) شِحْنَةٌ للخليفة : أى عداوة انظر : لسان العرب مادة شحن ج ٤ ط دار المعارف .

وفيها : نقل الملك الأفضل أباه السلطان صلاح الدين من قلعة دمشق إلى التربة بالمدينة فى صفر ، فكان مده لبثه بالقلعة ثلاث سنين ، ولزم الملك الأفضل الزهد والقناعة وأموره مفوضة إلىّ وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزرى ، وقد اختلفت الأحوال به وكثر شاكوه وقلّ شاكروه .

ذكر انتزاع دمشق من الملك الأفضل

لما بلغ الملك العادل فى مصر والملك العزيز اضطراب الأمور على الملك الأفضل ، اتفق العادل مع العزيز على أن يأخذا دمشق ، وأن يسلمها العزيز إلى العادل ، لتكون الخطبة والسكة للعزيز بسائر البلاد كما كانت لأبيه ، فخرجا وسارا من مصر ، فأرسل الأفضل إليهما فلك الدين ، وهو أحد أمرائه ، وكان فلك الدين أخا الملك العادل لأمه ، واجتمع فلك الدين بالملك العادل فأكرمه وأظهر الإجابة إلى ما طلبه ، وأتم العادل والعزيز السير حتى نزلا على دمشق ، وقد حصنها الملك الأفضل ، فكاتب بعض الأمراء من داخل البلد الملك العادل وصاروا معه ، وأنهم يسلمون المدينة إليه ، فزحف الملك العادل والملك العزيز ضحى يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب من هذه السنة ، فدخل الملك العزيز من باب الفرج ، والملك العادل من باب توما ، فأجاب الملك الأفضل إلى تسليم القلعة ، وانتقل منها بأهله وأصحابه وأخرج وزيره ضياء الدين بن الأثير مختفياً فى صندوق خوفاً عليه من القتل .

وكان الملك الظافر خضر ابن السلطان صلاح الدين صاحب بصرى مع أخيه الأفضل ومعاضداً له ، فأخذت منه بصرى أيضاً ، فلحق بأخيه الملك الظاهر فأقام عنده بحلب ، وأعطى الأفضل صرخد ، فسار إليها بأهله واستوطنها ، ودخل الملك العزيز إلى دمشق يوم الأربعاء رابع شعبان ، ثم سلم دمشق إلى عمه الملك العادل على حكم ما كان وقع عليه الاتفاق بينهما ، وتسلمها الملك العادل ، ورحل الملك العزيز من دمشق عشية يوم الاثنين تاسع شعبان ، وكانت مدة ملك الملك الأفضل لدمشق ثلاث سنين وشهرًا ، وأبقى الملك العادل السكة والخطبة بدمشق للملك العزيز .

ولما استقر الملك الأفضل بصرخد ، كتب إلى الخليفة الإمام الناصر يشكو من عمه العادل أبى بكر وأخيه العزيز عثمان وأول الكتاب :

مولاى إن أبا بكر وصاحبه ... عثمان قد غصبا بالسيف حق على
فانظر إلى خط هذا الاسم كيف لقى ... من الأواخر مالاقى من الأول

فكتب الإمام الناصر جوابه :

وافى كتابك يا بن يوسف معلنًا ... بالصدق يخبر أن أصلك طاهر
غصبوا عليًّا حقه إذ لم يكن ... بعد النبى له بيثرب ناصر
فاصبر فإن غداً عليه حسابهم ... وابشر فناصرك الإمام الناصر

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة :

فى هذه السنة : توفى ملكشاه بن تكش بنيسابور ، وكان أبوه خوارزم شاه تكش قد جعله فيها ، وجعل له الحكم على تلك البلاد ، وجعله ولى عهده ، وخلف ملكشاه ولدًا اسمه هندوخان ، فلما مات ملكشاه جعل تكش فيها عوضه ولده الآخر قطب الدين محمد ، وهو الذى ملك بعد أبيه ، وغير لقبه عن قطب الدين وجعله علاء الدين ، وكان بين الأخوين ملكشاه وقطب الدين عداوة مستحكمة .

ذكر وفاة سيف الإسلام

فى هذه السنة : فى شوال ، توفى سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب صاحب اليمن ، ولما مات سيف الإسلام كان ولده الملك العزيز إسماعيل بالسمرين ، فبعث إليه جمال الدولة كافور جماعة من الجند فعرفوه بوفاة والده ، ومضوا به إلى ممالك أبيه فسلموها إليه ، وكانت وفاة سيف الإسلام بزبيد ، وكان شديد السيرة ، مضيقاً على رعيته ، يشترى أموال التجار لنفسه ويبيعها كيف شاء ، وجمع من الأموال مالا يحصى ، حتى إنه كان يسبك الذهب ويجعله كالطاحون ويدخره .

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وخمسمائة :

فى هذه السنة : فى المحرم ، توفى عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى بن أقسنقر ، صاحب سنجار والخابور والرقة ، وكان حسن السيرة متواضعاً ، يحب أهل العلم ، إلا أنه كان بخيلا شديد البخل ، وملك بعده ولده قطب الدين محمد بن زنكى ، وتولى تدبير دولته مجاهد الدين برنقش مملوك أبيه .

وفيها : فى جمادى الأولى ، سار نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكى صاحب الموصل إلى نصيبين ، فاستولى عليها وأخذها من ابن عمه قطب الدين محمد بن زنكى وتسلّم نصيبين .

وفيها : سار خوارزم شاه تكش إلى بخارى وهى للخطا وحاصرها وملكها ، وكان تكش أعور . فأخذ أهل بخارى فى مدة الحصار كلبًا أعور ، وألبسوه قباء ، وقالوا للخوارزمية : هذا سلطانكم ، ورموه بالمنجنيق إليهم ، فلمّا ملكها خوارزم شاه تكش ، أحسن إلى أهل بخارى ، وفرّق فيهم أموالا ، ولم يؤاخذهم بما فعلوه فى حقه .

وفيها : وصل جمع عظيم من الفرنج إلى الساحل ، واستولوا على قلعة بيروت ، وسار الملك العادل ، ونزل بتل العجول ، وأتته النجدة من مصر ، ووصل إليه سنقر الكبير ، صاحب القدس ، وميمون القصرى صاحب نابلس ، ثم سار الملك العادل إلى يافا ، وهجمها بالسيف وملكها ، وقتل الرجال المقاتلة ، وكان هذا الفتح ثالث فتح لها ، ونازلت الفرنج تِبنين ، فأرسل الملك العادل إلى الملك العزيز صاحب مصر ، فسار الملك العزيز بنفسه بمن بقى عنده من عساكر مصر ، واجتمع بعمه الملك العادل على تِبنين ، فرحل الفرنج على أعقابهم إلى صور خائبين ، ثم عاد الملك العزيز إلى مصر ، وترك غالب العسكر مع عمه العادل ، وجعل إليه أمر الحرب والصلح ، ومات فى هذه المدة سنقر الكبير ، فجعل الملك العزيز أمر القدس إلى صارم الدين قطلق ، مملوك عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب .

ولما عاد الملك العزيز إلى مصر فى هذه المدة ، مدحه القاضى ابن سناء الملك بقصيدة منها :

قدمت بالسعد وبالمغنم ... كذا قدوم الملك المقدم
قميصك الموروث عن يوسف ... ما جاء إلا صادقًا فى الدم
أغثت تبنين وخلصتها ... فريسة من ماضغى ضيغم
شنشنة تعرف من يوسف ... فى النصر لا تعرف من أخزم
مقدمه صار جمادى به ... كمثل ذى الحجة ذام موسم

ثم طاول الملك العادل بالفرنج ، فطلبوا الهدنة ، واستقرت بينهم ثلاث سنين ، ورجع الملك العادل إلى دمشق ، ثم سار الملك العادل من دمشق إلى ماردين وحصرها ، وصاحبها حينئذ يولق أرسلان بن إيلغازى بن إلبى بن عمر تاش بن إيلغازى بن أرتق ، وليس ليولق أرسلان من الحكم شىء ، وإنما الحكم إلى مملوك والده البقش .

ذكر أخبار ملوك خِلاط

وفيها : توفى صاحب خِلاط بدر الدين (أقسنقر) هزارديناري ، وقد تقدم ذكر ملكه لخِلاط فى سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، ولما توفى هزارديناري استولى على خلاط بعده خشداشه (قتلغ) ، وكان مملوكًا أرمنى الأصل من سناسنة ، فملك خِلاط نحو سبعة أيام ، ثم اجتمع

عليه الناس وأنزلوه من القلعة ، ثم وثبوا عليه فقتلوه ، فلما قتل قتلغ ، اتفق كبراء الدولة فأحضروا محمد بن بكتمر من القلعة التى كان معتقلا فيها ، واسمها أرزاس ، وأقاموه فى مملكة خلاط ، ولقبوه الملك المنصور ، وقام بتدبير أمره شجاع الدين قتلغ الدوادار ، وكان قتلغ المذكور قفجاقىّ الجنس دَوَادَارًا لشاهْرَ مَنْ سكمان بن إبراهيم ، واستقر ابن بكتمر كذلك إلى سنة اثنتين وستمائة ، فقبض على أتابكه قتلغ المذكور وحبسه ثم قتله ، فخرج عليه مملوك لشاهْرَ مَنْ يقال له عز الدين بلبان ، واتفق العسكر مع بلبان المذكور ، وقبضوا على محمد بن بكتمر وحبسوه ثم خنقوه ورموه من سور القلعة إلى أسفل وقالوا : وقع .

واستمر (بلبان) فى مملكة خلاط دون سنة ، وقتله بعض أصحاب طغريل بن قليج أرسلان شاه صاحب أرزن ، وقصد طغريل المذكور أن يتسلم خلاط فلم يجبه أهلها إلى ذلك وعصوا عليه فعاد إلى أرزن ، ثم وصل الملك الأوحد أيوب بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب وتسلّم خلاط ، وملكها قريب ثمان سنين حسبما نذكر ذلك فى سنة أربع وستمائة إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وخمسمائة :

ذكر وفاة العزيز صاحب مصر

فى هذه السنة : فى منتصف ليلة السابع والعشرين من المحرم ، توفى الملك العزيز عماد الدين عثمان ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكان قد طلع إلى الصيد فركض خلف ذئب فتقنطر وحم سابع المحرم فى جهة الفيوم ، فعاد إلى الأهرام وقد اشتدت حماه ، ثم توجه إلى القاهرة فدخلها يوم عاشوراء ، وحدث به يرقان وقرحة فى المعى واحتبس طبعه فمات فى التاريخ المذكور ، وكانت مدة مملكته ست سنين إلا شهرا ، وكان عمره سبعًا وعشرين سنة وأشهرا ، وكان فى غاية السماحة والكرم والعدل والرفق بالرعية والإحسان إليهم ، ففجعت الرعية بموته فجعة عظيمة .

وكان الغالب على دولة الملك العزيز فخر الدين جهاركس ، فأقام فى الملك ولد الملك العزيز الملك المنصور محمد ، واتفقت الأمراء على إحضار أحد من بنى أيوب ليقوم بالملك ، وعملوا مشورة بحضور القاضى الفاضل ، فأشار بالملك الأفضل وهو حينئذ بصرخد ، فأرسلوا إليه فسار مجدًا ، ووصل إلى مصر على أنه أتابك الملك المنصور ابن الملك العزيز ، وكان عمر الملك المنصور حينئذ تسع سنين وشهوراً ، وكان مسير الملك الأفضل من صرخد لليلتين بقيتا من صفر فى تسعة عشر نفراً متنكرًا خوفًا من أصحاب عمه الملك العادل ، فإن غالب تلك البلاد كانت

له فوصل بلبيس خامس ربيع الأول ، ثم سار الملك الأفضل إلى القاهرة ، فخرج الملك المنصور بن العزيز للقائه ، فترجل له عمه الملك الأفضل ، ودخل بين يديه إلى دار الوزارة ، وهى كانت مقر السلطنة .

ولما وصل الملك الأفضل إلى بلبيس التقاه العسكر ، فتنكر منه فخر الدين جهاركس وفارقه ، وتبعه عدة من العسكر وساروا إلى الشام ، وكاتبوا الملك العادل وهو محاصر ماردين ، وأرسل الملك الظاهر إلى أخيه الملك الأفضل ، يشير عليه بقصد دمشق وأخذها من عمه الملك العادل ، وأن ينتهز الفرصة لاشتغال العادل بحصار ماردين ، فبرز الملك الأفضل من مصر وسار إلى دمشق ، وبلغ الملك العادل مسيره إلى دمشق ، فترك على حصار ماردين ولده الملك الكامل ، وسار العادل وسبق الأفضل ودخل دمشق قبل نزول الأفضل عليها بيومين .

ونزل الملك الأفضل على دمشق ثالث عشر شعبان من هذه السنة ، وزحف من الغد على البلد ، وجرى بينهم قتال ، وهجم بعض عسكره المدينة ، حتى وصل إلى باب البريد ولم يمدهم العسكر ، فتكاثر أصحاب الملك العادل ، وأخرجوهم من البلد ، ثم تخاذل العسكر فتأخر الأفضل إلى ذيل عقبة الكسوة ، ثم وصل إلى الملك الأفضل أخوه الظاهر صاحب حلب ، فعاد إلى مضايقة دمشق ، ودام الحصار عليها ، وقلت الأقوات إلى الملك العادل وعلى أهل البلد ، وأشرف الأفضل والظاهر على ملك دمشق ، وعزم العادل على تسليم البلد ، لولا ما حصل بين الأخوين الأفضل والظاهر من الخلف ، وخرجت السنة وهم على ذلك ، وكان منهم ماسنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر استيلاء الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقى الدين صاحب حماة على بارين

وفى شهر رمضان من هذه السنة ، قصد الملك المنصور صاحب حماة بارين ، وبها نواب عز الدين إبراهيم بن شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم وحاصرها ، وكان عز الدين إبراهيم مع الملك العادل محصوراً معه بدمشق ، ونصب الملك المنصور عليها المجانيق ، وانجرح الملك المنصور حال الزحف،ثم فتحها فى التاسع والعشرين من ذى القعدة ، وأقام ببارين مدة حتى أصلح أمورها .

ذكر وفاة يعقوب ملك المغرب

فى ربيع الآخر ، وقيل فى جمادى الأولى ، توفى أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، صاحب المغرب والأندلس بمدينة سلا ، وكانت ولايته خمس عشرة سنة ، وكان يتظاهر بمذهب الظاهرية ، وأعرض عن مذهب مالك ، وعمره ثمان وأربعون سنة ، وتلقب يعقوب المذكور بالمنصور ، ولما مات يعقوب ، ملك بعده ابنه محمد بن يعقوب ، وتلقب محمد بالناصر ، ومولد محمد المذكور سنة ست وسبعين وخمسمائة ، وعبد المؤمن وبنوه جميعهم كانوا يسمون بأمير المؤمنين .

وفى هذه السنة : رحل عسكر الملك العادل ، مع ابنه الملك الكامل عن حصار ماردين .

ذكر الفتنة بفَيْرُوزْكُوه

فى هذه السنة : كانت فتنة عظيمة فى عسكر غياث الدين ملك الغورية ، وهو بفَيْرُوزْكُوه ، وسببها أن الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن حسين الرازى ، الإمام المشهور ، كان قد قدم إلى غياث الدين ، فبالغ غياث الدين فى إكرامه واحترامه ، وبنى له مدرسة بهراة بالقرب من الجامع ، فعظم ذلك على الكرامية ، وهم كثيرون بهراة ، ومذهبهم التجسيم والتشبيه ، وكان الغورية كلهم كرامية ، فكرهوا فخر الدين ، لأنه شافعى ، وهو يناقض مذهبهم ، فاتفق أن فقهاء الكرامية والحنفية والشافعية حضروا بفيروزكوه عند غياث الدين للمناظرة ، وحضر فخر الدين الرازى ، والقاضى عبد المجيد بن عمر المعروف بابن القدوة ، وهو من الكرامية الهيصمية ، وله عندهم محل كبير لتزهده وعلمه ، فتكلم الرازى ، فاعترض عليه ابن القدوة ، وطال الكلام ، فقام غياث الدين ، فاستطال فخر الدين الرازى على ابن القدوة وشتمه وبالغ فى أذاه ، وابن القدوة لا يزيده على أن يقول : لا يفعل مولانا إلا وأخذ الله ، فصعب على الملك ضياء الدين ، وهو ابن عم غياث الدين وزوج ابنته ، وشكا إلى غياث الدين ، وذم فخر الدين الرازى ، ونسبه إلى الزندقة ومذهب الفلاسفة فلم يصغ إليه غياث الدين ، فلما كان الغد ، وعظ الناس ابن عمر بن القدوة بالجامع وقال بعد حمد الله ، والصلاة على نبيه محمد صلّى الله عليه وسلم : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾[1] ، أيها

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٥٣ .

الناس : إنَّا لا نقول إلا ماصحّ عندنا عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وأما علم أرسطو ، وكفريات ابن سينا ، وفلسفة الفارابى فلا نعلمها ، فلأى حال يُشتَم بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام يَذُبُّ عن دين الله وسنة نبيه ، وبكَى وبكَى الكرامية واستغاثوا وثار الناس من كل جانب ، وامتلأ البلد فتنة ، فبلغ ذلك السلطان ، فأرسل جماعة سكنوا الناس ووعدهم إخراج فخر الدين الرازى من عندهم ، وتقدم عليه بالعود إلى هراة فعاد إليها .

وفى هذه السنة : فى ربيع الأول ، توفى مجاهد الدين قايماز بقلعة الموصل ، وهو الحاكم فى دولة نور الدين أرسلان ، صاحب الموصل ، وقايماز المذكور هو الذى كان حاكما على مسعود والد أرسلان ، حتى قبض عليه مسعود ، ثم أخرجه بعد مدة ، وكان قايماز عاقلا أديبًا فاضلا فى الفقه على مذهب أبى حنيفة ، وبنى عدة جوامع وربط ومدارس .

وفيها : فارق غياث الدين ملك الغورية مذهب الكرامية ، وصار شافعى المذهب .

وفيها : توفى محمد بن عبد الملك بن زُهْر الأندلسىّ الأشبيلى ، وكان فاضلًا فى الأدب ، وكان طبيبًا ، وكان جده زهر وزيراً وفيلسوفاً ، وتوفى زهر المذكور فى سنة خمس وعشرين وخمسمائة بقرطبة ، وزُهْر بضم الزاى المعجمة ، وسكون الهاء ، وقد قيل فى ابن زهر :

قل للوبا أنت وابن زُهْـرٍ قد جُزْتُمَا الحدّ فى النكـايه
تـرفقا بـالـورى قليـلا فى واحـد منكما كفـايـه

ثم دخلت سنة ست وتسعين وخمسمائة :

والمِلكان : الأفضل والظاهر ، محاصران لمدينة دمشق ، واتفق وقوع الخلف بين الأخوين الأفضل والظاهر ، وسببه أنه كان للملك الظاهر مملوك يحبه اسمه أيبك ففقد ، ووجِد عليه الملك الظاهر وجْدًا عظيمًا ، وتوهم أنه دخل دمشق ، فأرسل من تكشف خبره ، واطلع الملك العادل وهو محصور على القضية ، فأرسل إلى الظاهر يقول له : إن محمود بن الشكرى أفسد مملوك ،واحمله إلى الأفضل أخيك ، فقبض الظاهر على ابن الشكرى ، فظهر المملوك عنده ، فتغير الظاهر على أخيه الأفضل ، وترك قتال العادل ، وظهر الفشل فى العسكر ، فتأخر الأفضل والظاهر عن دمشق ، وأقاما ببرج الصفر إلى أواخر صفر ، ثم سارا إلى رأس الماء ليقيما به إلى أن ينسلخ الشتاء ، ثم انثنى عزمهما ، وسار الأفضل إلى مصر ، والظاهر إلى حلب على القريتين ولما تفرقا خرج الملك العادل إلى دمشق ، وسار فى أثر الأفضل إلى مصر ، ولما وصل الأفضل إلى مصر ، تفرقت عساكره فى بلادهم لأجل الربيع ، فأدركه عمه العادل ، فخرج الأفضل بمن بقى عنده من العسكر ، وضرب معه مصافاً بالسايح ، فانكسر الأفضل وانهزم إلى القاهرة ، ونازل العادل القاهرة ثمانية أيام ، فأجاب الأفضل إلى تسليمها على أن

يعوض عنها ميافارقين وحانى وسميساط ، فأجابه العادل إلى ذلك ولم يف له به ، وكان دخول العادل إلى القاهرة فى الحادى والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة ، وقال ابن الأثير : كان دخول العادل إلى القاهرة يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر .

وفيها : توفى القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى ، فى سابع عشر ربيع الآخر ، وقيل : إن مولد القاضى الفاضل سنة ست وعشرين وخمسمائة ، فكان عمره نحو سبعين سنة .

ثم سافر الملك الأفضل إلى صرخد ، وأقام العادل بمصر على أنه أتابك الملك المنصور محمد ابن العزيز عثمان مدة يسيرة ، ثم أزال الملك المنصور محمد المذكور ، واستقل العادل فى السلطنة ، ولما استقرت المملكة للملك العادل ، أرسل إليه الملك المنصور صاحب حماة يعتذر إليه مما وقع منه بسبب أخذه بعرين من ابن المقدم ، فقبل الملك العادل عذره ، وأمره برد بعرين إلى ابن المقدم ، فاعتذر الملك المنصور عنها بقربها من حماة ، ونزل على منبج وقلعة نجم لابن المقدم عوضاً عن بعرين ، فرضى ابن المقدم بذلك ، لأنها خير من بعرين بكثير ، وتسلمها عز الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الملك بن المقدم ، وكان له أيضاً فامية وكفر طاب وخمس وعشرون ضيعة من المعرة .

وكذلك كاتب الملك الظاهر صاحب حلب عمه الملك العادل وصالحه ، وخطب له بحلب وبلادها ، وضرب السكة باسمه ، واشترط الملك العادل على صاحب حلب أن يكون خمسمائة فارس من خيار عسكر حلب فى خدمة الملك العادل ، كلما خرج إلى البيكار ، والتزم صاحب حلب بذلك .

وقصر النيل فى هذه السنة تقصيراً عظيماً ، حتى إنه لم يبلغ أربعة عشر ذراعًا .

ذكر وفاة خوارزم شاه

فى هذه السنة : فى العشرين من رمضان ، توفى خوارزم شاه تكش بن أرسلان بن أطسز بن محمد بن أنوشتكين صاحب خوارزم وبعض خراسان والرى وغيرها من البلاد الجبلية بشهرستانة ، وولى الملك بعده ابنه محمد بن تكش ، وكان لقب محمد – قطب الدين فغيره إلى علاء الدين ، وكان تكش عادلا حسن السيرة ، يعرف الفقه على مذهب أبى حنيفة والأصول ، ولما بلغ غياث الدين ملك الغورية موت خوارزم شاه ، ترك ضرب نوبته ثلاثة أيام ، وجلس للعزاء – مع ما كان بينهما من العداوة المستحكمة ، وهذا خلاف ما فعله بكتمر من الشماتة بالسلطان صلاح الدين ، ولما استقر محمد بن تكش فى المملكة ، هرب ابن أخيه هند وخان بن ملكشاه بن تكش إلى غياث الدين ملك الغورية ، يستنصره على عمه ، فأكرمه غياث الدين ووعده بالنصر .

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة :

لما دخلت هذه السنة ، كان بالديار المصرية الملك العادل ، وعنده ابنه الملك الكامل محمد ، وهو نائبه بها ، وبحلب الملك الظاهر ، وهو مجدٌّ فى تحصين حلب خوفاً من عمه الملك العادل ، وبدمشق الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل نائب أبيه بها ، وبالشرق الملك إبراهيم ابن الملك العادل ، وبميافارقين الملك الأوحد نجم الدين أيوب ابن الملك العادل .

وفى هذه السنة : توفى عز الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الملك بن المقدم ، وصارت البلاد بعده وهى منبج وقلعة نجم وفامية وكفر طاب لأخيه شمس الدين عبد الملك بن محمد بن عبد الملك بن المقدم ، ولما استقر شمس الدين عبد الملك بمنبج ، سار إليها الملك الظاهر صاحب حلب وحصرها وملك منبج ، وعصى عبد الملك بن المقدم بالقلعة فحصره ، ونزل عبد الملك بالأمان ، فاعتقله الملك الظاهر ، وملك قلعة منبج ، وبعد أن فرغ من منبج ، سار إلى قلعة نجم وبها نائب ابن المقدم فحصرها وملكها فى آخر رجب من هذه السنة .

وأرسل الملك الظاهر إلى الملكِ المنصور صاحب حماة ، يبذل له منبج وقلعة نجم على أن يصير معه على الملك العادل ، فاعتذر صاحب حماة باليمين التى فى عنقه للملك العادل ، فلما أيس الملك الظاهر منه ، سار إلى المعرة وأقطع بلادها ، واستولى على كفرطاب ، وكانت لابن المقدم ، ثم سار إلى فامية وبها قراقوش نائب ابن المقدم ، وأرسل الملك الظاهر فأحضر عبد الملك بن المقدم من حلب ، وكان معتقلا بها ، وأحضر معه أصحابه الذين اعتقلهم وضربهم قدام قراقوش ليسلمِ فامية ، فامتنع قراقوش فأمر الملك الظاهر بضرب عبد الملك بن المقدم ، فضرب ضرباً شديداً وبقى يستغيث ، فأمر قراقوش فضربت النقارات على قلعة فامية لئلا يسمع أهل البلد صراخه ، ولم يُسَلِّم القلعة ، فرحل عنها الملك الظاهر ، وتوجه إلى حماة وحاصرها لثلاث بقين من شعبان من هذه السنة ، ونزل شمالى البلد وشعث التربة التقوية وبعض البساتين ، وزحف من جهة الباب المغربى ، وقاتل قتالاً شديداً ثم زحف فى آخر شعبان من الباب الغربى والباب القبلى وباب العميان ، وجرى فيه قتال شديد ، وخرج الملك الظاهر بسهم فى ساقه ، واستمرت الحرب إلى أيام من رمضان ، فلما لم يحصل على غرض صَالَح الملك المنصور على مال يحمله إليه ، قيل إنه ثلاثون ألف دينارصورية ، ثم رحل الملك الظاهر إلى دمشق وبها الملك المعظم ابن الملك العادل ، فنازلها الملك الظاهر هو وأخوه الملك الأفضل ، وانضم إليهما فارس الدين ميمون القصرى صاحب نابلس ، ومن وافقه من الأمراء الصلاحية واستقرت القاعدة بين الأخوين الأفضل والظاهر أنهما متى ملكا دمشق يتسلمها الملك الأفضل ثم يسيران ويأخذان مصر من الملك العادل ، ويتسلمها الملك الأفضل ، وتسلم دمشق حينئذ إلى

الملك الظاهر صاحب حلب ، بحيث تبقى مصر للملك الأفضل ، ويصير الشام جميعه للملك الظاهر ، وكان قد تخلّف من أكابر الأمراء الصلاحية عنهما : فخر الدين جهاركس ، وزين الدين قراجا ، فأرسل الملك الأفضل وسلّم صرخد إلى زين الدين قراجا ، ونقل الملك الأفضل والدته وأهله إلى حمص عند شيركوه .

وبلغ الملك العادل حصار الأخوين دمشق ، فخرج بعساكر مصر وأقام بنابلس ، ولم يجسر على قتالهما واشتدت مضايقة الملكين الأفضل والظاهر لدمشق ، وتعلق النقابون بسورها ، فلما شاهد الملك الظاهر صاحب حلب ذلك ، حسد أخاه الملك الأفضل على دمشق وقال له : أريد أن تسلم إلى دمشق الآن ، فقال له الأفضل : إن حريمى حريمك ، وهم على الأرض ، وليس لنا موضع نقيم فيه ، وهب هذه البلد لك ، فاجعله لى إلى حين تملك مصر وتأخذه ، فامتنع الظاهر من قبول ذلك .

وكان قتال العسكر والأمراء الصلاحية ، إنما كان لأجل الأفضل ، فقال لهم الأفضل : إن كان قتالكم لأجلى فاتركوا القتال ، وصالحوا الملك العادل ، وإن كان قتالكم لأجل أخى الملك الظاهر وأنتم وإياه ، فقالوا : إنما قتالنا لأجلك ، وتخلوا عن القتال ، وأرسلوا وصالحوا الملك العادل ، وخرجت السنة وهم محاصرون دمشق ، وقد تفرقت العساكر ، فرحل الملك الظاهر عن دمشق فى أول المحرم سنة ثمان وتسعين ، وسار الأفضل إلى حمص .

وفى هذه السنة : أعنى سنة سبع وتسعين ، توفى عماد الدين الكاتب محمد بن عبد الله بن حامد الأصفهانى ، وكان فاضلا فى الفقه والأدب والخلاف والتاريخ ، وله النظم البديع ، والنثر الفائق ، وكتب لنور الدين ولصلاح الدين ، وله التصانيف الحسنة منها : البرق الشامى ، وخريدة القصر ، وكان مولده سنة تسع عشرة وخمسمائة ، وكان عمره نيفاً وسبعين سنة .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : سار الملك غياث الدين ملك الغورية بعساكره ، وأرسل استدعى أخاه شهاب الدين من غزنة ، فلحقه بعساكره أيضاً وسار غياث الدين إلى خراسان ، واستولى على ما كان لخوارزم شاه بخراسان ، ولما ملك غياث الدين مرو سلمها إلى هندوخان بن ملكشاه بن خوارزم شاه تكش الذى كان هرب من عمه محمد إلى غياث الدين ، ثم استولى غياث الدين على سرخس وطوس ونيسابور وغيرها ، ولما استقرت هذه البلاد لغياث الدين ، عاد إلى بلاده ، وتوجه أخوه شهاب الدين إلى بلاد الهند ، فغنم وفتح نهر والة ، وهى من أعظم بلاد الهند .

وفى هذه السنة : فى رمضان ، ملك ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان مدينة ملطية ، وكانت لأخيه معز الدين قيصر شاه بن قليج أرسلان ، ثم سار ركن الدين إلى أرزن الروم ، وكانت للملك محمد بن صليق ، وهو من بيت قديم ، ملكوا أرزن الروم من مدة طويلة ، فطلع صاحب أرزن الروم المذكور ليصالح ركن الدين ، فقبض عليه وأخذ البلد منه ، وكان محمد هذا آخر الملوك من أهل بيته .

وفيها : توفى سقمان بن محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق ، صاحب آمد وحصن كيفا ، سقط من سطح جوسق كان له بحصن كيفا فمات ، وكان له أخ اسمه محمود بن محمد ، وكان سقمان يبغضه ، فأبعده إلى حصن منصور ، وكان قد جعل سقمان ولى عهده مملوكه إياس ، وكان يحبه حبًّا شديدًا ، وأوصى له بالملك بعده ، فلما مات سقمان استولى إياس على البلاد ، فلم ينتظم له حال ، وكاتبوا أخاه محموداً ، فحضر وملك بلاد أخيه سقمان .

وفيها : كان بمصر غلاء شديد بسبب نقص النيل .

وفيها : كان بالجزيرة والشام والسواحل زلزلة عظيمة ، فهدمت مدنًا كثيرة .

وفيها : فى رمضان ، توفى أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى الحنبلى ، الواعظ المشهور وتصانيفه مشهورة ، وكان كثير الوقيعة فى العلماء ، وكان مولده سنة عشر وخمسمائة .

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة :

فى هذه السنة : بعد رحيل الملك الأفضل والظاهر عن دمشق كما ذكرنا ، قدم إليها الملك العادل ، وكان قد سار ميمون القصرى مع الملك الظاهر فأقطعه أعزاز .

وفيها : خرب الملك الظاهر قلعة منبج خوفاً من انتزاعها منه ، وأقطع منبج بعد ذلك عماد الدين أحمد بن سيف الدين على بن أحمد المشطوب .

وفيها : أرسل قراقوش نائب عبد الملك بن محمد بن عبد الملك بن المقدم بفامية إلى الملك الظاهر ، يبذل له تسليم فامية ، بشرط أن يعطى شمس الدين عبد الملك بن المقدم إقطاعاً يرضاه ، فأقطعه الملك الظاهر الراوندان وكفر طاب ومفردة المعرة وهو عشرون ضيعة معينة من بلاد المعرة وتسلّم فامية ، ثم إن عبد الملك بن المقدم عصى بالراوندان فسار إليه الملك الظاهر واستنزله منها وأبعده ، فلحق ابن المقدم بالملك العادل فأحسن إليه .

وفيها : سار الملك العادل من دمشق ووصل إلى حماة ، ونزل على تل صفرون ، وقام الملك المنصور صاحب حماة بجميع وظائفه وكلفه ، وبلغ الظاهر صاحب حلب وصول عمه العادل إلى حماة بنية قصده ومحاصرته بحلب ، فاستعد للحصار بحلب ، وراسل عمه ولا طفه وأهدى

إليه ، ووقعت بينهما مراسلات ، ووقع الصلح ، وانتزعت منه مفردة المعرة ، واستقرت للملك المنصور صاحب حماة ، وأخذت من الملك الظاهر أيضاً قلعة نجم ، وسلمت إلى الملك الأفضل ، وكان له سروج وسميساط ، وسلم الملك العادل حران وما معها لولده الملك الأشرف مظفر الدين موسى ، وسيره إلى الشرق ، وكان بميافارقين الملك الأوحد ابن الملك العادل ، وبقلعة جعبر الملك الحافظ نور الدين أرسلان شاه بن الملك العادل ، ولما استقر الصلح بين الملك العادل والظاهر ، رجع الملك العادل إلى دمشق وأقام بها ، وقد انتظمت الممالك الشامية والشرقية والديار المصرية كلها فى سلك ملكه وخطب له على منابرها ، وضربت السكة فيها باسمه .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : عاد خوارزم شاه محمد بن تكش ، واسترجع البلاد التى أخذها الغورية من خراسان إلى ملكه .

وفيها : توفى هبة الله بن على بن مسعود بن ثابت المُنَسْتيرى بضم الميم وفتح النون وسكون السين المهملة وكسر التاء المثناة من فوقها وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء ومُنَسْتَير : بليدة بأفريقية ، وكان هبة الله المذكور عالى الإسناد ، ولم يكن فى عصره من هو فى درجته ، سمع إبراهيم بن حاتم الأسدى ، وسمع جماعة من الأكابر ، وسمع الناس على هبة الله المذكور وسافروا إليه من البلاد لعلو إسناده ، وكان جده مسعود قد قدم من مُنَسْتير إلى بوصير ، فعرف هبةالله المذكور بالبوصيرى ، وكانت ولادته سنة ست وخمسمائة .

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة :

والملك العادل مقيم بدمشق .

وفيها : فى المحرم ، توفى فلك الدين سلطان ، أخو الملك العادل لأمه ، وهو الذى تنسب إليه المدرسة الفلكية بدمشق .

ذكر الحوادث باليمن

كان قد تملك اليمن ، الملك المعز إسماعيل بن سيف الإسلام بن طغتكين بن أيوب ، وكان فيه هوج وخبط ، فادعى أنه قرشى ، وأنه من بنى أمية ، ولبس الخضرة ، وخطب بنفسه ،

ولبس ثياب الخلافة فى ذلك الزمان ، وكان طول الكم نحو عشرين شبراً ، وخرج عن طاعته جماعة من مماليك أبيه ، واقتتلوا معه ، وانتصر عليهم ، ثم اتفق معهم جماعة من الأمراء الأكراد ، وقتلوا المعز إسماعيل ، وأقاموا فى مملكة اليمن أخا له صغيراً ، وسموه الناصر ، وبقى مدة ، وأقام بأتابكيته مملوك والده وهو سيف الدين سنقر ، ثم مات سنقر بعد أربع سنين وتزوج أم الناصر أمير من أمراء الدولة يقال له غازى بن جبريل ، وقام بأتابكية الناصر ، ثم سمّ الناصر فى كوز فقاع على ما قيل ، وبقى غازى متملكاً للبلاد ، ثم قتله جماعة من العرب بسبب قتله للناصر بن طغتكين ، وبقيت اليمن خالية بغير سلطان ، فتغلبت أم الناصر المذكور على زبيد ، وأحرزت عندها الأموال وكانت تنتظر وصول أحد من بنى أيوب لتتزوج به وتملكه البلاد ، وكان للملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ولد اسمه سعد الدين شاهنشاه ، وكان له ابن اسمه سليمان ، فخرج سليمان بن شاهنشاه بن عمر فقيراً يحمل الرَّكوة على كتفه ، ويتنقل مع الفقراء من مكان إلى مكان ، وكان قد أرسلت أم الناصر بعض غلمانها إلى مكة حرسها الله تعالى فى موسم الحج ليأتيها بأخبار مصر والشام ، فوجد غلمانها سليمان المذكور ، فأحضروه إلى اليمن ، فاستحضرته أم الناصر وخلعت عليه وملكته اليمن ، فملأ اليمن ظلماً وجوراً ، واطرح زوجته التى ملكته البلاد وأعرض عنها ، وكتب إلى السلطان الملك العادل وهو عم جده كتاباً جعل فى أوله أنه من سليمان ، وأنه بسم الله الرحمن الرحيم فاستغل الملك العادل عقله ، ثم كان من سليمان المذكور ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفى هذه السنة : أرسل السلطان الملك العادل إلى ولده الملك الأشرف ، وأمره بحصار ماردين فحصرها وضايقها ، ثم سعى الملك الظاهر إلى الملك العادل فى الصلح ، فأجاب إلى أن يحمل إليه صاحب ماردين مائة ألف وخمسين ألف دينار ، ويخطب له ببلاده ، ويضرب السكة باسمه ، ويكون بخدمته متى طلبه ، فأجيب إلى ذلك واستقر الصلح عليه .

وفيها : أخرج الملك العادل الملك المنصور محمد بن العزيز من مصر إلى الشام ، فسار بوالدته وإخوته ، وأقام بحلب عند عمه الملك الظاهر .

وفيها : سار الملك المنصور صاحب حماة إلى بعرين مرابطًا للفرنج وأقام بها ، وكتب الملك العادل إلى صاحب بعلبك وإلى صاحب حمص بإنجاده فأنجداه ، واجتمعت الفرنج من حصن الأكراد وطرابلس وغيرها وقصدوا الملك المنصور ببعرين واتقعوا معه فى ثالث شهر رمضان من هذه السنة ، واقتتلوا فانهزم الفرنج وقتل وأسر من خيرتهم جماعة ، وكان يوماً مشهوداً ، وفى ذلك يقول بهاء الدين أسعد بن يحيى السنجارى قصيدة من جملتها :

مالذة العيش إلا صوت معمعة　　ينال فيها المنى بالبيض والأسَل
يا أيها الملك المنصور نصح فتى　　لم يلوه عن وفاء كثرة العذل

اعزمْ ولا تترك الدنيا بلا ملك ... وجد فالملك محتاج إلى رجل
يا أوحد العصر ياخير الملوك ومن ... فاق البرية من حافٍ ومنتعل

ثم خرج من حصن الأكراد والمرقب الاسبتار ، وانضم إليهم جموع من السواحل ، واتقعوا مع الملك المنصور صاحب حماة وهو نازل ببعرين فى الحادى والعشرين من شهر رمضان من هذه السنة بعد الوقعة الأولى بثمانية عشر يوماً ، فانتصر ثانيًا ، وانهزمت الفرنج هزيمة شنيعة ، وأسر الملك المنصور وقتل منهم عدة كثيرة ، ومدَحَ الملك المنصور بسبب هذه الوقعة سالم بن سعادة الحمصى بقصيدة منها :

أمر اللواحظ أن تفوق أسهما ... ريم برامة مارَنَا حتى رمى
فتانة بالسحر بل فتّاكة ... ما جار قاضيهن حين تحكما

ومنها :

أصبحت فيها مغرماً كمحمد ... لمَّا غدا بالأريحية مغرما

ومنها :

وشننت منتقمًا بساخل بحرها ... جيشاً حكى البحر الخضم عرمرما
أسدلت فى الآفاق من هبواته ... ليلًا وأطلعت الأسنة أنجما

وفى هذه السنة : ولد الملك المظفر تقى الدين محمود ابن الملك المنصور محمد صاحب حماة من الملكة خاتون ، بنت السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، وسمى عمر ، وإنما سمى محمودًا بعد ذلك ، وكانت ولادته بقلعة حماة ظهر يوم الثلاثاء رابع عشر رمضان من هذه السنة .

وفى هذه السنة : أرسل الملك العادل وانتزع ما كان بيد الملك الأفضل ، وهى رأس عين وسروج وقلعة نجم ، ولم يترك بيده غير سميساط فقط ، فأرسل الملك الأفضل والدته ، فدخلت على الملك المنصور صاحب حماة ، ليرسل معها من يشفع فى الملك الأفضل عند الملك العادل فى إبقاء ما كان بيده ، وتوجهت أم الملك الأفضل ، وتوجه معها من حماة القاضى زين الدين بن الهندى إلى الملك العادل ، فلم يجبها الملك العادل ورجعت خائبة .

قال عز الدين بن الأثير مؤلف الكامل : وقد عوقب البيت الصلاحى بمثل ما فعله والدهم السلطان صلاح الدين ، لمَّا خرجت إليه نساء بيت الأتابك ، ومن جملتهن بنت نور الدين الشهيد يشفعن فى إبقاء الموصل على عز الدين مسعود فردهن ولم يجب إلى سؤالهن ، ثم ندم رحمه الله تعالى على ردهنّ ، فجرى للملك الأفضل ابن السلطان صلاح الدين مع عمه مثل ذلك ، ولمَّا جرى ذلك أقام الملك الأفضل بسميساط ، وقطع خطبة عمه الملك العادل ، وخطب للسلطان ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان بن مسعود السلجوقى صاحب بلاد الروم .

ذكر وفاة غياث الدين ملك الغورية

وفى هذه السنة : فى جمادى الأولى ، توفى غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام بن الحسين الغورى ، صاحب غزنة وبعض خراسان وغيرها ، وكان أخوه شهاب الدين بطوس عازمًا على قصد خوارزم ، وخلف غياث الدين من الولد ابنًا اسمه محمود ، ولقب غياث الدين بلقب والده ، ولم يحسن شهاب الدين الخلافة على ابن أخيه ، ولا على غيره من أهله ، وكان لغياث الدين زوجة يحبها ، وكانت مغنية ، فقبض عليها شهاب الدين بعد موت أخيه غياث الدين ، وضربها ضربًا مُبَرِّحًا ، وأخذ أموالها ، وكان غياث الدين مظفرًا منصورًا لم تنهزم له راية قط ، وكان له دهاء ومكر ، وكان حسن الاعتقاد كثير الصدقات ، وكان فيه فضل غزير وأدب ، مع حسن خط وبلاغة ، وكان ينسخ المصاحف بخطه ويوقفها فى المدارس التى بناها ، وكان على مذهب الكرامية ، ثم تركه وصار شافعيًّا .

ذكر غير ذلك

وفى هذه السنة : استولى الكرج على مدينة دوين من أذربيجان ونهبوها ، وقتلوا أهلها ، وكانت هى وجميع أذربيجان للأمير أبى بكر بن البهلوان ، وكان مشغولا ليلًا ونهاراً بشرب الخمر ولا يلتفت إلى تدبير مملكته ، ووبخه أمراؤه ونوابه على ذلك فلم يلتفت .

وفيها : توفيت زمرد أم الخليفة الإمام الناصر ، وكانت كثيرة المعروف .

ثم دخلت سنة ستمائة : والملك العادل بدمشق .

وفيها : كانت الهدنة بين الملك المنصور صاحب حماة وبين الفرنج .

وفيها : نازل ابن لاوون ملك الأرمن أنطاكية ، فتحرك الملك الظاهر صاحب حلب ، ووصل إلى حارم ، فرحل ابن لاوون عن أنطاكية على عقبه .

وفيها : خطب قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى بن مودود صاحب سنجار للملك العادل ببلاده ، وانتمى إليه ، فصعب على ابن عمه نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود ، وقصد نصيبين وهى لقطب الدين ، واستولى على مدينتها ، فاستنجد قطب الدين بالملك الأشرف بن العادل ، فسار إليه ، واجتمع معه أخوه الملك الأوحد صاحب ميافارقين ،

والتقى الفريقان بقرية يقال لها بوشرة ، فانهزم نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل هزيمة قبيحة ، ودخل إلى الموصل وليس معه غير أربعة أنفس ، وكانت هذه الواقعة أول ما عرفت من سعادة الملك الأشرف بن العادل ، فإنه لم ينهزم له راية بعد ذلك ، واستقرت بلاد قطب الدين محمد بن زنكى عليه ، ووقع الصلح بينهم فى أول سنة إحدى وستمائة .

وفيها : اجتمع الفرنج لقصد بيت المقدس ، فخرج السلطان الملك العادل من دمشق وجمع العساكر ونزل على الطور فى قبالة الفرنج ، ودام ذلك إلى آخر السنة .

وفيها : استولت الفرنج على قسطنطينية ، وكانت قسطنطينية بيد الروم من قديم الزمان ، فلما كانت هذه السنة ، اجتمعت الفرنج وقصدتها فى جموع عظيمة وحاصروها ، فملكوها وأزالوا يد الروم عنها ، ولم تزل بأيدى الفرنج إلى سنة ستين وستمائة ، فقصدتها الروم واستعادوها من الفرنج .

وفيها : توفى السلطان ركن الدين بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن يبغو أرسلان بن سلجوق سلطان بلاد الروم فى سادس ذى القعدة حسبما قدمنا ذكره فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، وكان مرضه بالقولونج ، وكان قبل مرضه بخمسة أيام قد غدر بأخيه صاحب أنكوريه « وهى أنقرة » ، وكان ركن الدين المذكور يميل إلى مذهب الفلاسفة ، ويحسن إلى طائفتهم ويقدمهم ، ولما مات ركن الدين ملك ولده قليج أرسلان بن سليمان وكان صغيراً ، فلم يستتبت أمره وكان ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفيها : كان بين خوارزم شاه محمد بن تكش ، وبين شهاب الدين ملك الغورية قتال ، انتصر فيه ملك الغورية ، واستنجد خوارزم شاه بالخطا فساروا واتقعوا مع شهاب الدين ملك الغورية فهزموه ، وشاع ببلاده أن شهاب الدين قتل ، فاختلفت مملكته ، وكثر المفسدون ثم إنه ظهر ووصل إلى غزنة ، واستقر فى ملكه ، وتراجعت الأمور إلى ما كانت عليه .

وفيها : قتل كلجا مملوك البهلوان ، وكان قد ملك الرى وهمدان وبلاد الجبل ، قتل خشداشة أيدغمش مملوك البهلوان وتملك موضعه ، وأقام أيدغمش ابن أستاذه أزبك بن البهلوان فى الملك ، وليس لأزبك غير الاسم والحكم لأيدغمش .

وفيها : استولى إنسان اسمه محمود بن محمد الحميرى على ظفار ومرباط وغيرهما من حضر موت .

وفيها : خرج أسطول للفرنج فاستولوا على مدينة فوه من الديار المصرية فنهبوها خمسة أيام .

وفيها : كانت زلزلة عظيمة عمت مصر والشام والجزيرة وبلاد الروم وصقلية وقبرس والعراق وغيرها وخربت سور مدينة صور .

ثم دخلت سنة إحدى وستمائة :

فى هذه السنة : كانت الهدنة بين الملك العادل والفرنج ، وسلم إلى الفرنج يافا ، ونزل عن مناصفات لدّ والرملة ، ولما استقرت الهدنة أعطى العساكر دستوراً ، وسار العادل إلى مصر ، وأقام بدار الوزارة .

وفيها : أغارت الفرنج على حماة ، ووصلوا إلى قرب حماة إلى قرية الرقيطا ، وامتلأت أيديهم من المكاسب ، وأسروا من أهل حماة شهاب الدين بن البلاعى ، وكان فقيهًا شجاعًا ، تولى برحماة مرة وسلمية أخرى ، وحمل إلى طرابلس فهرب وتعلق بجبال بعلبك ، ووصل إلى أهله بحماة سالما ، ثم وقعت الهدنة بين الملك المنصور صاحب حماة وبين الفرنج .

وفيها : بعد الهدنة ، توجه الملك المنصور صاحب حماة إلى مصر ، وكان عنده استشعار من السلطان الملك العادل ، فلما وصل إليه بالقاهرة ، أحسن إليه إحساناً كثيراً ، وأقام فى خدمته شهوراً ، ثم خلع عليه وعلى أصحابه ، وعاد إلى حماة .

وفيها : ملك السلطان غياث الدين كَيْخَسْرُو بن قليج أرسلان بلاد الروم ، وكان لما تغلب أخوه ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان على البلاد ، هرب كَيْخَسْرُو المذكور إلى الملك الظاهر صاحب حلب ، ثم تركه وسار إلى قسطنطينية ، فأحسن إليه صاحبها ، وأقام بالقسطنطينية إلى أن مات أخوه ركن الدين سليمان ، وتولى ابنه قليج أرسلان ، فسار كَيْخِسْرُو من قسطنطينية ، وأزال أمر ابن أخيه ، وملك بلاد الروم ، واستقر أمره .

وفيها : كانت الحرب بين الأمير قتادة الحسينى أمير مكة ، وبين الأمير سالم بن قاسم الحسينى أمير المدينة ، وكانت الحرب بينهما سجالاً .

ثم دخلت سنة اثنتين وستمائة :

والملك العادل بالديار المصرية والممالك بحالها .

ذكر قتل ملك الغورية
شهاب الدين

فى هذه السنة : أول ليلة من شعبان ، قتل شهاب الدين أبو المظفر محمد بن سام بن الحسين الغورى ملك غزنة وبعض خراسان ، بعد عوده من لهاوور ، بمنزل يقال له دمبل ، قبل

صلاة العشاء ، وثب عليه جماعة وهو بخركاته ، وقد تفرق الناس عنه لأماكنهم فقتلوه بالسكاكين ، قيل إنهم من الكوكير : وهم طائفة من أهل الجبال مفسدون ، كان شهاب الدين قد فتك فيهم ، وقيل إنهم من الإسماعيلية ، فإن شهاب الدين أيضاً كان كثير الفتك فيهم ، واجتمع حرس شهاب الدين ، فقتلوا أولئك الذين قتلوا شهاب الدين عن آخرهم .

وكان شهاب الدين شجاعًا ، كثير الغزو ، عادلاً فى الرعية ، وكان الإمام فخر الدين الرازى يعظه فى داره ، فحضر يومًا وعظه وقال فى آخر كلامه : يا سلطان لا سلطانك يبقى ولا تلبيس الرازى ، فبكى شهاب الدين حتى رحمه الناس ، ولمّا قتل شهاب الدين ، كان صاحب باميان بهاء الدين سام بن شمس الدين محمد بن مسعود ، عم غياث الدين وشهاب الدين المذكور ، فسار بهاء الدين سام ليتملك غزنة ، ومعه ولداه علاء الدين محمد وجلال الدين ابنا سام بن محمد بن مسعود بن الحسينى ، فأدركت بهاء الدين سام الوفاة قبل أن يصل إلى غزنة ، وعهد بالملك إلى ابنه علاء الدين محمد ، فأتم علاء الدين وأخوه جلال الدين السير إلى غزنة ودخلاها ، وتملكها علاء الدين .

وكان لغياث الدين ملك الغورية مملوك يقال له تاج الدين يلدز ، وكانت كرمان إقطاعة ، وهو كبير فى الدولة ومرجع الأتراك إليه ، فسار يلدز إلى غزنة وهزم عنها علاء الدين محمد بن بهاء الدين سام وأخاه جلال الدين ، واستولى يلدز على غزنة ، ثم إن علاء الدين وجلال الدين ولدى بهاء الدين سام سارا إلى باميان وجمعا العساكر وعادا إلى غزنة ، فقاتلهما يلدز فانتصرا عليه ، وانهزم يلدز إلى كرمان ، واستقر علاء الدين محمد بن بهاء الدين سام ومعه بعض العسكر فى ملك غزنة ، وعاد أخوه جلال الدين فى باقى العسكر إلى باميان .

ثم إن يلدز لما بلغه مسير جلال الدين فى باقى العسكر إلى باميان ، وتأخر علاء الدين بغزنة ، جمع العساكر من كرمان وغيرها وسار إلى غزنة ، وبلغ علاء الدين محمد بن بهاء الدين سام ذلك ، فأرسل إلى أخيه جلال الدين وهو بباميان يستنجده ، وسار يلدز وحصر علاء الدين بغزنة ، وسار جلال الدين فلما قارب غزنة رحل يلدز إلى طريقه واقتتلا ، فانهزم عسكر جلال الدين وأخذه يلدز أسيراً ، فأكرمه يلدز واحترمه ، وعاد إلى غزنة فحصر علاء الدين بها ، وكان عنده بغزنة هندوخان بن ملكشاه بن خوارزم شاه تكش ، فاستنزلهما يلدز بالأمان ثم قبض على علاء الدين وعلى هندوخان وتسلم غزنة .

وأما غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد ملك الغورية ، فإنه لما قتل عمه شهاب الدين كان ببست ، فسار إلى فيروز كوه وتملكها ، وجلس فى دست أبيه غياث الدين ، وتلقب بألقابه ، وفرح به أهل فيروزكوه ، وسلك طريقة أبيه فى الإحسان والعدل ، ولما استقل يلدز

بغزنة ، وأسر جلال الدين وعلاء الدين ابنى سام ، كتب إلى غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد بن سام بن الحسين بالفتح ، وأرسل إليه الأعلام وبعض الأسرى .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : توفى الأمير مجير الدين طاشتكين أمير الحج ، وكان قد ولّاه الخليفة على جميع خورستان ، وكان خيرًا صالحًا ، وكان يتشيع .

وفيها : تزوج أبو بكر بن البهلوان بابنة ملك الكرج ، وذلك لاشتغاله بالشرب عن تدبير المملكة ، فعدل إلى المصاهرة والهدنة ، فكف الكرج عنه .

ثم دخلت سنة ثلاث وستمائة :

فى هذه السنة : سار الملك العادل من مصر إلى الشام ، ونازل فى طريقه عكا فصالحه أهلها على إطلاق جمع من الأسرى ، ثم وصل إلى دمشق ، ثم سار منها ونزل بظاهر حمص على بحيرة قدس ، واستدعى بالعساكر فأتته من كل جهة ، وأقام على البحيرة حتى خرج رمضان ، ثم سار ونازل حصن الأكراد ، وفتح برج أعناز ، وأخذ منه سلاحًا ومالاً وخمسمائة رجل ، ثم سار ونازل طرابلس ، ونصب عليها المجانيق ، وعاث العسكر فى بلادها وقطع قناتها ، ثم عاد فى أواخر ذى الحجة إلى بحيرة قدس بظاهر حمص .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : أرسل غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد ملك الغورية يستميل يلدز مملوك أبيه ، المستولى على غزنة فلم يجبه يلدز إلى ذلك ، وطلب يلدز من غياث الدين أن يعتقه ، فأحضر الشهود وأعتقه ، وأرسل مع عتاقه هدية عظيمة ، وكذلك أعتق أيبك المستولى على بلاد الهندس ، وأرسل نحو ذلك ، فقبل كل منهما ذلك ، وخطب له أيبك ببلاد الهند التى تحت يده ، وأما يلدز فلم يخطب له ، وخرج بعض العساكر عن طاعة يلدز لعدم طاعته لغياث الدين .

وفيها : فى ثالث شعبان ، ملك غياث الدين كَيْخِسْرُو صاحب بلاد الروم أنطالية باللام ، وهى مدينة للروم على ساحل البحر .

وفيها : قبض عسكر خلاط على صاحبها ولد بكتمر ، وكان أتابك قتلغ مملوك شَاهِرْ مَنّ ، فقبض عليه ابن بكتمر ، فثارت عليه أرباب الدولة وقبضوه وملكوا بلبان مملوك شَاهِرْمَنّ بن سقمان صاحب خلاط حسبما تقدم ذكره فى سنة أربع وتسعين وخمسمائة .

ثم دخلت سنة أربع وستمائة :

والملك العادل نازل على بحيرة قدس ، ثم وقع الهدنة بينه وبين صاحب طرابلس ، وعاد الملك العادل إلى دمشق وأقام بها .

ذكر استيلاء الملك الأوحد نجم الدين أيوب ابن الملك العادل على خلاط

فى هذه السنة : ملك الملك الأوحد أيوب ابن الملك العادل خلاط ، وكان صاحب خلاط بلبان حسبما قدمنا ذكره فى سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، فسار الملك الأوحد من ميافارقين ، وملك مدينة موش ، ثم اقتتل هو وبلبان صاحب خلاط ، فانهزم بلبان واستنجد بصاحب أرزن الروم وهو مغيث الدين طغريل شاه بن قليج أرسلان السلجوقى ، فسار طغريل شاه ، واجتمع به بلبان ، فهزما الملك الأوحد ثم غدر طغريل شاه ببلبان ، فقتله غدرًا ليملك بلاده ، وقصد خلاط فلم يسلموها إليه ، وقصد مَنَازْكِرْد[1] فلم تسلم إليه ، فرجع طغريل شاه إلى بلاده ، فكاتب أهل خلاط الملك الأوحد فسار إليهم ،وتسلم خلاط وبلادها بعد إياسه منها ، واستقر ملكه بها .

وفى هذه السنة : لما استقر الملك العادل بدمشق ، وصل إليه التشريف من الخليفة الإمام الناصر صحبة الشيخ شهاب الدين السهروردى ، فبالغ الملك العادل فى إكرام الشيخ ، والتقاه إلى القصير ، ووصل من صاحبى حلب وحماة ذهب ، لينثر على الملك العادل إذا لبس الخلعة ، فلبسها الملك العادل ، ونثر ذلك الذهب ، وكان يومًا مشهودًا .

والخلعة : جبة أطلس أسود بطراز مذهب ، وعمامة سوداء بطراز مذهب ،وطوق ذهب مجوهر ، تطوّق به الملك العادل ،وسيف جميع قرابه ملبس ذهبًا تقلّد به ؛ وحصان أشهب بمركب ذهب ، ونشر على رأسه علم أسود مكتوب فيه بالبياض اسم الخليفة ، ثم خلع رسول الخليفة

---

(١) مَنَازْكِرْد : هكذا ينطقها أهلها مَنَازْكِرْد بالكاف ، مع أن المشهور فى المعاجم أنها اسمها مَنَازْجِرْد ، بعد الألف زاى ثم جيم مكسورة وراء ساكنة ودال ، انظر : معجم البلدان لياقوت الحموى ج ٥ ص ٢٠٢ .

على كل واحد من الملك الأشرف ، والملك المعظم ابنى الملك العادل عمامة سوداء وثوبًا أسود واسع الكم ، وكذلك على الوزير صفى الدين بن شكر .

وركب الملك العادل وولداه ووزيره بالخلع ودخل القلعة ، وكذلك وصل إلى الملك العادل مع الخلعة تقليد بالبلاد التى تحت حكمه ، وخوطب الملك العادل فيه « شاهنشاه ملك الملوك خليل أمير المؤمنين » ، ثم توجه الشيخ شهاب الدين إلى مصر ، فخلع على الملك الكامل بها ،وجرى فيها نظير ما جرى فى دمشق من الاحتفال ، ثم عاد السهروردى إلى بغداد مكرمًا معظمًا .

وفى هذه السنة : اهتم الملك العادل بعمارة قلعة دمشق ، وألزم كل واحد من ملوك أهل بيته بعمارة برج من أبراجها .

ذكر قتل خوارزم شاه مع الخطا بما وراء النهر

فى هذه السنة : كاتبت ملوك ما وراء النهر مثل ملك سمرقند وملك بخارى خوارزم شاه ، يشكون ما يلقونه من الخطا ، ويبذلون له الطاعة والخطبة والسكة ببلادهم إن دفع الخطا عنهم ، فعبر علاء الدين محمد خوارزم شاه بن تكش نهر جيحون ، واقتتل مع الخطا ، وكان بينهم عدة وقائع ، والحرب بينهم سجال ، واتفق فى بعض الوقعات أن عسكر خوارزم شاه انهزم ، وأخذ خوارزم شاه محمد أسيرًا ، وأسر معه شخص من أصحابه يقال له فلان ابن شهاب الدين مسعود ، ولم يعرفهما الخطاى الذى أسرهما ، فقال ابن مسعود لخوارزم شاه : دع عنك المملكة وادّع أنك غلامى واخدمنى لعلّى أحتال فى خلاصك ، فشرع خوارزم شاه يخدم ابن مسعود ويقلعه قماشه وخفه ويلبسه ويخدمه ، فسأل الخطاى ابن مسعود : مَنْ أنتَ ؟ قال : أنا فلان ، فقال له الخطاى : لولا أخاف من الخطا أطلقتك ، فقال له ابن مسعود إنى أخشى أن ينقطع خبرى عن أهلى فلا يعلمون بحياتى ، وأشتهى أن أعلمهم بحالى لئلا يظنوا موتى ،ويتقاسموا مالى ، فأجابه الخطاى إلى ذلك ،فقال ابن مسعود أشتهى أن أبعث بغلامى هذا مع رسولك ليصدقوه ، فأجابه إلى ذلك ، وراح خوارزم شاه مع ذلك الشخص ، حتى قرب من خوارزم ، فرجع الخطاى واستقر خوارزم شاه فى ملكه ، وتراجع إليه عسكره .

وكان لخوارزم شاه أخ يقال له على شاه بن تكش ، وكان نائب أخيه بخراسان ، فلما بلغه عدم أخيه فى الوقعة مع الخطا دعا إلى نفسه بالسلطنة ، واختلفت الناس بخراسان ، وجرى فيها فتن كثيرة ، فلما عاد خوارزم شاه محمد إلى ملكه ، خاف أخوه على شاه ، فسار إلى غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد ملك الغورية ، فأكرمه غياث الدين محمود ، وأقام على شاه عنده بفيروزكوه .

ذكر قتل غياث الدين محمود وعلى شاه

ولما استقر خوارزم شاه فى ملكه ، وبلغه ما فعله أخوه على شاه ، أرسل عسكرًا إلى قتال غياث الدين محمود الغورى ، فسار العسكر إلى فَيْرُوزْكوه مع مقدم يقال له أمير ملك ، فسار إلى فيروزكوه ، وبلغ ذلك محمودًا ، فأرسل يبذل الطاعة ويطلب الأمان ، فأعطاه أمير ملك الأمان ، فخرج غياث الدين محمود من فيروزكوه ومعه على شاه ، فقبض عليهما أمير ملك ، وأرسل يعلم خوارزم شاه بالحال ، فأمره بقتلهما فقتلهما فى يوم واحد ، واستقامت خراسان كلها لخوارزم شاه محمد بن تكش ، وذلك فى سنة خمس وستمائة ، وهذا غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد بن سام بن الحسين هو آخر الملوك الغورية ، وكانت دولتهم من أحسن الدول ، وكان محمود هذا كريمًا عادلاً رحمة الله عليه .

ثم إن خوارزم شاه محمدًا – لما خلا سرّه من جهة خراسان ، عبر النهر وسار إلى الخطا ، وكان وراء الخطا فى حدود الصين التتر ، وكان ملكهم حينئذ يقال له كشلى خان ، وكان بينه وبين الخطا عداوة مستحكمة ، فأرسل كل من كشلى خان ومن الخطا يسأل خوارزم شاه أن يكون معه على خصمه ، فأجابهما خوارزم شاه بالمغالطة وانتظر ما يكون بينهما ، فاتقع كشلى خان والخطا ، فانهزمت الخطا ، فمال عليهم خوارزم شاه وفتك فيهم ، وكذلك فعل كشلى خان بهم ، فانقرضت الخطا ، ولم يبق منهم إلا من اعتصم بالجبال ، أو استسلم وصار فى عسكر خوارزم شاه .

ثم دخلت سنة خمس وستمائة :

والملك العادل بدمشق ، وعُنده ولداه الملك الأشرف والمعظم .

ذكر قدوم الأشرف إلى حلب متوجهًا إلى بلاده الشرقية

فى هذه السنة : توجه الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل من دمشق راجعًا إلى بلاده الشرقية ، ولما وصل إلى حلب تلقاه صاحبها الملك الظاهر ، وأنزله بالقلعة وبالغ فى

إكرامه ،وقام للأشرف ولجميع عسكره بجميع ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب والحلوى والعلوفات ، وكان يحمل إليه فى كل يوم خلعة كاملة وهى غِلَالَة وقَبَاء وسراويل وكُمَّة وفروة وسيف وحصان ومنطقة ومنديل وسكين ودلكش ، وخمس خلع لأصحابه ، وأقام على ذلك خمسة وعشرين يومًا ، وقدم له تقدمة وهى مائة ألف درهم ومائة بقجة مع مائة مملوك ، فمنها عشر بقج فى كل واحدة منها ثلاثة أثواب أطلس وثوبان خطاى ، وعلى كل بقجة جلد قندس كبير ، ومنها عشر فى كل واحدة منها عشرة أثواب عتابى خوارزمى ، وعلى كل بقجة جلد قندس كبير ، ومنها عشر فى كل واحدة خمسة أثواب عتابى بغدادى وموصلى ، وعليها عشرة جلود قندس صغار ومنها عشرون فى كل واحدة خمس قطع مرسوسى وديبقى ، ومنها أربعون فى كل واحدة منها خمسة أقبية وخمس كمام .

وحمل إليه خمس حصن عربية بعدّتها ، وعشرين أكديشًا ، وأربعة قطر بغال ، وخمس بغلات فائقات بالسروج واللجم المكفتة ، وقطارين من الجمال ، وخلع على أصحابه مائة وخمسين خلعة ، وقاد إلى أكثرهم بغلات وأكاديش ، ثم سار الملك الأشرف إلى بلاده .

وفى هذه السنة : أمر الملك الظاهر صاحب حلب بإجراء القناة من حَيْلَان إلى حلب ، وغرم على ذلك أموالاً كثيرة ، وبقى البلد يجرى الماء فيه .

وفى هذه السنة : وصل غياث الدين كَيْخِسْرُو بن قليج أرسلان السلجوقى صاحب بلاد الروم إلى مرعش لقصد بلاد ابن لاوون الأرمنى ، وأرسل إليه الملك الظاهر نجدة ، فدخل كَيْخِسْرُو إلى بلاد ابن لاوون ، وعاث فيها ونهب وفتح حصنًا يعرف بفرقوس .

ذكر مقتل صاحب الجزيرة

فى هذه السنة : قتل معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازى بن مودود بن عماد الدين بن زنكى بن أقسنقر ، صاحب جزيرة ابن عمر ، وقد تقدم ذكر ولايته فى سنة ست وسبعين وخمسمائة ، قتله ابنه غازى ، وكان سنجرشاه ظالمًا ، قبيح السيرة جدًّا ، لا يمتنع عن قبيح يفعله من القتل وقطع الألسنة والأنوف والآذان وحلق اللحى ، وتعدّى ظلمه إلى أولاده وحريمه ، فبعث ابنيه محمودًا ومودودًا إلى قلعة فحبسهما فيها ، وحبس ابنه المذكور غازى فى دار فى المدينة وضيق عليه ، وكان بتلك الدار هوام كثيرة ، فاصطاد غازى المذكور منها حية وأرسلها إلى أبيه فى منديل لعله يرق عليه ، فلم يزده ذلك إلا قسوة ، فأعمل غازى الحيلة حتى هرب ، وكان له واحد يخدمه ، فقرر معه أن يسافر ويظهر أنه غازى بن معز الدين سنجرشاه ليأمنه أبوه ، فمضى ذلك الإنسان إلى الموصل فأعطى شيئًا وسافر منها ، واتصل ذلك بسنجرشاه

فاطمأن ، وتوصل ابنه غازى حتى دخل إلى دار أبيه ، واختفى عند بعض سرارى أبيه ، وعلم به جماعة منهم ، وكتموا ذلك على سنجرشاه لبغضهم فيه ، واتفق أن سنجرشاه شرب يومًا بظاهر البلد وشرع يقترح على المغنين الأشعار الفراقية وهو يبكى ، ودخل داره سكران إلى عند الحظية التى ابنه مخبأ عندها ، ثم قام معز الدين سنجرشاه ودخل الخلاء ، فهجم عليه ابنه غازى فضربه أربع عشرة ضربة بالسكين ، ثم ذبحه وتركه ملقى ، ودخل غازى الحمام ، وقعد يلعب مع الجوارى ، فلو أحضر الجند واستحلفهم فى ذلك الوقت لتم له الأمر وملك البلاد ، ولكنه تنكر واطمأن ، فخرج بعض الخدم وأعلم أستاذ الدار ، فجمع الناس وهجم على غازى وقتله ؛ وحلف العسكر لأخيه محمود بن سنجرشاه ، ولقب معز الدين بلقب أبيه ووصل معز الدين محمود بن سنجرشاه بن زنكى ، واستقر ملكه بالجزيرة ، وقبض على جوارى أبيه فغرقهنّ فى دجلة ، ثم قبض بعد ذلك أخاه مودودًا .

ثم دخلت سنة ست وستمائة :

فى هذه السنة : سار الملك العادل من دمشق وقطع الفرات ، وجمع العساكر والملوك من أولاده ونزل حران ، ووصل إليه بها الملك الصالح محمود بن محمد بن قرا أرسلان الأرتقى صاحب آمد وحصن كيفا ، وسار الملك العادل من حران ، ونازل سنجار وبها صاحبها قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى بن مودود بن عماد الدين زنكى فحاصرها ، وطال الأمر فى ذلك ، ثم خامرت العساكر التى صحبة الملك العادل ، ونقض الملك الظاهر صاحب حلب الصلح معه ، فرحل عن سنجار وعاد إلى حران ، واستولى الملك العادل على نصيبين ، وكانت لقطب الدين محمد المذكور ، وكذلك استولى على الخابور .

وفى هذه السنة : توفى الملك المؤيد نجم الدين مسعود ابن السلطان صلاح الدين .

وفيها : توفى الإمام فخر الدين محمد بن عمر خطيب الرى بن الحسين بن الحسن بن على التميمى البكرى ، الطبرستانى الأصل ، الرازى المولد ، الفقيه الشافعى ، صاحب التصانيف المشهورة ، قال ابن الأثير : وبلغنى أن مولده سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وكان فخر الدين المذكور مع فضائله يعظ ، وله فيه اليد الطولى ، وكان يعظ باللسانين العربى والعجمى ، ويلحقه فى الوعظ الوجد والبكاء ، وكان أوحد زمانه فى المعقولات والأصول ، واشتغل فى أول زمانه على والده ، ثم قصد الكمال السمعانى واشتغل عليه ، ثم عاد إلى الرى واشتغل على المجد الجيلى ، وسافر إلى خوارزم وما وراء النهر ، وجرى له بفَيْرُوزْكُوه ما تقدم ذكره ، وأخرج منها بسبب الكرامية ، واتصل بشهاب الدين الغورى صاحب غزنة ، وحصل له منه مال طائل ، ثم عاد فخر الدين إلى خراسان ، واتصل بالسلطان خوارزم شاه محمد بن تكش وحظى عنده ، ولفخر الدين نظم حسن فمنه :

نهاية أقدام العقول عقال — وأكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا — وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا — سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم قد رأينا من رجال ودولة — فبادوا جميعًا مسرعين وزالوا

وكانت العلماء يقصدونه من البلاد ، وتشدّ إليه الرحال ، وقصده ابن عنين الشاعر ومدحه بقصائد .

وفيها : فى سلخ ذى الحجة ، توفى مجد الدين بن السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم ومولده سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، المعروف بابن الأثير ، أخو عز الدين على المؤرخ مؤلف الكامل فى التاريخ ، وكان مجد الدين المذكور عالمًا بالفقه والأصولين والنحو والحديث واللغة ، وله تصانيف مشهورة ، وكان كاتبًا مفلقًا .

وفيها : توفى المجد المطرز النحوى الخوارزمى ، وكان إمامًا فى النحو ، وله فيه تصانيف حسنة .

ثم دخلت سنة سبع وستمائة :

فيها : عاد السلطان الملك العادل من البلاد الشرقية إلى دمشق .

وفيها : قصدت الكرج خلاط ، وحصروا الملك الأوحد ابن الملك العادل بها ، واتفق أن ملك الكرج شرب وسكر ، فحسَّنَ له السكر أنه تقدم إلى خلاط فى عشرين فارسًا ، فخرجت إليه المسلمون فتقنطر وأخذ أسيرًا ، وحمل إلى الملك الأوحد ، فردّ على الملك الأوحد عدة قلاع ، وبذل إطلاق خمسة آلاف أسير ومائة ألف دينار ، وعقد الهدنة مع المسلمين ثلاثين سنة ، وشرط أن يزوج ابنته بالملك الأوحد ، فتسلم ذلك منه وأقام وتحالفا وأطلق .

ذكر وفاة نور الدين
صاحب الموصل

فى هذه السنة : توفى نور الدين أرسلان شاه عز الدين مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكى بن أقسنقر صاحب الموصل فى آخر رجب ، وكان مرضه قد طال ، وملك الموصل سبع عشرة سنة ،وأحد عشر شهرًا ، ولما اشتد مرضه انحدر إلى العين القيارة ليستحم بها ، وعاد إلى الموصل فى سيارة ، فتوفى فى الطريق ليلًا ، وكان أسمر حسن الوجه ، قد أسرع إليه الشيب ، وكان شديد الهيبة على أصحابه ، وكان عنده قلة صبر فى أموره .

واستقر فى ملكه بعده ولده الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود ، وكان عمر القاهر عشر سنين ، وقام بتدبير مملكته بدر الدين لولو ، وكان لولو مملوك والده أرسلان شاه وأستاذ داره ، وهذا لولو هو الذى ملك الموصل على ما سنذكره إن شاء الله تعالى ، وكان لأرسلان شاه ولد آخر أصغر من القاهر اسمه عماد الدين زنكى ملكه أبوه قلعتى العقر وشوش ، وهما بالقرب من الموصل .

ذكر غير ذلك

وفى هذه السنة : وردت رسل الخليفة الناصر لدين الله إلى ملوك الأطراف أن يشربوا له كاس الفتوة ، ويلبسوا له سراويلها ، وأن ينتسبوا إليه فى رمى البندق ، ويجعلوه قدوتهم .

وفيها : سار الملك العادل بعد وصوله إلى دمشق ومقامه إلى الديار المصرية ، وأقام بدار الوزارة .

وفيها : توفى فخر الدين جهاركس مقدم الصلاحية وكبيرهم .

ذكر وفاة الملك الأوحد
صاحب خِلاط

فى هذه السنة : توفى الملك الأوحد ايوب ابن الملك العادل ، فسار أخوه الملك الأشرف وملك خِلاط واستقل بملكها مضافًا إلى ما بيده من البلاد الشرقية ، فعظم شأنه ولقب شاهِرْمَنّ .

وفى هذه السنة : قتل غياث الدين كَيْخَسْرُو صاحب بلاد الروم ، قتله ملك الأشكرى وملك بعده ابنه كِيكَاوُس بن كَيْخَسْرُو بن قليج أرسلان حسبما تقدم ذكره فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .

ثم دخلت سنة ثمان وستمائة :

فى هذه السنة : قبض الملك المعظم عيسى بن الملك العادل على عز الدين أسامة صاحب قلعتى كوكب وعجلون بأمر أبيه الملك العادل ، وحبسه فى الكرك إلى أن مات بها ،وحاصر القلعتين المذكورتين وتسلمها من غلمان أسامة ، وأمر الملك العادل بتخريب كوكب وتعفية

أثرها ، فخربت وبقيت خرابًا وأبقى عجلون ، وانقرضت الصلاحية بهذا أسامة ، وملّك الملك المعظم بلاد جهاركس وهي بانياس وما معها لأخيه شقيقه الملك العزيز عماد الدين عثمان ابن الملك العادل ، وأعطى صرخد مملوكه عز الدين أيبك المعظمى .

وفي هذه السنة : عاد الملك العادل إلى الشام ، وأعطى ولده الملك المظفر غازى الرها مع ميافارقين .

وفيها : أرسل الملك الظاهر القاضى بهاء الدين بن شداد إلى الملك العادل فاستعطف خاطره ، وخطب ابنته ضيفة خاتون ابنة الملك العادل فزوجها من الملك الظاهر ، وزال ما كان بينهما من الإحن .

وفيها : أظهر الكيا جلال الدين حسن صاحب الألموت ، وهو من ولد ابن الصباح شعائر الإسلام ، وكتب به إلى جميع قلاع الإسماعيلية بالعجم والشام ، فأقيمت فيها شعائر الإسلام .

وفيها : توفى أبو حامد محمد بن يونس بن منعة[1] الفقيه الشافعى بمدينة الموصل ، وكان إمامًا فاضلاً ، وكان حسن الأخلاق .

وفيها : توفى القاضى السعيد المعروف بابن سنا الملك ، وهو هبة الله بن جعفر بن سنا الملك السعدى ، الشاعر المشهور المصرى ، أحد الفضلاء الرؤساء ، صاحب النظم الفائق ، وكان كثير التنعم ، وافر السعادة ، محظوظًا من الدنيا ، مدح توران شاه أخا السلطان صلاح الدين بقصيدة مطلعها :

تقنعت لكن بـالحبيب المعـمم ... وفارقتُ لكن كل عيش مذمم

فهجّن بعض الفضلاء هذا المطلع وعابوه .

ومن شعره أيضًا :

لا الحسن يحكيك ولا الجودز ... حسنـك ممـا كثـروا أكـثر
يـا باسـمًا أهـدى لنـا ثغره ... عقـدًا ولكـن كله جـوهـر
قـال لى اللاحى أمـا تستمـع ... فقلت لـلاحى أمـا تبصـر

ثم دخلت سنة تسع وستمائة :

فى هذه السنة : فى المحرم ، عقد الملك الظاهر على ضيفة خاتون بنت الملك العادل ، وكان المهر خمسين ألف دينار ، وتوجهت من دمشق فى المحرم إلى حلب ، فاحتفل الملك الظاهر لملتقاها ، وقدم لها أشياء كثيرة نفيسة .

---

(١) أما فى « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير جـ ١٢ (مهمة) .

وفيها : عمر الملك العادل قلعة الطور ، وجمع لها الصناع من البلاد والعسكر حتى تمت

وفى هذه السنة : سار طغريل شاه بن قليج أرسلان ، صاحب أرزن الروم وحاصر ابن أخيه سلطان الروم كَىْ كَاوُس بسيواس ، فاستنجد كَىْ كاوُس بالأشرف ابن العادل ، فخاف عمه طغريل ورحل عنه ، وكان لكَىْ كَاوُس أخ اسمه كَىْ قَبَاذ ، فلما جرى ما ذكرناه ، ساركى قباذ واستولى على أنكورية من بلاد أخيه كَىْ كَاوُس ، فساركى كاوس وحصره ، وفتح أنكورية ، وقبض على أمرائه ، وحلق لحاهم ورؤوسهم وأركب كل واحد منهم فرسًا ، وأركب قدامه وخلفه قحبتين ، وبيد كل منها معلاق تصفعه به ، وبين يدى كل واحد منهم مناد ينادى : هذا جزاء من خانوا سلطانهم .

ثم دخلت سنة عشر وستمائة :

فى هذه السنة : ظفر عز الدين كَىْ كَاوُس بن كَيْخَسْرُو ، صاحب بلاد الروم بعمه طغريل شاه ، فأخذ بلاده وقتله ، وذبح أكثر زملائه ، وقصد قتل أخيه علاء الدين كى قباذ ، فشفع فيه بعض أصحابه فعفا عنه .

وفيها : فى رمضان ، توفى بحلب فارس الدين ميمون القصرى ، وهو آخر من بقى من كبراء الأمراء الصلاحية ، وهو منسوب إلى قصر الخلفاء بمصر ، كان قد أخذه السلطان صلاح الدين من هناك .

وفيها : ولد للملك الظاهر من ضيفة خاتون بنت الملك العادل ولده الملك العزيز غياث الدين محمد .

وفى هذه السنة : قتل أيدغمش مملوك البهلوان ، وكان قد غلب على المملكة وهى هَمَذان والجبال ، قتله خشداش له من البهلوانية اسمه مَنْكِلى ، وكان أيدغمش قد هرب منه ، والتجأ إلى الخليفة فى سنة ثمان وستمائة ، ورجع أيدغمش فى هذه السنة إلى جهة همذان فقتل ، واستقل مَنْكِلى بالملك .

وفى هذه السنة : فى شعبان ، توفى ملك المغرب محمد الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف ابن عبد المؤمن ، وكانت مدة مملكته نحو ست عشرة سنة ، وكان أشقر أسيل الخد دائم الإطراق ، كثير الصمت للثغة كانت فى لسانه ، وقد تقدم ذكر ولايته فى سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، ولما مات محمد الناصر المذكور ، ملك بعده ولده يوسف ، وتلقب بالمستنصر أمير المؤمنين بن محمد الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ، وكنيته أبو يعقوب .

وفيها : وقيل فى السنة التى قبلها ، توفى على بن محمد بن على المعروف بابن خروف ، النحوى الأندلسى الأشبيلى ، شرح كتاب سيبويه شرحًا جيدًا ، وشرح الجمل للزجاجى .

وفيها : توفى عيسى بن عبد العزيز الجُزُولى بمراكش ، وكان إمامًا فى النحو ، صنف مقدمته الجُزولية وسماها القانون ، أتى فيها بالعجائب ، واعتنى بها جماعة من الفضلاء ، وأكثر النحاة يعترفون بقصور أفهامهم عن إدراك مراده منها ، فإنها كلها رموز وإشارات .

قدم الجُزولى المذكور إلى ديار مصر على ابن برى النحوى ، ثم عاد إلى المغرب – والجُزولى بضم الجيم ، منسوب إلى جُزولة ، وهى بطن من البربر ، ويقال لها كُزولة أيضًا ، وشرح مقدمته فى مجلد كبير ، أتى فيه بغرائب وفوائد .

ثم دخلت سنة إحدى عشرة وستمائة :

فى هذه السنة : توفى دلدرم بن ياروق صاحب تل باشر ، وولى تل باشر بعده ابنه فتح الدين .

وفيها : توفى الشيخ على بن أبى بكر الهروى ، وله التربة المعروفة شمالى حلب ، وكان عارفًا بأنواع الحيل والشعبذة والسيماوية ، تقدم عند الملك الظاهر غازى صاحب حلب ، وله أشعار كثيرة ، وتغرب فى البلاد ، ودار غالب المعمور .

وفيها : أسرت التركمان ملك الأشكرى ، وهو قاتل غياث الدين كى خسرو ، فحمل إلى ابنه كى كاوس بن كى خسرو ، فأراد قتله ، فبذل له فى نفسه أموالاً عظيمة وسلم إلى كى كاوس قلاعًا وبلادًا لم يملكها المسلمون قط .

وفيها : عاد الملك العادل من الشام إلى مصر .

وفيها : توفى الدكز[1] عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلىّ ببغداد ، وَلِىَ عدّة ولايات ، وكان يُتهم بمذهب الفلاسفة ، اعتقل قبل موته ، وأظهرت كتبه وفيها الكفريات ، مثل مخاطبة زُحَل وغيره بالإلهيّة وأُحْرِقت ، ثم شفع فيه أبوه فأفرج عنه وعاد إلى أعماله .

وفيها : توفى فى شوال عبد العزيز بن محمود بن الأخضر ، وله سبع وثمانون سنة ، وهو من فضلاء المحدثين .

---

(١) فى كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير جـ ١٢ (الركن) وهو الأقرب إلى الصواب .

ثم دخلت سنة اثنتى عشرة وستمائة :

ذكر استيلاء الملك المسعود ابن الملك الكامل ابن الملك العادل على اليمن

قد تقدم ذكر استيلاء سليمان بن سعد الدين شاهنشاه بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فى سنة تسع وتسعين وخمسمائة على اليمن ، وأنه ملأها ظلمًا وجورًا ، وأنه أطرح زوجته التى ملكته ، فلما جاءت هذه السنة ، بعث الملك الكامل ابن الملك العادل ابنه الملك المسعود يوسف المعروف بأقسيس إلى اليمن ومعه جيش ، فاستولى الملك المسعود على اليمن ، وظفر بسليمان المذكور صاحب اليمن ، وبعث به معتقلًا إلى مصر ، فأجرى له الملك الكامل ما يقوم به ، ولم يزل سليمان المذكور مقيمًا بالقاهرة إلى سنة سبع وأربعين وستمائة ، فخرج إلى المنصورة غازيًا فقتل شهيدًا .

وفى هذه السنة : توفى الأمير على ابن الإمام الناصر ، وَوجِدَ عليه الخليفة وَجْدًا عظيمًا ، وأكثر الشعراء من المراثى فيه .

وفى هذه السنة : تجمعت العساكر من بغداد وغيرها ، وقصدوا مَنْكِلى صاحب هَمَذَان وأصفهان والرَّىّ وما بينها من البلاد ، فانهزم وقتل فى ساوة ، وتولى موضعه أغلمش أحد المماليك البهلوانية أيضًا .

وفيها : فى شعبان ، ملك خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش مدينة غزنة وأعمالها ، وأخذها من يلدز مملوك شهاب الدين الغورى ، فهرب يلدز إلى لهاوور من الهند واستولى عليها ، ثم سار يلدز عن لهاوور واستولى على بعض بلاد الهند الداخلة تحت حكم قطب الدين أيبك خشداش يلدز المذكور ، فجرى بينه وبين عسكر قطب الدين أيبك مصاف فقتل فيه يلدز ، وكان يلدز حسن السيرة فى الرعية كثير الإحسان إليهم .

وفيها : توفى الوجيه المبارك ابن أبى الأزهر سعيد بن الدهان النحوى الضرير ، وكان فاضلًا ، قرأ على ابن الأنبارى وغيره ، وكان حنبليًّا فصار حنفيًّا ثم صار شافعيًّا فقال فيه أبو البركات زيد التكريتى :

ألا مبلغ عنّى الـوجيه رسـالةً   وإنْ كان لا تُجْدى إليه الرسائلُ

تمذهبتَ للنعمان بعد ابن حَنْبَل وفـارقْتَهُ إذ أعـوزتك المـآكـلُ
وما اخترتَ رأىَ الشافعىّ ـ تَدَيُّنا ولكنّما تهوى الذى هو حاصلُ
وعمّا قليلٍ أنتَ لا شك صائرٌ إلى مالكٍ فافطَنْ بما أنا قائلُ

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وستمائة :

ذكر وفاة الملك الظاهر غازى ابن السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب صاحب حلب

ولما كانت صبيحة يوم السبت ، وهو الخامس والعشرون من جمادى الأولى من هذه السنة ، ابتدأ بالملك الظاهر والمذكور حمى حادة ، ولما اشتد مرضه أحضر القضاة والأكابر ، وكتب نسخة يمين أن يكون الملك بعده لولده الصغير الملك العزيز ،ثم بعده لولده الكبير الملك الصالح صلاح الدين أحمد بن غازى ، وبعدهما لابن عمهما الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين ، وحلف الأمراء والأكابر على ذلك ، وجعل الحكم فى الأموال والقلاع إلى شهاب الدين طغريل الخادم ، وأعذق به جميع أمور الدولة ، وفى الثالث عشر من جمادى الآخرة أقطع الملك الظافر خضر المعروف بالمستمر كفر سودا[1] ، وأخرج من حلب فى ليلته بالتوكيل ، وأخرج علم الدين قيصر مملوك الملك الظاهر إلى حارم نائبًا .

وفى خامس عشر جمادى الآخرة ، اشتد مرض الملك الظاهر ، ومنع الناس الدخول إليه ، وتوفى فى ليلة الثلاثاء لعشرين من جمادى الآخرة ، وكان مولده بمصر فى نصف رمضان سنة ثمان وستين وخمسمائة ، فكان عمره أربعًا وأربعين سنة وشهورًا ، وكانت مدة ملكه لحلب من حين وهبها له أبوه إحدى وثلاثين سنة ، وكان فيه بطش وإقدام على سفك الدماء ، ثم أقصر عنه ، وهو الذى جمع شمل البيت الناصرى الصلاحى ، وكان ذكيًا فطنًا ، وترتب الملك العزيز فى المملكة ، ورجع الأمور كلها إلى شهاب الدين طغريل الخادم ، فدبر الأمور وأحسن السياسة ، وكان عمر الملك العزيز لما قرر فى المملكة سنتين وأشهرًا ، وعمر أخيه الملك الصالح نحو اثنتى عشرة سنة .

---

(١) أما صاحب معجم البلدان فذكر أن اسمها كفر سُوت ، بضم السين ثم واو ، وآخره تاء مثناة ، ثم قال : وهى من أعمال حلب الآن ، انظر معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٤٦٩ ط دار صادر بيروت .

وفى هذه السنة : توفى تاج الدين زيد بن الحسين بن زيد الكندى ، وكان إمامًا فى النحو واللغة ، وله الإسناد العالى فى الحديث ، وكان ذا فنون كثيرة فى أنواع العلم ، وهو بغدادى المولد والمنشأ ، وانتقل وأقام بدمشق .

ثم دخلت سنة أربع عشرة وستمائة :

والسلطان الملك العادل بالديار المصرية ، وقد اجتمعت الفرنج من داخل البحر ، ووصلوا إلى عكا فى جمع عظيم ، ولما بلغ الملك العادل ذلك ، خرج بعساكر مصر ، وسار حتى نزل نابلس ، فسارت الفرنج إليه ، ولم يكن معه من العساكر ما يقدر به على مقاتلتهم فاندفع قدامهم إلى عَقَبة أفيق ، فأغاروا على بلاد المسلمين ، ووصلت غارتهم إلى نوى من بلد السواد ، ونهبوا ما بين بيسان ونابلس ، وبنو سراياهم فقتلوا وغنموا من المسلمين ما يفوت الحصر ، وعادوا إلى مرج عكا ، وكان وقت هذا النهب ما بين منتصف رمضان وعيد الفطر من هذه السنة ، وأقام الملك العادل بمرج الصفر ، وسارت الفرنج وحصروا حصن الطور ، وهو الذى بناه الملك العادل على ما تقدم ذكره ، ثم رحلوا عنه ، وانقضت السنة والفرنج بجموعهم فى عكا .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : سار خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش إلى بلاد الجبل وغيرها فملكها ، فمنها ساوة وقزوين وزنجان وأبهر وهمذان وأصفهان وقم وقاشان ، ودخل أزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان وأران فى طاعة خوارزم شاه ، وخطب له ببلاده ثم عزم خوارزم شاه على المسير إلى بغداد للاستيلاء عليها ، وقدم بعض العسكر بين يديه ، وسار خوارزم شاه فى أثرهم عن همذان يومين أو ثلاثة ، فسقط عليهم من الثلج ما لم يسمع بمثله ، فهلكت دوابهم ، وخاف من حركة التتر على بلاده ، فولى على البلاد التى استولى عليها ، وعاد إلى خراسان ، وقطع خطبة الخليفة الإمام الناصر من بلاد خراسان فى سنة خمس عشرة وستمائة ، وكذلك قطعت خطبة الخليفة من بلاد ما وراء النهر ، وبقيت خوارزم وسمرقند وهراة لم يقطع الخطبة منها ، فإن أهل هذه البلاد كانوا لا يلتزمون بمثل هذا ، بل يخطبون لمن يختارون ويفعلون نحو ذلك .

ثم دخلت سنة خمس عشرة وستمائة :

والملك العادل بمرج الصفر ، وجموع الفرنج بمرج عكا ، ثم ساروا منها إلى الديار المصرية ونزلوا على دمياط ، وسار الملك الكامل ابن الملك العادل من مصر ، ونزل قبالتهم ، واستمر الحال كذلك أربعة أشهر ، وأرسل الملك العادل العساكر التى عنده إلى ابنه الملك الكامل ، فوصلت إليه أولا فأولا ، ولما اجتمعت العساكر عند الملك الكامل ، أخذ فى قتال الفرنج ودفعهم عن دمياط .

ذكر وفاة الملك القاهر
صاحب الموصل

فى هذه السنة : توفى الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود ابن مودود ابن عماد الدين زنكى بن أقسنقر صاحب الموصل ، وكانت وفاته لثلاث بقين من ربيع الأول ، وكانت مدة ملكه سبع سنين وتسعة أشهر ، وانقرض بموته ملك البيت الأتابكى ، وخلف ولدين أكبرهما اسمه أرسلان شاه ، وكان عمره حينئذ نحو عشر سنين ، فأوصى بالملك له ، وأن يقوم بتدبير مملكته بدر الدين لولو ، فنصبه بدر الدين لولو فى المملكة ، وجعل الخطبة والسكة باسمه ، وقام لولو بتدبير المملكة أحسن قيام .

ذكر قصد كِيكَاوُسْ بن كَيْخسرو
صاحب بلاد الروم حلب

ولما مات الملك الظاهر صاحب حلب ، وأجلس ابنه العزيز فى المملكة وكان طفلاً ، طمع صاحب بلاد الروم كِيكَاوُس فى الاستيلاء على حلب ، فاستدعى الملك الأفضل صاحب سُمَيْساط ، واتفق معه كيكاوس أن يفتح حلب وبلادها ويسلمها للملك الأفضل ، ثم يفتح البلاد الشرقية التى بيد الملك الأشرف ابن الملك العادل ويتسلمها كيكاوس ، وتحالفا على ذلك .

وساركيكاوس إلى جهة حلب ، ومعه الملك الأفضل ، ووصلا إلى رَعْبَان ، واستولى عليها كيكاوس وسلمها إلى الملك الأفضل ، فمالت إليه قلوب أهل البلاد لذلك ، ثم سار إلى تل باشرو بها ابن دلدرم ففتحها ولم يسلمها إلى الملك الأفضل ، وأخذها كيكاوس لنفسه ، فنفر خاطر الملك الأفضل ، وخواطر أهل البلاد بسبب ذلك .

ووصل الملك الأشرف ابن الملك العادل إلى حلب لدفع كيكاوس عن البلاد ، ووصل إليه بها الأمير مانع بن حديثة أمير العرب فى جمع عظيم ، وكان قد سار كيكاوس إلى منبج وتسلمها لنفسه أيضًا ، وسار الملك الأشرف بالجموع التى معه ونزل وادى بزاعا ، واتقع بعض عسكره مع مقدمة عسكر كيكاوس ، فانهزمت مقدمة عسكر كيكاوس وأخذ من عسكر كيكاوس عدة أسرى فأرسلوا إلى حلب ، ودقت البشائر لها ، ولما بلغ ذلك كيكاوس وهو بمنبج وَلَّى منهزمًا مرعوبًا ، وتبعه الملك الأشرف يتخطف أطراف عسكره ، ثم حاصر الأشرف تل باشر واسترجعها ، وكذلك استرجع رَعْبَان وغيرها ، وتوجه الملك الأفضل إلى سُمَيْساط ، ولم يتحرك بعدها فى طلب ملك إلى أن مات سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى ، وعاد الملك الأشرف إلى حلب وقد بلغه وفاة أبيه .

ذكر وفاة السلطان الملك العادل
أبى بكر بن أيوب

كان الملك العادل نازلًا بمرج الصفر ، وقد أرسل العساكر إلى ولده الملك الكامل بالديار المصرية ، ثم رحل الملك العادل من مرج الصفر إلى عالقين ، وهى عند عقبة أفيق ، فنزل بها ومرض ، واشتد مرضه ، ثم توفى (هناك) إلى رحمة الله تعالى ، سابع جمادى الآخرة من هذه السنة ، أعنى سنة خمس عشرة وستمائة ، وكان مولده سنة أربعين وخمسمائة ، وكان عمره خمسًا وسبعين سنة ، وكانت مدة ملكه لدمشق ثلاثًا وعشرين سنة ، وكانت مدة ملكه لمصر نحو تسع عشرة سنة ، وكان الملك العادل رحمه الله تعالى حازمًا متيقظًا غزير العقل سديد الآراء ذا مكر وخديعة صبورًا حليمًا ، يسمع ما يكره ويغضى عنه ، وأتته السعادة ، واتسع ملكه ، وكثرت أولاده ، ورأى فيهم ما يحب ولم ير أحدًا من الملوك الذين اشتهرت أخبارهم فى أولاده من الملك والظفر ما رآه الملك العادل فى أولاده ، ولقد أجاد شرف الدين بن عنين فى قصيدته التى مدح بها الملك العادل التى مطلعها :

ماذا على طيف الأحبة لو سرى   وعليهم لو سامحونى بالكرى

ومنها :

العادل الملك الذى أسماؤه ... فى كل ناحية تشرف منبرا
ما فى أبى بكر لمعتقد الهدى ... شك يريب بأنه خير الورى
بين الملوك الغابرين وبينه ... فى الفضل ما بين الثريا والثرى
نسجت خلائقه الحميدة ما أتى ... فى الكتب عن كسرى الملوك وقيصرا

ومنها فى وصف أولاده :

لا تسمعن حديث ملك غيره ... يروى فكل الصيد فى جوف الفرا
وله الملوك بكل أرض منهم ... ملك يجر إلى الأعادى عسكرا
من كل وضاح الجبين تخاله ... بدرًا ، فإن شهد الوغى فغضنفرا

وخلّف الملك العادل ستة عشر ولدًا ذكرًا غير البنات ، ولما توفى الملك العادل لم يكن عنده أحد من أولاده حاضرًا ، فحضر إليه ابنه الملك المعظم عيسى ، وكان بنابلس بعد وفاته ، وكتم موته ، وأخذه ميتًا فى محفة وعاد به إلى دمشق ، واحتوى الملك المعظم على جميع ما كان مع أبيه من الجواهر والسلاح والخيول وغير ذلك ، ولما وصل دمشق حلف جميع الناس له ، وأظهر موت أبيه وجلس للعزاء ، وكتب إلى الملوك من إخوته وغيرهم يخبرهم بموته ، وكان فى خزانة الملك العادل لما توفى سبعمائة ألف دينار عينًا .

ولما بلغ الملك الكامل موت أبيه ، وهو فى قتال الفرنج ، عظم عليه ذلك جدًّا ، واختلفت العساكر عليه ، فتأخر عن منزلته ، وطمعت الفرنج ونهبت بعض أثقال المسلمين ، وكان فى العسكر عماد الدين أحمد بن سيف الدين على بن أحمد المشطوب ، وكان مقدمًا عظيمًا فى الأكراد الهكارية ، فعزم على خلع الملك الكامل من السلطنة ، وحصل فى العسكر اختلاف كثير ، حتى عزم الملك الكامل على مفارقة البلاد واللحوق باليمن ، وبلغ الملك المعظم عيسى ابن العادل ذلك ، فرحل من الشام ، ووصل إلى أخيه الملك الكامل وأخرج عماد الدين بن المشطوب ، ونفاه من العسكر إلى الشام ، فانتظم أمر السلطان الملك الكامل ، وقوى مضايقة الفرنج لدمياط وضعف أهلها بسبب ما ذكرناه من الفتنة التى حصلت فى عسكر الملك الكامل من ابن المشطوب .

ذكر استيلاء عماد الدين زنكى بن أرسلان شاه بن مسعود ين مودود بن عماد الدين زنكى أقسنقر على بعض القلاع المضافة إلى مملكة الموصل

قد تقدم فى سنة سبع وستمائة ، أن أرسلان شاه عند وفاته جعل مملكة الموصل لولده القاهر مسعود ، وأعطى ولده الأصغر عماد الدين زنكى المذكور قلعتى العقر وشوش فلما مات أخوه القاهر ، وأجلس ولده أرسلان شاه بن القاهر فى المملكة ، وكان به قروح وأمراض ، تحرك عمه عماد الدين زنكى بن أرسلان شاه وقصد العمارية واستولى عليها ، ثم استولى على قلاع الهكارية والزوران ، فاستنجد بدر الدين لولو المستولى على ملك الموصل وتدبير أرسلان شاه - بالملك الأشرف ابن الملك العادل ودخل فى طاعته ، فأنجده الملك الأشرف بعسكر ، وساروا إلى زنكى بن أرسلان شاه فهزموه .

وكان زنكى المذكور مزوجًا ببنت مظفر الدين كوكبورى صاحب أربل ، وأم البنت ربيعة خاتون بنت أيوب ، أخت السلطان الملك العادل زوجة مظفر الدين ، فكان مظفر الدين لا يترك ممكنًا فى نجدة صهره زنكى المذكور ، ويبالغ فى عداوة بدر الدين لولو لأجل صهره .

وفى هذه السنة : توفى على بن نصر بن هارون النحوى الحلى الملقب بالحجة ، قرأ على ابن الخشاب وغيره .

وفيها : توفى محمد ، وقيل أحمد بن محمد بن محمد العميدى ، الفقيه الحنفى السمرقندى ، الملقب ركن الدين ، كان إمامًا فى فن الخلاف خصوصًا الحسب ، وله فيه طريقة مشهورة ، وصنف الإرشاد ، واعتنى فيه بشرح طريقته جماعة ، منهم : القاضى شمس الدين أحمد بن خليل بن سعادة الشافعى الجوينى قاضى دمشق ، وبدر الدين المراغى المعروف بالطويل ، واشتغل على العميدى خلق كثير وانتفعوا به ، منهم : نظام الدين أحمد بن محمود بن أحمد الحنفى ، المعروف بالحصيرى ، ونظام الدين الحصيرى المذكور قتله التتر بنيسابور عند أول خروجهم فى سنة ست عشرة وستمائة ، ولم يقع لنا هذه النسبة ، أعنى العميدى إلى ماذا .

ثم دخلت سنة ست عشرة وستمائة :

والملك الأشرف مقيم بظاهر حلب ، يدبر أمر جندها وإقطاعاتها ، والملك الكامل بمصر فى

مقابلة الفرنج ، وهم محدقون محاصرون لثغر دمياط ، وكُتُبُ الملك الكامل متواصلة إلى إخوته فى طلب النجدة .

ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل

وفى هذه السنة : توفى نور الدين أرسلان شاه ابن الملك القاهر مسعود بن أرسلان شاه ابن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكى بن أقسنقر ، وكان لا يزال مريضًا ، فأقام بدر الدين لولو فى الملك بعده أخاه ناصر الدين محمود ابن الملك القاهر ، وكان عمره يومئذ نحو ثلاث سنين ، وهو آخر من خطب له من بيت أتابك بالسلطنة ، وكان أبوه القاهر آخر من كان له استقلال بالملك منهم ، ثم إن هذا الصبى مات بعد مدة ، واستقل بدر الدين لولو بالملك ، وأتته السعادة ، وطالت مدة ملكه إلى أن توفى بالموصل بعد أخذ التتر بغداد على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر وفاة صاحب سنجار

وقد تقدم ذكر ولايته فى سنة أربع وتسعين وخمسمائة .

وفى هذه السنة : توفى قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى بن مودود بن عماد الدين زنكى بن أقسنقر صاحب سنجار ، فملك سنجار بعده ولده عماد الدين شاهنشاه بن محمد ، وكان قطب الدين حسن السيرة فى رعيته ، وبقى عماد الدين شاهنشاه فى الملك شهورًا ، ثم وثب عليه أخوه محمود بن محمد فذبحه وملك سنجار ، وهذا محمود هو آخر من ملك سنجار من البيت الأتابكى .

ذكر تخريب القدس

وفى هذه السنة : أرسل الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل صاحب دمشق الحجارين والنقابين إلى القدس ، فخرب أسواره ، وكانت قد حصنت إلى الغاية ، فانتقل منه عالم عظيم ، وكان سبب ذلك أن الملك المعظم ، لما رأى قوة الفرنج وتغلبهم على دمياط ،خشى أن يقصدوا القدس ، فلا يقدر على منعهم ، فخربه لذلك .

ذكر استيلاء الفرنج على دمياط

ولم تزل الفرنج يضايقون دمياط ، حتى هجموها فى هذه السنة ، عاشر رمضان ، وقتلوا وأسروا من بها ، وجعلوا الجامع كنيسة ، واشتد طمع الفرنج فى الديار المصرية ، وحين أخذت دمياط ، ابتنى الملك الكامل مدينة وسماها المنصورة عند مفترق البحرين ، الآخذ أحدهما إلى دمياط ، والآخر إلى أشمون طناخ ، ونزل فيها بعساكره .

ذكر ظهور التتر

وفى هذه السنة : كان ظهور التتر وقتلهم فى المسلمين ، ولم تُنْكَبُ المسلمون بأعظم مما نُكِبُوا فى هذه السنة ، فمن ذلك ما كان من تمكن الفرنج بملكهم دمياط وقتلهم أهلها وأسرهم ، ومنه المصيبة الكبرى وهو ظهور التتر وتملكهم فى المدينة القريبة أكثر بلاد المسلمين وسفك دمائهم وسبى حريمهم وذراريهم ، ولم تُفَجَع المسلمون مذ ظهر دين الإسلام بمثل هذه الفجيعة .

وفى هذه السنة : خرجوا على علاء الدين محمد خوارزم شاه بن تكش ، وعبروا نهر سيحون ، ومعهم ملكهم جنكيز خان ، لعنه الله تعالى ، فاستولوا على بخارى رابع ذى الحجة من هذه السنة بالأمان ، وعصت عليهم القلعة فحاصروها وملكوها وقتلوا كل من بها ، ثم قتلوا أهل البلد عن آخرهم .

من تاريخ ظهور التتر : تأليف محمد بن أحمد بن على المنشى النسوى ، كاتب إنشاء جلال الدين قال : إن مملكة الصين مملكة متسعة ، دورها ستة أشهر ، وقد انقسمت من قديم الزمان ستة أجزاء ، كل جزء منها مسيرة شهر ، يتولى أمره خان ، وهو الملك بلغتهم نيابة عن خانهم الأعظم ، وكان خانهم الكبير الذى عاصر خوارزم شاه محمد بن تكش يقال له الطون خان ، وقد توارث الخانية كابرًا عن كابر ، بل كافرًا عن كافر ، ومن عادة خانهم الأعظم الإقامة بطوغاج ، وهى واسطة الصين ، وكان من زمرتهم فى عصر المذكور شخص يسمى دوشى خان ، وهو أحد الخانات المتولى أحد الأجزاء الستة ، وكان مُزَوَّجًا بعمة جنكيز خان اللعين ، وقبيلة جنكيز خان اللعين هى المعروفة بقبيلة التمرجى سكان البرارى ، ومشتاهم موضع يسمى أرغون ، وهم المشهورون بين التتر بالشر والغدر ، ولم تر ملوك الصين إرخاء عنانهم لطغيانهم ، فاتفق أن دوشى خان ، زوج عمة جنكيز خان مات ، فحضر جنكيز خان إلى عمته زائرًا ومعزيًا .

وكان الخانان المجاوران لعمل دوشى خان المذكور ، يقال لأحدهما كشلوخان وللآخر فلان خان ، فكانا يليان ما يتاخم عمل دوشى خان المذكور المتوفى من الجهتين ، فأرسلت امرأة دوشى خان إلى كشلى خان والخان الآخر ، تنعى إليهما زوجها دوشى خان وأنه لم يخلف ولدًا ، وأنه كان حسن الجوار لهما ، وأن ابن أخيها جنكيز خان إن أقيم مقامه يحذو حذو المتوفى فى معاضدتهما ، فأجابها الخانان المذكوران إلى ذلك ، وتولى جنكيز خان ما كان لدوشى خان المتوفى من الأمور بمعاضدة الخانين المذكورين .

فلما أنهى الأمر إلى الخان الأعظم الطون خان ،أنكر تولية جنكيز خان واستحقره وأنكر على الخانين اللذين فعلا ذلك ، فلما جرى ذلك خلعوا طاعة الطون خان ، وانضم إليهم كل من هو من عشائرهم ، ثم اقتتلوا مع الطون خان فولّى منهزمًا ، وتمكنوا من بلاده ، ثم أرسل الطون خان وطلب منهم الصلح ، وأن يبقوه على بعض البلاد ، فأجابوه إلى ذلك ، وبقى جنكيز خان والخانان الآخران مشتركين فى الأمر ، فاتفق موت الخان الواحد ، واستقل بالأمر جنكيز خان وكشلو خان ، ثم مات كشلو خان ، وقام ابنه ولقب بكشلوخان أيضًا مقامه ، فاستضعف جنكيز خان جانب كشلو خان بن كشلو خان لصغره وحداثة سنه ، وأخل بالقواعد التى كانت مقررة بينه وبين أبيه ، فانفرد كشلو خان عن جنكيز خان وفارقه لذلك ، ووقع بينهما الحرب ، فجرد جنكيز خان جيشًا مع ولده دوشى خان بن جنكيز خان ، فسار دوشى خان واقتتل مع كشلو خان ، فانتصر دوشى خان وانهزم كشلو خان ، وتبعه دوشى خان وقتله وعاد إلى جنكيز خان برأسه ، فانفرد جنكيز خان بالمملكة .

ثم إن جنكيز خان راسل خوارزم شاه محمد بن تكش فى الصلح فلم ينتظم ، فجمع جنكيز خان عساكره ، والتقى مع خوارزم شاه محمد ، فانهزم خوارزم شاه ، فاستولى جنكيز خان على بلاد ما وراء النهر ، ثم تبع خوارزم شاه محمدًا وهو هارب بين يديه حتى دخل بحر طَبَرِسْتان ، ثم استولى جنكيز خان على البلاد ، ثم كان من خوارزم شاه ومن جنكيز خان ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر توجه الملك المظفر محمود ابن صاحب حماة إلى مصر وموت والدته

فى هذه السنة : حلّف الملك المنصور صاحب حماة الناس لولده الملك المظفر محمود ، وجعله ولى عهده ، وجرّد معه عسكرًا والطواشى مرشد المنصورى نجدة إلى الملك الكامل بديار مصر

فسار إليه ، ولما وصل إلى الملك الكامل أكرمه وأنزله فى ميمنة عسكره ، وهى منزلة أبيه وجده فى الأيام الناصرية الصلاحية ، وبعد توجه الملك المظفر ماتت والدته ملكة خاتون بنت الملك العادل .

قال القاضى جمال الدين ، مؤلف « مفرج الكروب » : وحضرتُ العزاء وعمرى اثنتا عشرة سنة ، ورأيتُ الملك المنصور وهو لابس الحداد على زوجته المذكورة ، وهو ثوب أزرق ، وعمامة زرقاء ، وأنشدته الشعراء المراثى ، فمن ذلك قصيدة قالها حسام الدين خشترين ، وهو جندى كردى مطلعها :

الطرف فى لجة والقلب فى سَعَرٍ　　له دخان زفير طار بالشرر

ومنها فى لبس الملك المنصور الحداد عليها :

ما كنت أعلم أن الشمس قد غربت　　حتى رأيتُ الدجى ملقى على القمر

لو كان مَنْ مات يُفْدَى قبلها لفدى　　أم المظفر آلاف من البشر

ذكر وفاة كيكاوس وملك أخيه كَيْقَبَاذ

فى هذه السنة : توفى الملك الغالب عز الدين كيكاوس بن كَيْخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم ، وقد تقدم ذكر ولايته فى سنة سبع وستمائة ، وكان قد تعلق به مرض السل واشتد مرضه ومات ، فملك بعده أخوه كَيْقباذ بن كَيْخسرو ، وكان كيقباذ محبوسًا ، قد حبسه أخوه كيكاوس فأخرجه الجند وملكوه .

ذكر غير ذلك

وفى هذه السنة : توفى أبو البقاء عبد الله بن الحسن بن عبد الله العكبرى الضرير النحوى ، الحاسب اللغوى ، وكان حنبليًا ، صحب ابن الخشاب النحوى وغيره .

وفيها : توفى أبو الحسن على بن القاسم بن على بن الحسن الدمشقى ، الحافظ ابن الحافظ ابن الحافظ ، المعروف بابن عساكر ، وكان قد قصد خراسان ، وسمع بها الحديث . فأكثر وعاد إلى بغداد ، وكان قد وقع على القَفْل الذى هو فيه فى الطريق حرامية ، وجرحوا ابن

عساكر المذكور ، ووصل على تلك الحال إلى بغداد ، وبقى بها حتى توفى فى هذه السنة فى جمادى الأولى رحمه الله .

ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة :

والفرنج متملكون على دمياط ، والسلطان الملك الكامل مستقر فى المنصورة ، مرابط للجهاد ، والملك الأشرف فى حران ، وكان الملك الأشرف قد أقطع عماد الدين أحمد بن سيف الدين على بن أحمد المشطوب رأس عين ، فخرج على الملك الأشرف ، وجمع ابن المشطوب المذكور جمع ، وحسن لصاحب سنجار محمود بن قطب الدين الخروج عن طاعة الأشرف أيضًا ، فخرج بدر الدين لولو من الموصل وحصر ابن المشطوب بتل أعفر ، وأخذه بالأمان ، ثم قبض عليه ، وأعلم الملك الأشرف بذلك ، فسر به غاية السرور ، واستمر عماد الدين أحمد ابن سيف الدين بن المشطوب فى الحبس .

ثم سار الملك الأشرف من حران ، واستولى على دنيسر ، وقصد سنجار ، فأتته رسل صاحبها محمود بن قطب الدين يسأل أن يعطى الرقة عوض سنجار ، ليسلم سنجار إلى الملك الأشرف ، فأجاب الملك الأشرف إلى ذلك ، وتسلّم سنجار فى مستهل جمادى الأولى ، وسلّم إليه الرقة ، وهذا كان من سعادة الملك الأشرف ، فإن أباه الملك العادل ، نازل سنجار فى جموع عظيمة ، وطال عليها مقامه فلم يملكها ، وملكها ابنه الملك الأشرف بأهون سعى ، وبعد أن فرغ الملك الأشرف من سنجار ، سار إلى الموصل ووصل إليها فى تاسع عشر جمادى الأولى ، وكان يوم وصوله إليها يومًا مشهودًا وكتب إلى مظفر الدين صاحب أربل يأمره أن يعيد صهره عماد الدين زنكى بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكى على بدر الدين لولو القلاع التى استولى عليها فأعادها جميعها ، وترك فى يده منها العمادية .

واستقر الصلح بين الملك الأشرف ، وبين مظفر الدين كوكبورى صاحب أربل ، وعماد الدين زنكى بن أرسلان شاه صاحب العقروشوش والعمارية ، وكذلك استقر الصلح بينهم وبين صاحب الموصل بدر الدين لولو ، ولما استقر ذلك ، رحل الملك الأشرف عن الموصل ثانى شهر رمضان من هذه السنة ، وعاد إلى سنجار ، و سلّم بدر الدين لولو قلعة تلعفر[1] إلى الملك الأشرف ، ونقل الملك الأشرف ابن المشطوب من حبس الموصل ، وحطه مقيدًا فى جب بمدينة حران حتى مات سنة تسع عشرة وستمائة ، ولقى بغيه وخروجه مرة بعد أخرى .

---

(١) هكذا ذكر العنوان فى نسخة الطبعة الحسينية - أما « الكامل فى التاريخ لابن الأثير فذكر العنوان هكذا » ذكر قصد كيكاوس ولاية حلب إلخ » وهو الأقرب إلى الصواب ، انظر : ج ١٢ ص ٣٤٧ .

ذكر وفاة الملك المنصور صاحب حماة

وفى هذه السنة : توفى الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب صاحب حماة ، بقلعة حماة فى ذى القعدة ، وكانت مدة مرضه إحدى وعشرين يومًا بحمى حادة وورم دماغه ، وكان شجاعًا عالمًا يحب العلماء ، ورد إليه منهم جماعة كثيرة مثل الشيخ سيف الدين على الآمدى ، وكان فى خدمة الملك المنصور قريب مائتى متعمم من النحاة والفقهاء والمشتغلين بغير ذلك ، وصنف الملك المنصور عدة مصنفات ، مثل المضمار فى التاريخ ، وطبقات الشعراء ، وكان معتنيا بعمارة بلده والنظر فى مصالحه ، وهو الذى بنى الجسر الذى هو بظاهر حماة ، خارج باب حمص ، واستقر له بعد وفاة والده من البلاد : حماة والمعرة وسلمية ومنبج وقلعة نجم .

ولما فتح بارين ، وكانت بيد إبراهيم بن المقدم ، ألزمه عمه السلطان الملك العادل أن يردها عليه ، فأجاب إلى تسليم منبج وقلعة نجم عوضًا عنها ، وهما خير من بارين بكثير ، اختار ذلك لقرب بارين من بلده ، وجرت له حروب مع الفرنج ، والنصر فيها ، وكان ينظم الشعر .

ذكر استيلاء الملك الناصر ابن الملك المنصور على حماة

ولما توفى الملك المنصور ، كان ولده الملك المظفر المعهود إليه بالسلطنة عند خاله الملك الكامل بديار مصر فى مقابلة الفرنج ، وكان ولده الآخر الملك الناصر صلاح الدين قليج أرسلان عند خاله الآخر الملك المعظم صاحب دمشق ، وهو فى الساحل فى الجهاد ، وقد فتح قيسارية وهدمها ، وسار إلى عثليث ونازلها ، وكان الوزير بحماة زين الدين بن فريج ، فاتفق هو والكبراء على استدعاء الملك الناصر لعلمهم بلين عريكته ، وشدة بأس الملك المظفر ، فأرسلوا إلى الملك الناصر ، وهو مع الملك المعظم كما ذكرنا ، فمنعه الملك المعظم من التوجه إلا بتقرير مال عليه يحمله إلى الملك المعظم فى كل سنة ، قيل إن مبلغه أربعمائة ألف درهم .

فلمّا أجاب الملك الناصر إلى ذلك وحلف عليه ، أطلقه الملك المعظم ، فقدم الملك الناصر إلى حماة ، واجتمع بالوزير زين الدين بن فريج والجماعة الذين كاتبوه ، فاستحلفوه على ما أرادوا ، وأصعدوه إلى القلعة ، ثم ركب من القلعة بالسناجق السلطانية ، وكان عمره إذ ذاك سبع عشرة سنة ، لأن مولده سنة ستمائة .

ولما استقر الملك الناصر فى ملك حماة ، وبلغ أخاه الملك المظفر ذلك ، استأذن الملك الكامل فى المضى إلى حماة ظنًا منه أنه إذا وصل إليها يسلّمونها إليه ، بحكم الأيمان التى كانت له فى أعناقهم ، فأعطاه الملك الكامل الدستور ، وسار الملك المظفر حتى وصل إلى الغور ، فوجد خاله الملك المعظم صاحب دمشق هناك ، فأخبره أن أخاه الملك الناصر قد ملك حماة ، ويخشى عليه أنه إن وصل إليه يعتقله ، فسار الملك المظفر إلى دمشق ، وأقام بداره المعروفة بالزنجيلى ، وكتب الملك المعظم والملك المظفر إلى أكابر حماة فى تسليمها إلى الملك المظفر ، فلم يحصل منهم إجابة ، فعاد الملك إلى مصر ، وأقام فى خدمة الملك الكامل ، وأقطعه إقطاعًا بمصر إلى أن كان ماسنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر استيلاء الملك المظفر شهاب الدين غازى ابن الملك العادل على خِلاط وميافارقين

كان قد استقر بيد الملك المظفر المذكور الرها وسروج ، وكانت ميافارقين وخِلاط بيد الملك الأشرف ، ولم يكن للملك الأشرف ولد ، فجعل أخاه الملك المظفر غازى ولى عهده ، وأعطاه ميافارقين وخلاط وبلادها ، وهى إقليم عظيم يضاهى ديار مصر ، وأخذ الملك الأشرف منه الرهاوسروج .

وفى هذه السنة : توفى بالموصل الشيخ صدر الدين محمد بن عمر بن حمويه ، شيخ الشيوخ بمصر والشام ، وكان فقيهًا فاضلًا من بيت كبير بخراسان ، وخلف أربعة بنين ، عرفوا بأولاد الشيخ ، تقدموا عند السلطان الملك الكامل ، وسنذكر بعض أخبارهم فى موضعها إن شاء الله تعالى ، وكان الشيخ صدر الدين المذكور قد توجه رسولًا إلى بدر الدين لولو صاحب الموصل فمات هناك .

ذكر مسير التتر إلى خوارزم شاه وانهزامه وموته

لما ملك التتر سمرقند ، أرسل جنكيز خان لعنه الله عشرين ألف فارس فى أثر خوارزم شاه محمد بن تكش ، وهذه الطائفة يسميها التتر المغاربة ، لأنها سارت نحو غرب خراسان ،

فوصلوا إلى موضع يقال له بنح آو ، وعبروا هناك نهر جيحون.، وصاروا مع خوارزم شاه فى برواحد ، فلم يشعر خوارزم شاه وعسكره إلا والتتر معه ، فتفرق عسكره وذهبوا أيدى سبأ ، ورحل خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش لا يلوى على شيء فى نفر من خواصه ، ووصل إلى نيسابور والتتر فى أثره .

فلما قربوا منه ، رحل خوارزم شاه إلى مَازَنْدَرَان والتتر فى أثره لا يلتفتون إلى شيء من البلاد ولا إلى غير ذلك ، بل قصدهم إدراك خوارزم شاه ، وسار من مَازَنْدَرَان إلى مَرْسى من بحر طَبَرِسْتان ، يعرف بالسكون ، وله هناك قلعة فى البحر ، فعبر هو وأصحابه إليها ، فوقف التتر على ساحل البحر ، وأيسوا من اللحاق بخوارزم شاه .

ولما استقر خوارزم شاه بهذه القلعة توفى فيها ، وهو علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش ابن أرسلان بن أطسز بن محمد بن أنوشتكين غرشه ، وكانت مدة ملكه إحدى وعشرين سنة وشهوراً ، واتسع ملكه وعظم محله ، ملك من حد العراق إلى تركستان ، وملك بلاد غزنة وبعض الهند ، وملك سجستان وكرمان وطَبَرِسْتان وجرجان وبلاد الجبال وخراسان وبعض فارس ، وكان فاضلاً عالمًا بالفقه والأصول وغيرهما ، وكان صبورًا على التعب وإدمان السير ، وسنذكر شيئاً من أخباره عند ذكر مقتل ولده جلال الدين .

ولما أيس التتر من إدراك خوارزم شاه عادوا إلى مَازَنْدَرَان ففتحوها وقتلوا أهلها ، ثم ساروا إلى الرَّى وهمذان ، ففعلوا كذلك من الفتك والسبى ، ثم ملكوا مراغة فى صفر سنة ثمان عشرة وستمائة ، ثم ساروا إلى حران واستولوا عليها ، ونازلوا خوارزم وقاتلهم أهلها مدة أشدّ قتال ثم فتحوها ، وكان لها سد فى نهر جيحون ففتحوه ، وركب خوارزم الماء فغرَّقها ، وفعلوا فى هذه البلاد جميعها من قتل أهلها وسبى ذراريهم وقتل العلماء والصلحاء والزهاد والعباد وتخريب الجوامع وتحريق المصاحف ما لم يسمع بمثله فى تاريخ قبل الإسلام ولا بعده ، فإن واقعة بختنصر مع بنى إسرائيل لا تنسب إلى بعض ما فعله هؤلاء ، فإن كل واحدة من المدن التى أخربوها أعظم من القدس بكثير ، وكل أمة قتلوهم من المسلمين ، أضعاف بنى إسرائيل الذين قتلهم بختنصر .

ولما فرغ التتر من خراسان عادوا إلى ملكهم ، فجهز جيشًا كثيفًا إلى غزنة وبها جلال الدين منكبرنى بن علاء الدين محمد خوارزم شاه المذكور مالكًا لها ، وقد اجتمع إليه جمع كثير من عسكر أبيه ، قيل كانوا ستين ألف مقاتل ، وكان الجيش الذى سار إليهم من التتر اثنى عشر ألفًا ، فالتقوا مع جلال الدين ، واقتتلوا قتالا شديداً ، وأنزل الله نصره على المسلمين وانهزمت التتر وتبعهم المسلمون يقتلونهم كيف شاءوا ، ثم أرسل جنكيز خان لعنه الله عسكرًا أكثر من أول مع بعض أولاده ، ووصلوا إلى كابل ، وتصافف معهم المسلمون ، فانهزم التتر ثانياً ، وقتل المسلمون فيهم وغنموا شيئا كثيرا .

وكان فى عسكر جلال الدين أمير كبير مقدام هو الذى كسر التتر على الحقيقة ، يقال له بغراق – وقع بينه وبين أمير كبير يقال له ملك خان ، وهو صاحب هراة ، وله نسب إلى خوارزم شاه – فتنة بسبب المكسب ، قتل فيها أخو بغراق ، فغضب بغراق وفارق جلال الدين ، وسار إلى الهند ، وتبعه ثلاثون ألف فارس ، ولحقه جلال الدين منكبرنى واستعطفه فلم يرجع ، فضعف عسكر جلال الدين بسبب ذلك ، ثم وصل جنبكيز خان اللعين بنفسه فى جيوشه ، وقد ضعف جلال الدين بما نقص من جيوشه بسبب بغراق ، فلم يكن له بجنكيز خان قدرة ، فترك جلال الدين البلاد وسار إلى الهند ، وتبعه جنكيز خان حتى أدركه على ماء عظيم ، وهو نهر السند ، ولم يلحق جلال الدين ومن معه أن يعبروا النهر ، فاضطروا إلى القتال ، وجرى بينهم وبين جنكيز خان قتال عظيم لم يسمع بمثله ، وصبر الفريقان ، ثم تأخر كل منهما عن صاحبه ، فعبر جلال الدين ذلك النهر إلى جهة الهند ، وعاد جنكيز خان ، فاستولى على غزنة ، وقتلوا أهلها ونهبوا أموالهم ، وكان قد سار من التتر فرقة عظيمة إلى جهة القفجاق واقتتلوا معهم ، فهزمهم التتر واستولوا على مدينة القفجاق العظمى وتسمى سوادق ، وكذلك فعلوا بقوم يقال لهم اللكزنى ، بلادهم قرب دَرْبَنْد شروان ثم سار التتر إلى الروس ، وانضم إلى الروس القفجاق ، وجرى بينهم وبين التتر قتال عظيم ، انتصر فيه التتر عليهم ، وشردوهم قتلا وهربًا فى البلاد .

وفيها : فى شوال ، توفى رضى الدين المؤيد بن محمد بن على الطوسى الأصل النيسابورى الدار المحدث ، وكان أعلى المتأخرين إسنادًا ، سمع كتاب مسلم من الفقيه أبى عبد الله محمد بن الفضل القراوى ، وكان القراوى فاضلًا ، قرأ الأصول على إمام الحرمين ، وسمع القراوى المذكور صحيح مسلم على عبدالغافر الفارسى ، وكان عبد الغافر إمامًا فى الحديث ، صنف شرح مسلم وغيره ، وتوفى محمد بن الفضل القراوى سنة ثلاثين وخمسمائة ، وتوفى عبد الغافر فى سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، وكانت ولادة رضى الدين المؤيد المذكور فى سنة أربع وعشرين وخمسمائة ظنًا .

ثم دخلت سنة ثمانى عشرة وستمائة :

ذكر عود دمياط إلى المسلمين

وفى هذه السنة : قوى طمع الفرنج المتملكين دمياط فى ملك الديار المصرية . وتقدموا عن دمياط إلى جهة مصر ، ووصلوا إلى المنصورة ، واشتد القتال بين الفريقين برًا وبحرًا ، وكتب

السلطان الملك الكامل متواترة إلى إخوته وأهل بيته يستحثهم على إنجاده ، فسار الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل صاحب دمشق إلى أخيه الملك الأشرف ، وهو ببلاده الشرقية واستنجده ، وطلب منه المسير إلى أخيهما الملك الكامل ، فجمع الملك الأشرف عساكره ، واستصحب عسكر حلب ، وكذلك استصحب معه الملك الناصر قليج أرسلان ابن الملك المنصور صاحب حماة ، وكان الملك الناصر خائفًا من السلطان الملك الكامل أن ينتزع حماة منه ، ويسلمها إلى أخيه الملك المظفر ، فحلف الملك الأشرف للملك الناصر صاحب حماة ، أنه ما يمكن أخاه السلطان الملك الكامل من التعرض إليه فسار معه بعسكر حماة .

وكذلك سار صحبة الملك الأشرف كل من : صاحب بعلبك الملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، وصاحب حمص الملك المجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه ابن شاذى ، وسار الملك المعظم عيسى بعسكر دمشق ، ووصلوا إلى الملك الكامل ، وهو فى قتال الفرنج على المنصورة ، فركب والتقى بأخويه ومن فى صحبتهما من الملوك وأكرمهم ، وقويت نفوس المسلمين ، وضعفت نفس الفرنج بما شاهدوه من كثرة عساكر الإسلام وتحملهم ، واشتد القتال بين الفريقين ، ورسل الملك الكامل وأخويه مترددة إلى الفرنج فى الصلح ، وبذل المسلمون لهم تسليم القدس وعسقلان وطبرية واللاذقية وجبلة ، وجميع ما فتحه السلطان صلاح الدين من الساحل ، ماعدا الكرك والشوبك ، على أن يجيبوا إلى الصلح ويسلموا دمياط إلى المسلمين ، فلم يرض الفرنج بذلك ، وطلبوا ثلثمائة ألف دينار عوضًا عن تخرب أسوار القدس ، فإن الملك المعظم عيسى خربها كما تقدم ذكره وقالوا : لابد من تسليم الكرك والشوبك .

وبينا الأمر متردد فى الصلح والفرنج ممتنعون من الصلح ، إذ عبر جماعه من عسكر المسلمين فى بحر المحلة إلى الأرض التى عليها الفرنج من بر دمياط ، ففجّروا فجوة عظيمة من النيل ، وكان ذلك فى قوة زيادته ، والفرنج لا خبرة لهم بأمر النيل فركب الماء تلك الأرض ، وصار حائلا بين الفرنج وبين دمياط ، وانقطع عنهم الميرة والمدد ، فهلكوا جوعًا ، وبعثوا يطلبون الأمان على أن ينزلوا عن جميع ما بذله المسلمون لهم ليسلموا دمياط ، ويعقدوا مده للصلح ، وكان فيهم عدة ملوك كبار ، نحو عشرين ملكاً ، فاختلفت الآراء بين يدى السلطان الملك الكامل فى أمرهم ، فبعضهم قال لا نعطيهم أمانًا ونأخذهم ونتسلم بهم ما بقى بأيديهم من الساحل مثل عكا وغيرها ، ثم اتفقت آراؤهم على إجابتهم إلى الأمان لطول مدة البيكار وتضجر العساكر ، لأنهم كان لهم ثلاث سنين وشهور فى القتال معهم ، فأجابهم الملك الكامل إلى ذلك وطلب الفرنج رهينة من الملك الكامل ، فبعث ابنه الملك الصالح أيوب ، وعمره يومئذ خمس عشرة سنة إلى الفرنج رهينة ، وحضر من الفرنج رهينة على ذلك ، ملك عكا

ونائب البابا صاحب رومية الكبرى ، وكندريس وغيرهم من الملوك ، وكان ذلك سابع رجب من هذه السنة ، واستحضر الملك الكامل ملوك الفرنج المذكورين ، وجلس لهم مجلسًا عظيمًا ، ووقف بين يديه الملوك من إخوته وأهل بيته جميعهم ، وسلمت دمياط إلى المسلمين تاسع عشر رجب من هذه السنة ، وقد حصنها الفرنج إلى غاية ما يكون ، وولاها السلطان الملك الكامل الأمير شجاع الدين جلدك التقوى ، وهو من مماليك الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب ، وهنأت الشعراء الملك الكامل بهذا الفتح العظيم ، ثم سار السلطان الملك الكامل ودخل دمياط ومعه إخوته وأهل بيته ، وكان يومًا مشهودًا ، ثم توجه إلى القاهرة ، وأذن للملوك فى الرجوع إلى بلادهم ، فتوجه الملك الأشرف إلى الشرق ، وانتزع الرقة من محمود ، وقيل اسمه عمر بن قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى بن مودود بن عماد الدين زنكى ابن أقسنقر ، ولقى بغيه على أخيه ، فإنا ذكرنا كيف وثب على أخيه وقتله وأخذ سنجار ، ثم أقام الملك الأشرف بالرقة ، وورد إليه الملك الناصر صاحب حماة فأقام عنده مدة ، ثم عاد إلى بلده .

ذكر وفاة صاحب آمد

وفى هذه السنة : توفى الملك الصالح ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن داود ابن سقمان بن أرتق ، صاحب آمد وحصن كيفا بالقولونج ، وقام فى الملك بعده ولده الملك المسعود ، وهو الذى انتزع منه الملك الكامل آمد ، وكان الملك الصالح المذكور قبيح السيرة ، وقد أورد ابن الأثير وفاته فى سنة تسع عشرة .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : فى جمادى الآخرة ، خُنِقَ قتادةُ بن إدريس العلوى الحسنى أمير مكة وعمره نحو تسعين سنة ، وكانت ولايته قد اتسعت إلى نواحى اليمن ، وكان حسن السيرة فى مبتدأ أمره ، ثم أساء السيرة وجدد المظالم والمكوس ، وصورة ما جرى له – أن قتادة كان مريضًا فأرسل عسكرًا مع أخيه ، ومع ابنه الحسن بن قتادة للاستيلاء على مدينة النبى صلى الله عليه وسلم ، وأخذها من صاحبها ، فوثب الحسن بن قتادة فى أثناء الطريق على عمه فقتله ، وعاد إلى أبيه قتادة بمكة فخنقه ، وكان له أخ نائبا بقلعة ينبع عن أبيه ، فأرسل إليه الحسن فحضر إلى مكة فقتله أيضاً ، وارتكب الحسن أمرًا عظيماً ، قتل عمه وأباه وأخاه فى أيام يسيرة ،

واستقر فى ملك مكة ، وقيل : إن قتادة كان يقول الشعر ، وطولب أن يحضر إلى أمير الحج العراقى فامتنع وعوتب من بغداد ، فأجاب بأبيات منها :

ولى كف ضرغام أصول ببطشها وأشرى بها بين الورى وأبيعُ
تظل ملوك الأرض تلثم ظهرها وفى بطنها للمجدبين ربيعُ
أأجعلها تحت الرحا ثم أبتغى خلاصًا لها ؟ إنى إذاً لرقيعُ
وما أنا إلا المسك فى كل بلدةٍ يضوعُ ، وأمّا عندكم فيضيعُ

وفيها : توفى جلال الدين الحسن ، صاحب الألموت ومقدم الإسماعيلية ، وولى بعده ابنه علاء الدين محمد .

ثم دخلت سنة تسع عشرة وستمائة :

فى هذه السنة : استقل بدر الدين لولو بملك الموصل ، وتوفى الطفل الذى كان قد نصبه فى المملكة ، وهو ناصر الدين محمود ابن الملك القاهر مسعود بن نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكى بن أقسنقر ، وسمى لولو نفسه الملك الرحيم ، وكان قد اعتضد بالملك الأشرف ابن الملك العادل ، فدافع عنه ونصره ، وقلع لولو البيت الأتابكى بالكلية ، واستمر مالكًا للموصل نيفًا وأربعين سنة ، سوى ما تقدم له من الاستيلاء والتحكم فى أيام أستاذه نور الدين أرسلان شاه ، وابنه الملك القاهر مسعود .

وفى هذه السنة : سار الملك الأشرف إلى خدمة أخيه الملك الكامل ، وأقام عنده بمصر متنزهاً إلى أن خرجت هذه السنة .

وفى هذه السنة : فوض الأتابك طغريل الخادم مدبر مملكة حلب إلى الملك الصالح أحمد بن الظاهر أمر الشغر وبكاس ، فسار الملك الصالح من حلب واستولى عليها ، وأضاف إليه الروج ومعرة ومصرين .

وفى هذه السنة : قصد الملك المعظم عيسى صاحب دمشق حماة ، لأن الملك الناصر صاحب حماة ، كان قد التزم له بمال يحمله إليه إذا ملك حماة ، فلم يف له ، فقصد الملك المعظم حماة ، ونزل بقيرين ، وغلقت أبواب حماة ، فقصدها الملك المعظم وجرى بينهم قتال قليل ، ثم ارتحل الملك المعظم إلى سَلَمْية ، فاستولى على حواصلها وولّى عليها ، ثم توجه إلى المعرة ، فاستولى عليها ، وأقام فيها واليًا من جهته ، وقرر أمورًا ، ثم عاد إلى سَلَمية فأقام بها حتى خرجت هذه السنة على قصد منازلة حماة .

وفى هذه السنة : حج من اليمن الملك المسعود يوسف ، الملقب أطسز وهو اسم تركى ،

والعامة تسميه أقسليس ، وكان قد استولى على اليمن سنة اثنتى عشرة وستمائة وقبض على سليمان شاه بن شاهنشاه بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وحج فى هذه السنة ، فلما وقف الملك المسعود فى هذه السنة بعرفة وتقدمت أعلام الخليفة الإمام الناصر ، لترفع على الجبل ، تقدم الملك المسعود بعساكره ومنع من ذلك ، وأمر بتقديم أعلام أبيه السلطان الملك الكامل على أعلام الخليفة ، فلم يقدر أصحاب الخليفة على منعه من ذلك ، ثم عاد الملك المسعود إلى اليمن ، وبلغ ذلك الخليفة فعظم عليه وأرسل يشكو إلى الملك الكامل فاعتذر عن ذلك فقبل عذره ، وأقام الملك المسعود فى اليمن مدة يسيرة ، ثم عاد إلى مكة ليستولى عليها ، فقابله الحسن بن قتادة واستقرت مكة فى ملك الملك المسعود وولى عليها ، وذلك فى ربيع الأول من سنة عشرين وستمائة ثم عاد إلى اليمن .

وفيها : توفى الشيخ يونس بن يوسف بن مساعد شيخ الفقراء المعروفة باليونسية ، وكان رجلاً صالحاً وله كرامات ، وكانت وفاته بقرية القنية من أعمال دارا وقد ناهز تسعين سنة ، وقبره مشهور هناك .

ثم دخلت سنة عشرين وستمائة :

والأشرف بديار مصر عند أخيه الملك الكامل ، وأخوهما الملك المعظم بسَلَمْيةَ مستول عليها وعلى المعرة عازم على حصار حماة ، وبلغ الملك الأشرف ما فعله أخوه المعظم بصاحب حماة ، فعظم عليه ذلك واتفق مع أخيه الكامل على الإنكار على الملك المعظم وترحيله ، فأرسل إليه الملك الكامل ناصح الدين الفارسى ، فوصل إلى الملك المعظم وهو بسَلَمْيَة وقال له السلطان يأمرك بالرحيل ، فقال : السمع والطاعة . وكانت أطماعه قد قويت على الاستيلاء على حماة فرحل مغضبًا على أخويه الكامل والأشرف ، ورجعت المعرة وسَلَمْيَة للناصر ، وكان الملك المظفر محمود بن الملك المنصور محمد بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب مقيما عند الملك الكامل بالديار المصرية كما تقدم ذكره ، وكان الملك الكامل يؤثر تمليكه حماة ، لكن الملك الأشرف غير مجيب إلى ذلك لانتهاء الملك الناصر صاحب حماة إليه ، وجرى بين الكامل والأشرف فى ذلك مراجعات كثيرة ، آخرها أنهما اتفقا على نزع سَلَمْية من يد الناصر قليج أرسلان وتسليمها إلى أخيه الملك المظفر ، فتسلمها الملك المظفر وأرسل إليها وهو بمصر نائبًا من جهته حسام الدين أبا على بن محمد بن على الهذبانى ، واستقر بيد الملك الناصر حماة والمعرة وبعرين ، ثم سار الأشرف من مصر واستصحب معه خلعة وسناجق سلطانية من أخيه الملك الكامل للملك العزيز صاحب حلب وعمره يومئذ عشر سنين ، ووصل الأشرف بذلك إلى حلب وأركب الملك العزيز فى دست السلطنة .

وفى هذه السنة : لما وصل الملك الأشرف بالخلعة المذكورة إلى حلب اتفق مع الملك الأشرف كبراء الدولة الحلبية على تخريب قلعة اللاذقية ، فأرسلوا عسكرًا وهدموها إلى الأرض .

ذكر أحوال غياث الدين أخى جلال الدين ابنى خوارزم شاه محمد

كان لجلال الدين منكبرنى أخ يقال له غياث تيز شاه ، وكان قد ملك غياث الدين المذكور كرمان ، لما توجه جلال الدين منكبرنى إلى الهند كما تقدم ذكره فى سنة سبع عشرة ، تغلب غياث الدين على الرى وأصفهان وهمذان وغير ذلك من عراق العجم ، وهى البلاد المعروفة ببلاد الجبل ، فخرج على غياث الدين خاله يعيان طابسى وكان أكبر أمرائه وأقربهم إليه ، فاقتتل مع غياث الدين فانهزم يعيان طابسى ومن معه ، وأقام غياث الدين فى بلاده مؤيدا منصورا .

ذكر حادثة غريبة

كان أهل مملكة الكرج قد مات ملكهم ، ولم يبق من بيت الملك غير امرأة فملكوها وطلبوا لها رجلا يتزوجها ويقوم بالملك ويكون من أهل بيت المملكة فلم يجدوا فيهم أحدًا يصلح لذلك ، وكان صاحب أرزن الروم مغيث الدين طغريل شاه بن قليج أرسلان السلجوقى من بيت كبير مشهور فأرسل يخطب الملكة لولده ليتزوجها فامتنعوا من إجابته إلا أن يتنصر ، فأمر ولده فتنصر ، وسار إلى الكرج وتزوج ملكتهم ، وكانت هذه الملكة تهوى مملوكًا لها ويعلم ابن طغريل شاه بذلك وتكامن فدخل يوما إلى البيت فوجد المملوك نائما معها فى الفراش ، فلم يصبر المذكور على ذلك فأنكر عليها فأخذته زوجته واعتقلته فى بعض القلاع ، ثم أحضرت رجلين كانا قد وُصِفَا لها بحسن الصورة ، فتزوجت أحدهما ثم فارقته ، وأحضرت إنسانًا من كنجة مسلما وهوته وسألته أن يتنصر لتتزوج به فلم يجب إلى ذلك ، وترددت الرسل بينهما فى ذلك مدة فلم يجبها إلى التنصر .

ذكر وفاة ملك الغرب

فى هذه السنة : توفى يوسف المستنصر ملك الغرب ابن محمد الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ، وقد تقدم ذكر ولايته فى سنة عشر وستمائة ، وكان يوسف المذكور منهمكا فى اللذات ، فدخل الوهن على الدولة بسبب ذلك ، ولم يخلف يوسف المذكور ولدًا ، فاجتمع كبراء الدولة وأقاموا عم أبيه لكبر سنة ، وهو عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن ولقبوه المستضىء وكان عبد الواحد المذكور قد صار فقيرًا بمراكش وقاسى الدهر . فلما تولى اشتغل باللذات والتنعم فى المآكل والملابس من غير أن يشرب خمرًا ، ثم خلع عبد الواحد المذكور بعد تسعة أشهر من ولايته وقتل ، وملك بعده ابن أخيه عبد الله وتلقب بالعادل وهو عبد الله بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن .

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وستمائة :

فى هذه السنة : وصل التتر إلى قرب تبريز ، وأرسلوا إلى صاحبها أزبك بن البهلوان يقولون له : إن كنت فى طاعتنا ، فأرسل من عندك من الخوارزمية إلينا ، فأوقع أزبك بمن عنده من الخوارزمية وقتل بعضهم وأسر الباقين وأرسلهم إلى التتر مع تقدمة عظيمة فكفوا عن بلاد أزبك وعادوا إلى بلاد خراسان .

وفيها : استولى غياث الدين تيز شاه أخو جلال الدين بن خوارزم شاه على غالب مملكة فارس ، وكان صاحب فارس يقال له الأتابك سعد بن دكلا ، وأقام غياث الدين بشيراز وهى كرسى مملكة فارس ، ولم يبق مع الأتابك سعد من فارس غير الحصون المنيعة ، ثم اصطلح غياث الدين مع الأتابك سعد على أن يكون لسعد بعض بلاد فارس ولغياث الدين الباقى .

ذكر عصيان المظفر غازى بن العادل على أخيه الملك الأشرف

كان الملك الأشرف قد أنعم على أخيه الملك المظفر غازى بخِلَاط ، وهى مملكة عظيمة وهى إقليم أرمينية ، وكان قد حصل بين الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وبين أخويه الكامل والأشرف وحشة بسبب ترحيله عن حماة كما قدمنا ذكره ، فأرسل المعظم وحسن لأخيه المظفر غازى صاحب خِلَاط العصيان على أخيه الملك الأشرف ، فأجاب الملك المظفر إلى ذلك ،

وخالف أخاه الملك الأشرف ، وكان قد اتفق مع المعظم والمظفر غازى صاحب أربل مظفر الدين كوكبورى بن زين الدين على كجك ، وكان بدر الدين لولو منتميًا إلى الملك الأشرف ، فسار مظفر الدين صاحب أربل وحصر الموصل عشرة أيام ، وكان نزوله على الموصل ثالث عشر جمادى الآخرة من هذه السنة ليشغل الملك الأشرف عن قصد أخيه بخلاط ، ثم رحل مظفر الدين عن الموصل لحصانتها ، فلم يلتفت الملك الأشرف إلى محاصرة الموصل ، وسار إلى خِلَاط وحصر أخاه شهاب الدين غازى فسلمت إليه مدينة خِلَاط ، وانحسر أخوه غازى بقلعتها إلى الليل فنزل من القلعة إلى أخيه الملك الأشرف ، واعتذر إليه فقبل عذره وعفا عنه وأقره على ميافارقين وارتجع باقى البلاد منه ، وكان استيلاء الملك الأشرف على خِلَاط وأخذها من أخيه فى جمادى الآخرة من هذه السنة .

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وستمائة :

ذكر وصول جلال الدين من الهند إلى البلاد

قد تقدم فى سنة سبع عشرة وستمائة ذكر هروب جلال الدين من غزنة لما قصده جنكزخان ، وأنه دخل بلاد الهند ، فلما كانت هذه السنة قدم مَن الهند إلى كرمان ثم إلى أصفهان واستولى عليها وعلى باقى عراق العجم ، ثم سار إلى فارس وانتزعها من أخيه غياث الدين تيز شاه بن محمد . وأعادها إلى صاحبها أتابك سعد بن دكلا صاحب بلاد فارس ، وصار أتابك سعد المذكور وغياث الدين تيزِ شاه أخو جلال الدين تحت حكم جلال الدين وفى طاعته ، ثم استولى جلال الدين على خُورِسْتان وكاتب الخليفة الإمام الناصر ، ثم سار جلال الدين حتى قارب بغداد ووصل إلى يعقوبا ، وخاف أهل بغداد منه واستعدوا للحصار ، ونهبت الخوارزمية البلاد ، وامتلأت أيديهم من الغنائم وقوى أمر جلال الدين وجميع عسكره الخوارزمية ، ثم سار إلى قريب أربل فصالحه صاحبها مظفر الدين ودخل فى طاعته ، ثم سار جلال الدين إلى أذربيجان وكرسى مملكتها تبريز فاستولى على تبريز وهرب صاحب أذربيجان وهو مظفر الدين أزبك بن البهلوان بن الدّكز ، وكان أزبك المذكور قد قوى أمره لما قتل طغربل آخر الملوك السلجوقية ببلاد العجم ، فاستقل أزبك المذكور فى المملكة ، وكان أزبك المذكور لايزال مشغولا بشرب الخمر وليس له التفات إلى تدبير المملكة ، فلما استولى جلال الدين على تبريز هرب أزبك إلى كنجة وهى من بلاد أران قرب بردعه ومتاخمة لبلاد الكرج ، واستقل السلطان جلال الدين بملك أذربيجان وكثرت عساكره واستفحل أمره ، ثم جرى بين

جلال الدين وبين الكرج قتال شديد انهزم فيه الكرج وتبعهم الخوارزمية يقتلونهم كيف شاءُوا واتفق أنه ثبت على قاضى تبريز وقوع الطلاق من أزبك بن البهلوان بن الدكز على زوجته بنت السلطان طغريل آخر الملوك السلجوقية المقدم ذكره ، فتزوج جلال الدين ببنت طغريل المذكور ، وأرسل جيشا إلى مدينة كنجة ففتحوها ، فهرب مظفر الدين أزبك بن محمد البهلوان من كنجة إلى قلعة هناك ، ثم هلك وتلاشى أمره .

ذكر وفاة الملك الأفضل نور الدين على ابن السلطان صلاح الدين يوسف

فى هذه السنة : توفى الملك الأفضل المذكور وليس بيده غير سُمَيْسَاط فقط ، وكان موته فجأة ، وعمره سبع وخمسون سنة ، وكان الملك الأفضل فاضلا حسن السيرة ، وتجمعت فيه الفضائل والأخلاق الحسنة ، وكان مع ذلك قليل الحظ ، وله الأشعار الحسنة ، فمنها يعرض إلى سوء حظه قوله :

يا من يسود شعره بخضابه ... لعساه من أهل الشبيبة يحصل
هافاخْتَضِبْ بسواد حظِّى مرة ... ولك الأمان بأنه لا يتصل

ولَمَّا أخذت منه دمشق كتب إلى بعض أصحابه كتابًا منه ، أما أصحابنا بدمشق فلا علم لى بأحد منهم وسبب ذلك :

أى صديق سألت عنه ففى الذلّ وتحت الخمول فى الوطن
وأى ضد سألت حالته ... سمعت ما لا تحبه أذنى

ذكر وفاة الإمام الناصر

وفى أول شوال من هذه السنة : توفى الخليفة الناصر لدين اللّٰه ، وكانت مدة خلافته نحو سبع وأربعين سنة ، وعمى فى آخر عمره ، وكان موته بالدوسنطاريا ، وهو الإمام الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضىء حسن بن المستنجد يوسف بن المقتفى محمد بن المستظهر أحمد بن المقتدى عبد الله ابن الأمير ذخيرة الدين محمد ابن القائم عبد الله ابن القادر أحمد ابن الأمير إسحق ابن المقتدر جعفر ابن المكتفى على ابن المعتضد أحمد ابن الأمير الموفق ، قيل اسمه طلحة ، وقيل محمد ابن المتوكل جعفر ابن المعتصم محمد ابن الرشيد هرون ابن

المهدى محمد ابن المنصور عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم العباس بن عبد المطلب بن هاشم ، وكان عمر الإمام الناصر نحو سبعين سنة ، وكان قبيح السيرة فى رعيته ظالمًا لهم ، خرب فى أيامه العراق وتفرق أهله فى البلاد ، وكان يتشيع وكان منصرف الهمة إلى رمى البندق والطيور المناسيب ويلبس سراويلات الفتوة ، ومنع رمى البندق إلا من ينسب إليه فأجابه الناس إلى ذلك إلا إنسانًا واحدًا يقال له ابن السفت ، وهرب من بغداد إلى الشام وقد نسب الإمام الناصر أنه هوالذى كاتب التتر وأطمعهم فى البلاد بسبب ما كان بينه وبين خوارزم شاه محمد بن تكش من العداوة ليشغل خوارزم شاه بهم عن قصد العراق .

ذكر خلافة ابنه الظاهر

ولما توفى الامام الناصر بويع ولده الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد فأظهر العدل وأزال الكوس وأخرج المحبوسين وظهر للناس ، وكان الناصر ومن قبله لا يظهرون إلا نادراً ولم تطل مدته فى الخلافة غير تسعة أشهر .

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة :

فيها : سار الملك المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق ونازل حمص ، وكان قد اتفق مع جلال الدين بن خوارزم شاه ومع مظفر الدين صاحب أربل على أن يكونوا يدًا واحدة ، وكان الملك الأشرف ببلاده الشرقية ثم رحل المعظم عن حمص إلى دمشق بسبب كثرة مامات من خيله وخيل عسكره ، وورد عليه أخوه الملك الأشرف طلبًا للصلح وقطعا للفتن ، فبقى مكرمًا ظاهرًا وهو فى الباطن كالأسير معه ، وأقام الملك الأشرف عند أخيه المعظم إلى أن انقضت هذه السنة ، وأما الملك الكامل فإنه كان بمصر وقد تخيل من بعض عسكره فما أمكنه الخروج عنها .

وفى هذه السنة : فتح السلطان جلال الدين تفليس من الكرج وهى من المدن العظام .

وفى هذه السنة : سار جلال الدين ونازل خِلَاط وهى منازلته الأولى فطال القتال بينهم ، وكان نائب الأشرف بخلّاط الحاجب حسام الدين على الموصلى ، وكان نزوله عليها ثالث عشر ذى القعدة ، ورحل عنها لسبع بقين من ذى الحجة من هذه السنة بسبب كثرة الثلوج .

ذكر وفاة الخليفة الظاهر بأمر الله

وفى رابع عشر رجب من هذه السنة : توفى الخليفة الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر لدين الله ، وكان متواضعًا محسنًا إلى الرعية جدًّا ، وأبطل عدة مظالم منها أنه كان بخزانة الخليفة صنجة زائدة يقبضون بها المال ويعطون بالصنجة التى يتعامل بها الناس ، وكان زيادة الصنجة فى كل دينار حبة، فخرج توقيع الظاهر بإبطال ذلك وأوله ﴿ويل للمطففين، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾[1] وعمل صنجة المخزن مثل صنجة المسلمين ، وكان مضادًا لأبيه الناصر فى كثير من أحواله منها : أن مدة خلافة أبيه كانت طويلة ومدة خلافته كانت قصيرة ، وكان أبوه متشيعًا وكان الظاهر سنيا ، وكان أبوه ظالمًا جماعا للمال ، وكان الظاهر فى غاية العدل وبذل الأموال للمحبوسين على الديون وللعلماء .

ذكر خلافة المستنصر
وهو سادس ثلاثينهم

ولما توفى الظاهر ولى الخلافة بعده ولده الأكبر المستنصر بالله أبو جعفر المنصور ، وكان للظاهر ولد آخر يقال له الخفاحى فى غاية الشجاعة وبقى حيا حتى أخذت التتر بغداد ، وقتل مع من قتل ، ولما تولى المستنصر الخلافة سلك فى العدل والإحسان مسلك أبيه الظاهر .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : سار علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم إلى بلاد الملك المسعود الأرتكى صاحب آمد ، فنزل كيقباذ بملَطِية ، وهى من بلاد كيقباذ وأرسل عسكرًا ففتحوا حصن منصور وحصن الكختا وكانا لصاحب آمد المذكور .

وفيها : فى خامس عشر ذى الحجة نازل جلال الدين مدينة خِلَاط ، وهى للملك الأشرف

---

(١) سورة المطففين الآيات ١ - ٣ .

ويها نائبة حسام الدين على الحاجب وهى منازلته الثانية ، وجرى بينهم قتال شديد وأدركه البرد فرحل عنها فى السنة المذكورة .

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة :

والملك الكامل بديار مصر وجلال الدين خوارزم شاه مالك أذربيجان وأران وبعض بلاد الكرج وعراق العجم وغيرها ، وهو موافق الملك المعظم على حرب أخويه الكامل والأشرف ، والرسل لا تنقطع بين المعظم وجلال الدين والملك الأشرف مقيم كالأسير عند أخيه الملك المعظم ، ولما رأى الملك الأشرف حاله مع أخيه المعظم ، وأنه لا خلاص له منه إلا بإجابته إلى ما يريد إجابة كالمكره إلى ماطلبه منه ، وحلف له أن يعاضده ويكون معه على أخيهما الملك الكامل ، وأن يكون معه على صاحبى حماة وحمص ، فلما حلف له على ذلك أطلقه الملك المعظم فرحل الملك الأشرف فى جمادى الآخرة من هذه السنة ، فكانت مدة مقامه مع المعظم نحو عشرة أشهر ، ولما استقر الملك الأشرف ببلاده رجع عن جميع ما تقرر بينه وبين أخيه الملك المعظم وتأول فى أيمانه التى حلفها أنه مكره ، ولما تحقق الملك الكامل اعتضاد أخيه الملك المعظم بجلال الدين خاف من ذلك وكاتب الإمبراطور ملك الفرنج فى أن يقدم إلى عكا ليشغل سر أخيه المعظم عما هو فيه ، ووعد الإمبراطور بأن يعطية القدس ، فسار الإمبراطور إلى عكا فبلغ المعظم ذلك ، فكاتب أخاه الأشرف واستعطفه .

وفى هذه السنة : انتزع الأتابك طغريل الشعر وبكاس من الملك الصالح أحمد ابن الملك الظاهر وعوضه عنها بعينتاب والراوندان .

وفيها : سار الحاجب حسام الدين على نائب الملك الأشرف بخلاط بعساكر الملك الأشرف إلى بلاد جلال الدين واستولى على خوى وسلماس ونقجوان .

ذكر وفاة الملك المعظم صاحب دمشق

فى هذه السنة : فى ذى القعدة ، توفى الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بقلعة دمشق بالدوسنطاريا ، وعمره تسع وأربعون سنة ، وكانت مدةملكه دمشق تسع سنين وشهوراً ، وكان شجاعًا وكان عسكره فى غاية التجمل ، وكان يجامل أخاه الملك الكامل ويخطب له ببلاده ولا يذكر اسمه معه ، وكان الملك المعظم قليل التكلف جدًا فى غالب الأوقات لا يركب بالسناجق السلطانية ، وكان يركب وعلى رأسه كلوته صفر أبلاشاش ، ويتنحرق الأسواق من غير أن يطرق بين يديه ، كما جرت عادة الملوك ، ولما كثر مثل هذا منه صار

الإنسان إذا فعل أمراً لا يتكلف له يقال قد فعله بالمعظمى ، وكان عالمًا فاضلاً فى الفقه والنحو ، وكان شيخه فى النحو تاج الدين زيد بن الحسن الكندى ، وفى الفقه جمال الدين الحصيرى وكان حنفيًا متعصبًا لمذهبه ، وخالف جميع أهل بيته فإنهم كانوا شافعية .

ولما توفى الملك المعظم ترتب فى مملكته وأعمالها بعده ولده الملك الناصر صلاح الدين داود وقام بتدبير مملكته مملوك والده واستاذ داره الأمير عز الدين أيبك المعظمى ، وكان لأيبك المذكور صرخد .

ذكر وفاة ملك المغرب وأخبار الذين تملكوا بعده

وفى هذه السنة : خلع العادل عبد الله بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن وقد تقدم ذكر ولايته فى سنة عشرين وستمائة بعد خلع عبد الواحد وقتله ، وفى أيام العادل عبد الله المذكور ، كانت الوقعة بين المسلمين والفرنج بالأندلس على طليطلة انهزمت فيها المسلمون هزيمة قبيحة ، وهذه الوقعة هى التى هدت دعائم الإسلام بالأندلس ، ولما خلع عبد الله العادل المذكور حبس ثم خنق ونهب المصموديون قصره بمراكش واستباحوا حرمه .

ثم ملك بعده يحيى بن محمد الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ، ويحيى يومئذ ماخط عذاره ، ولما تمت بيعة يحيى وصل الخبر أنه قد قام بأشبيلية إدريس بن يعقوب المنصور وهو أخو العادل عبدالله ، وتلقب إدريس بالمأمون ، وجميعهم كانوا يتلقبون بأمير المؤمنين ، وتعقد البيعة لهم بالخلافة ، ولما استقر أمر إدريس المأمون المذكور فى أشبيلية ، ثارت جماعة من أهل مراكش وانضم إليهم العرب ، ووثبوا على يحيى بن محمد الناصر بمراكش فهرب يحيى إلى الجبل ، ثم اتصل بعرب المعقلى فغدروا به وقتلوه ، وخطب للمأمون إدريس فى مراكش واستقر أمره فى الخلافة بالبرين بر الأندلس وبر العدوة ، ثم خرج على المأمون إدريس المذكور بشرق الأندلس المتوكل بن هود ، واستولى على الأندلس ، ففارق إدريس الأندلس وسار من أشبيلية وعبر البحر ووصل إلى مراكش ، وخرجت الأندلس حينئذ عن ملك بنى عبد المؤمن . ولما استقر المأمون إدريس فى ملك مراكش تتبع الخارجين على من تقدمه من الخلفاء فقتلهم عن آخرهم وسفك دماء كثيرة حتى سموه لذلك حجاج المغرب ، وكان المأمون إدريس المذكور فصيحًا عالمًا بالأصول والفروع ناظمًا ناثراً ، أمر بإسقاط اسم مهديهم ابن تومرت من الخطبة على المنابر ، وعمل فى ذلك رسالة طويلة أفصح فيها بتكذيب مهديهم المذكور وضلالة ، ثم ثار على إدريس المذكور أخوه بسبتة فسار إدريس من مراكش إليه

وحصره بسبتة ، ثم بلغ إدريس وهو محاصر سبتة أن بعض أولاد محمد الناصر بن يعقوب المنصور قد دخل إلى مراكش فرحل إدريس عن سبتة ، وسار إلى مراكش فمات فى الطريق بين سبتة ومراكش .

ولما مات المأمون إدريس ملك بعده ابنه عبد الواحد بن المأمون إدريس وتلقب المذكور بالرشيد ، ثم توفى الرشيد عبد الواحد بن المأمون إدريس بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن غريقًا فى صهريج بستان له بحضرة مراكش فى سنة أربعين وستمائة ، وكان الرشيد عبد الواحد المذكور حسن السياسة ، وكان أبوه إدريس قد أبطل اسم مهديهم من الخطبة فأعاده عبد الواحد المذكور ، وقمع العرب إلا أنه تخلى للذاته لما استقر أمره ، ولم يخطب للرشيد عبد الواحد المذكور بأفريقية ولا بالغرب الأوسط ، ولما مات الرشيد عبد الواحد المذكور ملك بعده أخوه على بن إدريس وتلقب بالمعتضد أمير المؤمنين ، وكان أسود اللون كان مدحوضًا فى حياة والده وسجنه فى بعض الأوقات ، وقدم عليه أخاه الصغير عبد الواحد المذكور ، واستمر المعتضد على بن إدريس المذكور حتى قتل وهو محاصر قلعة بالقرب من تلمسان فى صفر من سنة ست وأربعين وستمائة ، ثم ملك بعد المعتضد الأسود المذكور أبو حفص عمر بن أبى إبراهيم بن يوسف فى شهر ربيع الآخر من سنة ست وأربعين وستمائة وتلقب بالمرتضى .

وفى الحادى والعشرين من المحرم سنة خمس وستين وستمائة دخل الواثق أبو العلاء إدريس المعروف بأبى دبوس مراكش ، وهرب المرتضى إلى أزمور من نواحى مراكش فقبض عليه عامله بها ، وبعث إلى الواثق بذلك فأمره الواثق بقتله فقتله فى العشر الأخير من شهر ربيع الآخر من سنة خمس وستين وستمائة بموضع يقال له كتامة بُعده عن مراكش ثلاثة أيام ، وأقام الواثق أبو دبوس ثلاث سنين وقتل فى الحروب التى كانت بينه وبين بنى مرين ملوك تلمسان ، وانقرضت دولة بنى عبد المؤمن ، وكان قتل الواثق أبى دبوس المذكور فى المحرم سنة ثمان وستين وستمائة بموضع بينه وبين مراكش مسيرة ثلاثة أيام فى جهتها الشمالية ، واستولى بنو مرين على ملكهم ، وقد حصل الاختلاف فى نسب أبى دبوس فإنى وجدت فى بعض الكتب المؤلفة فى هذا الفن أن أبا دبوس هو ابن إدريس المأمون ، ثم وجدت نسبه فى وفيات الأعيان
١ أنه هو نفسه اسمه إدريس بن عبد الله بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وستمائة :

فى هذه السنة : أرسل الملك الكامل صاحب مصر يطلب من ابن أخيه الملك الناصر داود

ابن الملك المعظم صاحب دمشق حصن الشوبك ، فلم يعطه الملك الناصر ذلك ولا أجابه إليه ، فسار الملك الكامل من مصر فى هذه السنة فى رمضان إلى الشام ونزل على تل العجول بظاهر غزة ، وولى على نابلس والقدس وغيرهما من بلاد ابن أخيه الملك الناصر داود المذكور صاحب دمشق حينئذ ، وكان صحبة الملك الكامل الملك المظفر محمود بن السلطان الملك المنصور صاحب حماة ، وهو موعود من الملك الكامل أنه ينتزع حماة من أخيه الناصر قليج أرسلان ابن الملك المنصور ويسلمها إليه . .

ولما قصد الملك الكامل انتزاع بلاد الملك الناصر ابن المعظم صاحب دمشق ، استنجد الناصر داود بعمه الملك الأشرف ، وأرسل إليه وهو ببلاده الشرقية ، فقدم الملك الأشرف إلى دمشق ودخل هو والناصر داود إلى قلعة دمشق راكبين .

قال القاضى جمال الدين بن واصل : كنت إذ ذاك حاضرًا بدمشق ورأيت الملك الأشرف راكبًا مع ابن أخيه وعلى رأس الملك الأشرف شاش علم كبير ووسطه مشدود بمنديل ، وكان وصول الأشرف إلى دمشق فى العشر الأخير من رمضان من هذه السنة ، ووصل إلى خدمته بدمشق الملك المجاهد شيركوه ، فإنه كان من المنتمين إلى الملك الأشرف ، ثم وقع الاتفاق أن يسير الناصر داود وشيركوه مع الملك الأشرف إلى نابلس فيقيم الناصر داود بنابلس ، ويتوجه الملك الأشرف إلى أخيه الكامل إلى غزة شافعًا فى ابن أخيهما الناصر داود ففعلوا ذلك ، ولما وصل الملك الأشرف إلى أخيه الكامل وقع اتفاقهما فى الباطن على أخذ دمشق من ابن أخيهما الناصر داود وتعويضه عنها بحران والرها والرقة من بلاد الملك الأشرف ، وأن تستقر دمشق للملك الأشرف ويكون له إلى عقبة أفيق ، وما عدا ذلك من بلاد دمشق يكون للملك الكامل ، وأن ينتزع حماة من الملك الناصر قليج أرسلان ، ويعطى الملك المظفر محمود بن الملك المنصور ، وأن ينتزع سَلَمْيَة من المظفر محمود ، وكانت إقطاعه لما كان مقيما بمصر عند الملك الكامل ، ويعطى لشيركوه صاحب حمص وخرجت السنة والأشرف عند أخيه الكامل بظاهر غزة وقد اتفقا على ذلك .

ذكر غير ذلك

وفى هذه السنة : عاود التتر إلى قصد البلاد التى بيد جلال الدين بن خوارزم شاه ، وجرت بينه وبينهم حروب كثيرة كان فى أكثرها الظفر .

وفيها : قدم الإمبراطور إلى عكا بجموعه ، وكان الملك الكامل قد أرسل إليه فخر الدين ابن الشيخ يستدعيه إلى قصد الشام بسبب أخيه المعظم ، فوصل الإمبراطور وقد مات المعظم

فنشب به الملك الكامل . ولما وصل الإمبراطور استولى على صيدا وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج ، وسورها خراب فعمر الفرنج سورها واستولى عليها الإمبراطور معناه ملك الأمراء بالفرنجية ، وإنما اسم الإمبراطور المذكور فرديك وكان صاحب جزيرة صقلية ومن البر الطويل بلاد أنبولية والأنبردية .

قال القاضي جمال الدين بن واصل : لقد رأيت تلك البلاد لما توجهت رسولاً من الملك الظاهر بيبرس الصالحي إلى الإمبراطور ملك تلك البلاد ، قال : وكان الإمبراطور من بين ملوك الفرنج فاضلاً محبًا للحكمة والمنطق والطب مائلا إلى المسلمين ، لأن منشأه بجزيرة صقلية وغالب أهلها مسلمون ، وترددت الرسل بين الملك الكامل وبين الإمبراطور إلى أن خرجت هذه السنة .

وفي هذه السنة : بعد فراغ جلال الدين من التتر قصد جلال الدين المذكور بلاد خلاط ونهب القرى وقتل وخرب البلاد وفعل الأفعال القبيحة .

وفيها : خاف غياث الدين تيزشاه من أخيه جلال الدين ففارقه واستجار بالإسماعيلية .

ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائة :

ولما جرى بين السلطان الملك الكامل وبين أخيه الملك الأشرف الاتفاق على نزع دمشق من الناصر داود ، وبلغ الناصر داود ذلك وهو بنابلس فرحل إلى دمشق ، وكان قد لحقه بالغور عمه الملك الأشرف وعرفه ما أمر به عمه الملك الكامل ، وأنه لا يمكنه الخروج عن مرسومه فلم يلتفت الناصر داود إلى ذلك وسار إلى دمشق وسار الأشرف في أثره وحصره بدمشق والملك الكامل مشتغل بمراسله الإمبراطور .

ولما طال الأمر ولم يجد الملك الكامل بدًّا من المهادنة أجاب الإمبراطور إلى تسليم القدس إليه على أن تستمر أسواره خرابا ولا يعمرها الفرنج ولا يتعرضوا إلى قبة الصخرة ولا إلى الجامع الأقصى ويكون الحكم في الرساتيق إلى وإلى المسلمين ، ويكون لهم من القرايا ما هو على الطريق من عكا إلى القدس فقط ، ووقع الاتفاق على ذلك وتحالفا عليه وتسلم الإمبراطور القدس في هذه السنة في ربيع الآخر على هذه القاعدة التي ذكرناها ، وكان ذلك والملك الناصر محصور بدمشق وعمه الأشرف محاصره بأمر الملك الكامل ، فأخذ الناصر داود في التشنيع على عمه بذلك ، وكان بدمشق الشيخ شمس الدين يوسف سبط أبي الفرج ابن الجوزي وكان واعظا وله قبول عند الناس فأمره الناصر داود يعمل مجلس وعظ يذكر فيه فضائل بيت المقدس وما حل بالمسلمين من تسليمه إلى الفرنج ففعل ذلك وكان مجلسا عظيما ، ومن جملة ما أنشد قصيدة تائية ضمنها بيت دعبل الخزاعي وهو :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنـزل وحى مقفر العـرصات

فارتفع بكاء الناس وضجيجهم .

ذكر انتزاع دمشق

ولما عقد الملك الكامل الهدنة مع الإمبراطور وخلا سره من جهة الفرنج سار إلى دمشق ووصل إليها فى جمادى الأولى من هذه السنة ، واشتد الحصار على دمشق ووصل إلى الملك الكامل رسول الملك العزيز صاحب حلب وخطب بنت الملك الكامل فزوجه بنته فاطمة خاتون التى هى من الست السوداء أم ولده أبى بكر العادل بن الكامل ، ثم استولى الملك الكامل على دمشق وعوض الناصر داود عنها بالكرك والبلقاء والصلت والأغوار والشوبك ، وأخذ الملك الكامل لنفسه البلاد الشرقية التى كانت عينت للناصر وهى حران والرها وغيرهما التى كانت بيد الملك الأشرف ، ثم نزل الناصر داود عن الشوبك وسأل عمه الكامل فى قبولها فقبلها وتسلم دمشق الملك الأشرف وتسلم الكامل من الأشرف البلاد الشرقية المذكورة .

ذكر وفاة الملك المسعود صاحب اليمن ابن الملك الكامل ابن الملك العادل بن أيوب

فى هذة السنة : توفى الملك المسعود يوسف الملقب أطز المعروف بأقسيس ، وكان قد مرض باليمن فكره المقام بها وعزم على مفارقة اليمن وسار إلى مكة وهى له كما تقدم ذكره ، فتوفى بمكة ودفن بالمعلى وعمره ست وعشرون سنة ، وكانت مدة ملكه اليمن أربع عشره سنة ، وكان الملك المسعود لما سار من اليمن قد استخلف على اليمن على بن رسول ، وسنذكر بقية أخباره إن شاء الله تعالى .

ووصل الخبر بوفاة الملك المسعود إلى أبيه الملك الكامل وهو على حصار دمشق فجلس للعزاء ، وخلف الملك المسعود ولدًا صغيرًا اسمه أيضًا يوسف وبقى يوسف المذكور حتى مات فى سلطنة عمه الملك الصالح أيوب صاحب مصر ، وخلف يوسف ولدًا صغيرًا اسمه موسى ولقب الملك الأشرف وهو الذى أقامه الترك فى مملكة مصر بعد قتل الملك المعظم ابن الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر القبض على الحاجب نائب الملك الأشرف بخِلَاط وقتله

وفى هذه السنة : أرسل الملك الأشرف مملوكه عز الدين أيبك الأشرفى وهو أكبر أمير عنده إلى خِلَاط فقبض على الحاجب على الموصلى وحبسه ثم قتله ، وكان حسام الدين على الحاجب المذكور من أهل الموصل ، وخدم الملك الأشرف فجعله نائبه بخِلَاط فأحسن إلى الرعية وحفظ البلد واستولى على عدة بلاد من أذربيجان مثل نقجوان وغيرها على ما تقدم ذكره ، فقبض عليه الملك الأشرف وقتله قيل إن ذلك لذنب منه لم يطلع عليه الناس واطلع عليه الملك الكامل والملك الأشرف ، وهذا الحاجب حسام الدين المذكور كان كثير الخير والمعروف ، بنى الخان الذى بين حران ونصيبين ، وبنى الخان الذى بين حمص ودمشق ، وهو الخان المعروف بخان بريح العطش ، وهرب مملوك لحسام الدين الحاجب المذكور لما قتل أستاذه ولحق بجلال الدين، فلما ملك جلال الدين خِلَاط على ما سنذكره قبض على أيبك المذكور وسلمه إلى المذكور فقتله وأخذ بثأر أستاذه .

ذكر استيلاء الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور محمد على حماة

ولما سلم الملك الكامل دمشق إلى أخيه الملك الأشرف سار من دمشق ونزل على مجمع المروج ثم نزل سَلَمْية وأرسل عسكرًا نازلوا حماة وبها صاحبها الملك الناصر قليج أرسلان وكان فيه جبن ، ولو عصى بحماة وطلب عنها عوضًا كثيرًا لأجابه الملك الكامل إليه ولكنه خاف ، وكان فى العسكر الذين نازلوه شيركوه صاحب حمص فأرسل الناصر صاحب حماة يقول لشيركوه إنى أريد أن أخرج إليك بالليل لتحضرنى عند السلطان الملك الكامل ، وخرج الملك الناصر قليج أرسلان ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب المذكور إلى شيركوه فى العشر الأخير من رمضان هذه السنة ، وأخذه شيركوه ومضى به إلى الملك الكامل وهو نازل على سَلَمْية ، فحين رأى الملك الكامل قليج أرسلان المذكور شتمه وأمر باعتقاله ، وأن يتقدم إلى نوابه بحماة بتسليمها إلى الملك الكامل ، فأرسل الناصر قليج أرسلان علامته إلى نوابه بحماة أن يسلمها إلى عسكر السلطان الملك الكامل فامتنع من ذلك الطواشيان بشر ومرشد المنصوريان ، وكان بقلعة حماة أخ للملك الناصر يلقب الملك المعز ابن الملك المنصور صاحب حماة فملكوه حماة ، وقالوا للملك الكامل لا نسلم حماة لغير أحد من أولاد تقى الدين ، فأرسل الملك الكامل يقول للملك المظفر محمود ابن الملك المنصور صاحب

حماة اتفق مع غلمان أيبك ، وتسلم حماة وكان الملك المظفر نازلا على حماة من جملة العسكر الكاملى فراسل الملك المظفر الحكام بحماة فحلفوا له وواعدوا الملك المظفر أن يحضر بجماعته خاصة وقت السحر إلى باب النصر ليفتحوه له ، فحضر الملك المظفر سحر الليلة التى عينوها ففتحوا له باب النصر ودخل الملك المظفر ومضى إلى دار الوزير المعروفة بدار الإكرام داخل باب المغار وهى الآن مدرسة تعرف بالخاتونية وقفتها عمة مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر المذكور ، وحضر أهل حماة وهنئوا الملك المظفر بملك حماة وكان ذلك فى العشر الأخير من رمضان من هذه السنة ، وكان مدة ملك الملك الناصر قليج أرسلان حماة تسع سنين إلا نحو شهرين ، وأقام الملك المظفر فى دار الإكرام يومين وصعد فى اليوم الثالث إلى القلعة وتسلمها ، وجاء عيد الفطر من هذه السنة والملك المظفر مالك حماة وعمره يومئذ نحو سبع وعشرين سنة ، لأن مولده سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، وكان أخوه الملك الناصر قليج أرسلان أصغر منه بسنة .

ولما ملك الملك المظفر حماة فوض تدبير أمورها صغيرها وكبيرها إلى الأمير سيف الدين على الهدبانى وكان سيف الدين على ابن أبى على المذكور قد خدم الملك المظفر بعد ابن عمه حسام الدين ابن أبى على الذى كان نائب الملك المظفر بسَلَمْية لما سلمت إليه وهو بمصر عند الملك الكامل ، ثم حصل بين الملك المظفر وبين حسام الدين ابن أبى على وحشة ففارقه حسام الدين المذكور واتصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل وحظى عنده وصار أستاذ داره ، وخدم ابن عمه سيف الدين على المذكور الملك المظفر وكان يقول له : أشتهى أراك صاحب حماة وأكون بعين واحدة فأصيب عين سيف الدين على على حصار حماة لما نازلها عسكر الملك الكامل وبقى بفرد عين ، فحظى عند الملك المظفر لذلك ، ولكفاية سيف الدين المذكور وحسن تدبيره .

ولما استقر الملك المظفر فى ملك حماة انتزع الملك الكامل سَلَمْية منه وسلمها إلى شيركوه صاحب حمص على ما كان وقع عليه الاتفاق من قبل ذلك ، ثم إن الملك الكامل رسم للملك المظفر أن يعطى أخاه الملك الناصر قليج أرسلان بارين بكمالها ، فامتثل ذلك وسلم قلعة بارين إلى أخيه الملك الناصر ، ولم يبق بيد الملك المظفر غير حماة والمعرة ، وكان بحماة تقدير أربعمائة ألف درهم للملك الناصر ، وكان قد رسم الملك الكامل للملك المظفر أن يعطى المال المذكور أخاه الملك الناصر فماطل المظفر فى ذلك ولم يحصل للملك الناصر من ذلك شىء ولما استقر الملك المظفر بحماة مدحه الشيخ شرف الدين عبد العزيز محمد بن عبد المحسن الأنصارى الدمشقى بقصيدة من جملتها :

تناهى إليك الملك واشتد كاهله وحل بك الراجى فحطت رواحله

ترحلت عن مصر فأمحل ربعها　　ولما حللت الشام روض ما حله
وعزت حماة فى حمى أنت غاية　　بصـولتـه تحمى كليب ووائـله
وقد طال ما ظلت بتدبير أهوج　　يخيب مـرجيه ويحـرم سـائله

ولما استقر الملك المظفر فى ملك حماة رحل الملك الكامل عن سَلَمْية إلى البلاد الشرقية التى أخذها من أخيه الملك الأشرف عوضا عن دمشق فنظر فى مصالحها ، ثم سافر الملك المظفر من حماة ولحق الملك الكامل وهو بالشرق ، وعقد له الملك الكامل العقد هناك على ابنته غازية خاتون بنت الملك الكامل وهى شقيقة الملك المسعود صاحب اليمن ، وهى والدة الملك المنصور صاحب حماة وأخيه الملك الأفضل نور الدين على ابنى الملك المظفر محمود ، ثم عاد الملك المظفر إلى حماة وقد قضيت أمانيه بملك حماة ووصلته بخاله الملك الكامل وكان يتمنى ذلك لما كان بالديار المصرية ، وكان يصحبه وهو بمصر رجل من أهلها يقال له الزكى القومصى فاتفق وهما بمصر وقد جرى ذكر ملك الملك المظفر حماة وزواجه بنت خاله الملك الكامل فأنشده الزكى القومصى :

متى أراك كما أهوى وأنت ومن　　تهوى كأنكما روحان فى بـدن
هنـاك أنشد والأقـدار مصغيـة　　هنيت بالملك والأحباب والوطن

فقال له الملك المظفر : إن صار ذلك يازكى أعطيتك ألف دينار مصرية ، فلما ملك الملك المظفر حماة أعطى الزكى ما وعده به ، ولما فرغ الملك الكامل من تقرير أمر البلاد الشرقية وهى حران وما معها من البلاد مثل رأس عين والرها وغير ذلك عاد إلى الديار المصرية .

وفى هذه السنة : أرسل الملك الأشرف أخاه صاحب بصرى الملك الصالح إسماعيل ابن الملك العادل بعسكر فنازل بعلبك وبها صاحبها الملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه ابن أيوب واستمر الحصار عليه .

وفيها : سار جلال الدين ملك الخوارزمية وحاصر خِلَاط وبها أيبك نائب الملك الأشرف إلى أن خرجت هذه السنة .

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمائة :

ذكر عمارة شميميش

فى هذه السنة : شرع صاحب حمص شيركوه فى عمارة قلعة شميميش وكان لما سلم إليه الملك الكامل سَلَمْية قد استأذنه فى عمارة تل شميميش قلعة فأذن له بذلك ، ولما أراد شيركوه عمارته أراد الملك المظفر صاحب حماة منعه من ذلك ثم لم يمكنه ذلك لكونه بأمر الملك الكامل .

ذكر استيلاء الملك الأشرف على بعلبك

وفى هذه السنة : سلم الملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب بعلبك إلى الملك الأشرف لطول الحصار عليه ، وعوضه الملك الأشرف عنها الزيدانى وقصير دمشق الذى هو شماليها ومواضع أخر. وتوجه الملك الأمجد وأقام بداره التى داخل باب النصر بدمشق المعروفة بدار السعادة وهى التى ينزلها النواب .

ذكر مقتل الملك الأمجد

لما أخذت منه بعلبك ونزل بداره المذكورة كان قد حبس بعض مماليكه فى مرقد عنده بالدار ، وجلس الملك الأمجد قدام باب المرقد يلعب بالنرد ، ففتح المملوك المذكور الباب ومعه سيف وضرب به أستاذه الملك الأمجد فقتله ، ثم طلع المملوك إلى سطح الدار وألقى نفسه إلى وسطها فمات ، ودفن الملك الأمجد بمدرسة والده التى على الشرف ، وكانت مدة ملكه بعلبك تسعًا وأربعين سنة ، لأن عم أبيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين ملكه بعلبك سنة ثمان وسبعين وخمسمائة لما مات أبوه فرخشاه وانتزعت منه هذه السنة ، فذلك خمسون سنة إلا سنة ، وكان الملك الأمجد أشعر بنى أيوب وشعره مشهور .

ذكر ملك جلال الدين خِلَاط

فى هذه السنة : لما طال حصار جلال الدين على خِلَاط واشتد مضايقتها هجم بالسيف وفعل فى أهلها ما يفعلونه التتر من القتل والاسترقاق والنهب ، ثم قبض على نائب الملك الأشرف بها وهو مملوكه أيبك وسلمه إلى مملوك حسام الدين الحاجب على الموصل فقتله وأخذ بثأر أستاذه .

ذكر كسرة جلال الدين ابن الملك الأشرف

ولما جرى من جلال الدين ما جرى من أخذ خِلَاط اتفق صاحب الروم كيقباذ بن كيخسرو ابن قليج أرسلان والملك الأشرف ابن الملك العادل فجمع الملك الأشرف عساكر الشام وسار

إلى سيواس واجتمع فيها بملك بلاد الروم علاء الدين كيقباذ المذكور وسار إلى جهة خلاط ، والتقى الفريقان فى التاسع والعشرين من رمضان من هذه السنة فولى الخوارزميون وجلال الدين منهزمين ، وهلك غالب عسكره قتلا وترديا من رءوس جبال كانت فى طريقهم وضعف جلال الدين بعدها وقويت عليه التتر وارتجع الملك الأشرف خلاط وهى خراب يباب ، ثم وقعت المراسلة بين الملك الأشرف وكيقباذ وجلال الدين وتصالحوا وتحالفوا على ما بأيديهم وأن لا يتعرض أحد منهم إلى ما بيد الآخر .

وفى هذه السنة : استولى الملك المظفر غازى ابن الملك العادل على أرزن من ديار بكر وهى غير أرزن الروم ، وكان صاحب أرزن ديار بكر يقال له حسام الدين من بيت قديم فى الملك فأخذها منه الملك المظفر غازى المذكور وعوضه عن أرزن بمدينة حانى وهذا حسام الدين من بيت كبير يقال لهم بيت الأحدب وأرزن لم تزل بأيديهم من أيام السلطان ملك شاه السلجوقى إلى الآن فسبحان من لا يزول ملكه .

وفيها : جمعت الفرنج من حصن الأكراد وقصدوا حماة فخرج إليهم الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور صاحب حماة والتقاهم عند قرية بين حماة وبارين يقال لها لفيون وكسرهم كسرة عظيمة ودخل الملك المظفر محمود حماة مؤيدًا منصورًا .

وفيها : ولد الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز صاحب حلب

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة :

والسلطان الملك الكامل بديار مصر وأخوه الملك الأشرف بدمشق فى ملاذه وقد تخلى عن البلاد الشرقية فإن حران وما معها صارت لأخيه الملك الكامل وخلاط صارت خرابا يبابا ولم يكن للملك الأشرف ابن ذكر فاقتنع بدمشق واشتغل باللهو والملاذ .

وفيها : سار الملك الأشرف من دمشق إلى عند أخيه الملك الكامل وأقام عنده بالديار المصرية متنزها .

ذكر قصة التتر فى بلاد الإسلام

وفى هذه السنة : عاودت التتر قصد بلاد الإسلام وسفكوا وخربوا مثل ما تقدم ذكره ، وكان قد ضعف جلال الدين لقبح سيرته وسوء تدبيره ، ولم يترك له صديقًا من ملوك الأطراف وعادى الجميع وانضاف إلى ذلك أن عسكره اختلف عليه لما حصل لجلال الدين من فساد عقله وسببه أنه كان له مملوك يحبه محبة شديدة واتفق موت ذلك المملوك فحزن عليه حزنا شديدا لم

يسمع بمثله وأمر أهل توريز بالخروج والنواح واللطم عليه ، ثم إنه لم يدفنه وبقى يستصحب ذلك المملوك الميت معه حيث سار وهو يلطم ويبكى ، وكان إذا قدم إليه الطعام يرسل منه إلى المملوك الميت ولا يتجاسر أحد أن يتفوه أنه ميت فكانوا يحملون إليه الطعام ويقولون إنه يقبل الأرض وهو يقول إنى الآن أصلح مما كنت فأنف أمراؤه من ذلك وخرج بعضهم عن طاعته فضعف أمر جلال الدين لذلك ولكسرته من الملك الأشرف فتمكنت التتر من البلاد واستولوا على مراغة وهو استيلاؤهم الثانى .

ذكر قتل جلال الدين

ولما تمكن التتر من بلاد أذربيجان سار جلال الدين يريد ديار بكر ليسير إلى الخليفة ويلتجىء إليه ويعتضد بملوك الأطراف على التتر ويخوفهم عاقبة أمرهم فنزل بالقرب من آمد فلم يشعر إلا والتتر قد كبسوه ليلا وخالطوا مخيمه فهرب جلال الدين وقتل على ما نشرحه إن شاء الله تعالى .

ولما قتل تمكن التتر من البلاد وساقوا حتى وصلوا فى هذه السنة إلى الفرات واضطرب الشام بسبب وصولهم إلى الفرات ثم شنوا الغارات فى ديار بكر والجزيرة وفعلوا من القتل والتخريب مثل ما تقدم .

ومن تاريخ ظهور التتر : تصنيف كاتب إنشاء جلال الدين النسوى المنشى المقدم الذكر فى سنة ست عشرة وستمائة ما اخترناه وأثبتناه من أخبار خوارزم شاه محمد وابنه جلال الدين لملازمة النسوى المذكور جلال الدين فى جميع سفراته وغزواته إلى أن كبس التتر جلال الدين ، والمنشى المذكور كان معه فلذلك كان أخبر بأحوال جلال الدين ووالده من غيره .

قال محمد المنشى المذكور : إن خوارزم شاه محمد بن تكش عظم شأنه واتسع ملكه وكان له أربعة أولاد قسم البلاد بينهم ، أكبرهم جلال الدين منكبرنى وفوض إليه ملك غزنة وباميان والغور وبست وتكاباد وزميز داور وما يليها من الهند ، وفوض خوارزم وخراسان ومازندران إلى ولده قطب الدين أزلاغ شاه وجعله ولى عهده ، ثم فى آخر وقت عزله عن ولاية العهد وفوضها إلى جلال الدين منكبرنى ، وفوض كرمان وكبش ومكران إلى ولده غياث الدين تيز شاه ، وقد تقدمت أخباره ، وفوض العراق إلى ولده ركن الدين غورشاه يحيى ، وكان أحسن أولاده خلقًا وخلقًا ، وقتل المذكور التتر بعد موت أبيه ، وضرب لكل واحد منهم النوب الخمس فى أوقات الصلوات على عادة الملوك السلجوقية ، وانفرد أبوهم خوارزم شاه محمد بنوبة ذى القرنين وأنها تضرب وقتى طلوع الشمس وغروبها ، وكانت دبادبه سبعًا وعشرين

دبدبة من الذهب قد رصعت بأنواع الجوهر وكذا باقى الآلات النوبتية وجعل سبعة وعشرين ملكا يضربونها فى أول يوم قرعت ، وكانوا من أكابر الملوك أولاد السلاطين منهم طغريل بن أرسلان السلجوقى ، وأولاد غياث الدين صاحب الغور ، والملك علاء الدين صاحب باميان والملك تاج الدين صاحب بلخ وولده الملك الأعظم صاحب ترمذو الملك سنجر صاحب بخارى وأشباههم وكانت أم خوارزم شاه محمد تركان خاتون من قبيلة بياووت وهى فرع من فروع يمسك ، وكانت بنت ملك من ملوكهم تزوج بها تكش بن أرسلان بن أطز بن محمد بن أنوشتكين غرشه ، فلما صار الملك إلى ولده محمد بن تكش قدم إلى والدته تركان خاتون قبائل يمسك من الترك فعظم شان ابنها السلطان محمد بهم وتحكمت أيضا بسببهم تركان خاتون فى الملك فلم يملك ابنها إقليما إلا وأفرد لخاصها منه ناحية جليلة ، وكانت ذات مهابة ورأى وكانت تنتصف للمظلوم من الظالم وكانت جسورة على القتل وعظم شأنها بحيث إذا ورد توقيعان عنها وعن السلطان ابنها تنظر إلى تاريخها فيعمل بالأخير منها وكان طغر توقيعها عصمة الدنيا والدين آلغ تركان ملكة نساء العالمين وعلامتها اعتصمت بالله وحده ، وكانت تكتبها بقلم غليظ وتجود الكتابة .

قال المؤلف المذكور : ثم إن خوارزم شاه محمد لما هرب من التتر بما وراء النهر وعبر جيحون ثم سار إلى خراسان والتتر تتبعه ثم هرب من خراسان ووصل إلى عراق العجم ونزل عند بسطان أحضر عشرة صناديق ثم قال إنها كلها جواهر لا تعلم قيمتها ثم أشار إلى صندوقين منها وقال إن فيهما من الجواهر مايساوى خراج الأرض بجملتها ، ثم أمر بحملها إلى قلعة أزدهن وهى من أحصن قلاع الأرض وأخذ خط النائب بها بوصول الصناديق المذكورة مختومة ، فلما استولى جنكز خان على تلك البلاد حملت إليه الصناديق المذكورة بختومها ، ثم إن التتر أدركوا السلطان محمد المذكور فهرب وركب فى المركب ولحقه التتر ورموه بالنشاب ونجا السلطان منهم وقد حصل له مرض ذات الجنب .

قال : ووصل إلى جزيرة فى البحر وأقام بها فريدًا طريدًا لا يملك طارقًا ولا تليدًا والمرض يزداد وكان فى أهل مازندران أناس يتقربون إليه بالمأكول وما يشتهيه فقال فى بعض الأيام إنى أشتهى يكون عندى فرس يرعى حول خيمتى وقد ضربت له خيمة صغيرة فأهدى إليه فرس أصفر وكان للسلطان محمد المذكور ثلاثون ألف جشار من الخيل وكان إذا أهدى إليه أحد شيئا وهو على تلك الحالة فى الجزيرة من مأكول وغيره يطلق لذلك الشخص شيئا ولم يكن عنده من يكتب التواقيع فيتولى ذلك الرجل كتابة توقيعه بنفسه وكان يعطى مثل السكين والمنديل علامة بإطلاق البلاد والأموال ، فلما تولى ابنه جلال الدين أمضى جميع ما أطلقه والده بالتواقيع والعلائم ، ثم أدركت السلطان محمد المنية وهو بالجزيرة على تلك الحالة فغسله شمس الدين

محمود بن بلاغ الجاويش ومقرب الدين مقدم القراشين ولم يكن عنده ما يكفن به فكفن بقميصه ودفن بالجزيرة فى سنة سبع عشرة وستمائة بعد أن كان بابه مزدحماً بملوك الأرض وعظمائها يشتدرون بجنابه ويتفاخرون بلثم ترابه ، ورقى إلى درجة الملوكية جماعة من مماليكه وحاشيته فصار طشتداره وركيداره وسلحداره وجنداره وغيرهم من أرباب الوظائف كلهم ملوكًا ، وكان فى أعلامهم علامات سود يعرفون بها ، فعلامة الدوادار الدواه والسلحدار القوس وعلامة الطشتدار المسينة والجمدار النفجه وعلامة أميراخور النعل وعلامة الجاويشية قبة ذهب ، وكان يمد السماط بين يديه ويأكل الناس ويرفع من الطعام الذى فى صدر السماط إلى بين يدى الأكابر إذا قعدوا على السماط للأكل ، وكانت الزبادى كلها ذهبية وفضية ، وكان السلطان محمد المذكور يختص بأمور لا يشاركه فيها أحد منها المجتر منشورًا على رأسه إذا ركب ومنها اللكح وهى أنبوبة تتخذ من الذهب الأحمر بين أذنى مركوب السلطان يخرج منها المعرفة وتشد إلى طرف اللجام ، ومنها الأعلام السود والسروج السود والنفج السود محمولة على أكتاب الجمدارية ولا تحمل لغيره على الكتف ، ومنها أن جنائبه كانت تجر قدامه وجنائب غيره من الملوك كانت تجر وراءهم ، ومنها أن أذناب خيله تلف من أوساطها مدار شبرين ، ومنها الجلوس بين يديه على الركبتين لمن يّريد مخاطبته .

قال المؤلف المذكور : ثم سار جلال الدين بعد موت أبيه السلطان محمد من الجزيرة إلى خوارزم ثم هرب من التتر ولحق بغزنة وجرى بينه وبين التتر من القتال ، فهرب جلال الدين من غزنة إلى الهند فلحقه جنكزخان على ماء السند وتصافقا صبيحة يوم الأربعاء لثمان خلون من شوال سنة ثمانى عشرة وستمائة ، وكانت الكرة أولا على جنكز خان ثم عادت على جلال الدين وحال بينهما الليل ، وولى جلال الدين منهزما وأسر ولد جلال الدين وهو ابن سبع أو ثمان سنين وقتل بين يدى جنكز خان صَبرًا ، ولما عاد جلال الدين إلى حافة ماء السند كسيرًا ورأى والدته وأم ولده وجماعة من حرمه يصحن بالله عليك اقتلنا أو خلصنا من الأسر فأمر بهن فغرقن وهذه من عجائب البلايا ونوادر المصائب والرزايا ثم اقتحم جلال الدين وعسكره ذلك النهر العظيم فنجا منهم إلى ذلك البر تقدير أربعة آلاف رجل حفاة عراة ورمى الموج جلال الدين مع ثلاثة من خواصة إلى موضع بعيد وفقده أصحابه ثلاثة أيام وبقى أصحابه لفقده حائرين وفى تيه الفكر سائرين إلى أن اتصل بهم جلال الدين فاعتدوا بمقدمه عيدًا وظنوا أنهم أنشئوا خلقًا جديداً ، ثم جرى بين جلال الدين وبين أهل تلك البلاد وقائع انتصر فيها جلال الدين ووصل إلى لهاوور من الهند ، ولما عزم جلال الدين على العود إلى جهة العراق استناب بهلوان أزبك على ما كان يملكه من بلاد الهند واستناب معه حسن فراق ولقبه وفا ملك وفى سنة سبع وعشرين وستمائة طرد وفا ملك بهلوان أزبك واستولى وفاملك على ما كان يليه البهلوان من بلاد الهند ، ثم إن جلال الدين عاد من الهند ووصل إلى كرمان فى سنة إحدى وعشرين

وستمائة وقاسى هو وعسكره فى البرارى القاطعة بين كرمان والهند شدائد ووصل معه أربعة آلاف رجل بعضهم ركاب أبقار وبعضهم ركاب حمير ، ثم سار جلال الدين إلى خورستان واستولى عليها ثم استولى على أذربيجان ثم استولى على كنجة وسائر بلاد أران ثم إن جلال الدين نقل أباه من الجزيرة إلى قلعة أزدهن ودفنه بها ، ولما استولى التتر على القلعة المذكورة نبشوه وأحرقوه وهذا كان فعلهم فى كل ملك عرفوا قبره فإنهم نبشوا محمود بن سبكتكين من غزنة وأحرقوا عظامه .

ثم ذكر ما تقدمت الإشارة إليه من استيلاء جلال الدين على خِلَاط وغير ذلك ، ثم ذكر نزوله على جسر قريب آمد وإرساله يستنجد الملك الأشرف ابن الملك العادل فلم ينجده ، وعزم جلال الدين على المسير إلى أصفهان ثم انثنى عزمه عنه وبات بمنزله وشرب تلك الليلة فسكر سكرًا خماره دوار الرأس وتقطع الأنفاس وأحاط التتر به وبعسكره مصبحين :

فماهم وبسطهم حرير وصبحهم وبسطهم تراب
ومن فى كفه منهم قناة كمن فى كفه منهم خضاب

وأحاطت أطلاب التتر بحركات جلال الدين وهونائم سكران فحمل بعض عسكره وهو أرخان وكشف التتر عن الحركات ودخل بعض الخواص وأخذ بيد جلال الدين وأخرجه وعليه طاقية بيضاء فأركبه الفرس وساق أرخان مع جلال الدين وتبعه التتر فقال جلال الدين لأرخان انفرد عنى بحيث تشتغل التتر بتتبع سوادك وكان ذلك خطأ منه فإن أرخان تبعه جماعة من العسكر وصاروا تقدير أربعة آلاف فارس وقصد أصفهان واستولى عليها مدة ، ولما انفرد جلال الدين عن أرخان ساق إلى باسورة آمد فلم يمكن من الدخول إلى آمد ، فسار إلى قرية من قرى ميا فارقين طالبا شهاب الدين غازى ابن الملك العادل صاحب ميافارقين ، ثم لحقه التتر فى تلك القرية فهرب جلال الدين إلي جبل هناك وبه أكراد يتخطفون الناس فأخذوه وشلحوه وأرادوا قتله فقال جلال الدين لأحدهم إنى أنا السلطان فاستبقنى أجعلك ملكا فأخذه الكردى وأتى به إلى امرأته وجعله عندها ومضى الكردى إلى الجبل لإحضار ماله هناك فحضر شخص كردى ومعه حربة وقال للمرأة لم لا تقتلون هذا الخوارزمى فقالت المرأة لا سبيل إلى ذلك فقد أمنه زوجى ، فقال الكردى إنه السلطان وقد قتل لى أخا بخَلاط خيرًا منه وضربه بالحربة فقتله ، وكان جلال الدين أسمر قصيرا تركى السارة والعبارة وكان يتكلم بالفارسية أيضا ويكاتب الخليفة على مبدأ الأمر على ما كان يكاتبه به أبوه خوارزم شاه محمد ، فكان يكتب خادمه المطواع منكبرنى ثم بعد أخذ خِلَاط كاتبه بعبده ، وكان يكتب إلى ملك الروم وملوك مصر والشام اسمه واسم أبيه ولم يرض أن يكتب لأحد منهم خادمه أو أخوه أو غير ذلك ، وكانت علامته على تواقيعه النصرة من الله وحده وكان إذا كاتب صاحب الموصل أو أشباهه

يكتب له هذه العلامة تعظيما عن ذكر اسمه ، وكان يكتب العلامة بقلم غليظ وكان جلال الدين يخاطب بخزاوند عالم أى صاحب العالم وكان مقتله فى منتصف شوال من هذه السنة أعنى سنه ثمان وعشرين وستمائة .

وهذا ما نقلناه من تاريخ محمد المنشى وهو ممن كان فى خدمة جلال الدين إلى أن قتل ، وكان كاتب الإنشاء الذى له وكان محظيًا متقدما عنده .

ذكر غير ذلك

وفى هذه السنة : انتهى التاريخ الكامل تأليف الشيخ عزالدين على المعروف بابن الأثير الجزرى المنقول غالب هذا المختصر منه فإنه ألفه من هبوط آدم إلى سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وتوفى عز الدين ابن الأثير المذكور فى سنة ثلاثين وستمائة على ما سنذكره إن شاء الله تعالى بعد آخر تاريخه بسنتين .

وفيها : فى ذى القعدة توفى بالقاهرة أبو الحسن يحيى بن عبد المعطى بن عبد النور الزواوى النحوى الحنفى ، كان أحد أئمة عصره فى النحو واللغة وسكن دمشق زمانًا طويلًا وصنف تصانيف مفيدة منها منظومته الألفية المشهورة ، وكان مولده سنة أربع وستين وخمسائة ، والزواوى منسوب إلى زواوة وهى قبيلة كبيرة بظاهر بجاية من أعمال أفريقية .

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة :

والسلطانان الكامل والأشرف بالديار المصرية والملك المظفر بحماة مالكها ومعها المعرة وأخوه الملك الناصر قليج أرسلان ببارين مالكها والعزيز محمد بن الظاهر غازى قد استقل بملك حلب والتتر قد استولوا على بلاد العجم كلها والخليفة المستنصر بالعراق ، ثم ارتحل فى هذه السنة الملك الكامل وأخوه الملك الأشرف من ديار مصر وسارا إلى البلاد الشرقية فسار الملك الكامل إلى الشوبك واحتفل له الملك الناصر دادود ابن المعظم عيسى ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب احتفالا عظيمًا بالضيافات والإقامات والتقادم وحصل بينهما الاتحاد التام ، وكان نزول الملك الكامل باللجون قرب الكرك وهى منزلة الحجاج فى العشر الأخير من شعبان هذه السنة ، ووصل إليه باللجون صاحب حماة الملك المظفر محمود ملتقيا وسافر الناصر داود مع الملك الكامل بعسكره إلى دمشق واستصحب الملك الكامل معه ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب وجعل نائبه بمصر وولده وولى عهده الملك العادل سيف الدين أبا بكر ابن الملك الكامل ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، ثم سار الملك الكامل ونزل سَلَمْية واجتمع معه ملوك أهل

بيته فى جمع عظيم ، ثم سار بهم إلى آمد وحصرها وتسلمها من صاحبها الملك المسعود ابن الملك الصالح محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق ومحمد بن قرا أرسلان المذكور هو الذى ملكه السلطان صلاح الدين آمد بعد انتزاعها من ابن نيسان ، وكان سبب انتزاع الملك الكامل آمد من الملك المسعود المذكور لسوء سيرة الملك المسعود وتعرضه لحريم الناس ، وكان له عجوز قوادة يقال لها الإزاء كانت تؤلف بينه وبين نساء الناس الأكابر ونساء الملوك ، ولما نزل الملك المسعود إلى خدمة الملك الكامل وسلم آمد وبلادها إليه ، ومن جملة معاقلها حصن كيفا وهو فى غاية الحصانة أحسن الملك الكامل إلى الملك المسعود وأعطاه أقطاعا جليلة بديار مصر ، ثم بدت منه أمور اعتقله الملك الكامل بسببها ، ولم يزل الملك المسعود معتقلا إلى أن مات الملك الكامل فخرج من الاعتقال واتصل بحماة فأحسن إليه الملك المظفر محمود صاحب حماة ، ثم سافر الملك المسعود المذكور إلى الشرق واتصل بالتتر فقتلوه .

ولما تسلم الملك الكامل آمد وبلادها رتب فيها النواب من جهته وجعل فيها ولده الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل وجعل معه شمس الدين صواب العادلى وخرجت هذه السنة والملك الكامل بالشرق، ولما خرج الملك الكامل من مصر فى هذه السنة خرج صحبته وبنتاه فاطمة خاتون زوجة الملك العزيز صاحب حلب وغازية خاتون زوجة الملك المظفر صاحب حماة بنتا الملك الكامل ، وحملت كل منهما إلى بعلها واحتفل لدخولها بحماة وحلب .

وفى هذه السنة : ظنا توفى على ابن رسول النائب على اليمن واستقر مكانه ولده عمر بن على .

ثم دخلت سنة ثلاثين وستمائة :

فى هذه السنة : رجع السلطان الملك الكامل من البلاد الشرقية بعد ترتيب أمورها وسار إلى ديار مصر ورجع كل ملك إلى بلده .

ذكر استيلاء الملك العزيز محمد بن الظاهر صاحب حلب على شَيْزَر

وكانت شيزر بيد شهاب الدين يوسف بن مسعود بن سابق الدين عثمان بن الداية ، وكان سابق الدين عثمان بن الداية المذكور وإخوته من أكابر أمراء نور الدين محمود بن زنكى ، ثم اعتقل الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين الشهي سابق الدين عثمان ابن الداية وشمس الدين أخاه ، فأنكر السلطان صلاح الدين عليه ذلك وجعله حجة لقصد الشام وانتزاعه من

الملك الصالح إسماعيل ، فاتصل أولاد الداية بخدمة السلطان صلاح الدين ، وصاروا من أكبر أمرائه ، وكانت شيزر إقطاع سابق الدين المذكور فأقره السلطان صلاح الدين عليها وزاده أبا قبيس لما قتل صاحبها حماردكن ثم ملك شيزر بعده ولده مسعود بن عثمان حتى مات وصارت لولده شهاب الدين يوسف المذكور إلى هذه السنة ، فسار الملك العزيز صاحب حلب بأمر الملك الكامل وحاصر شيزر وقدم إليه وهو على حصارها الملك المظفر محمود صاحب حماة مساعدًا له ، فسلم شهاب الدين يوسف شيزر إلى الملك العزيز ونزل إلى خدمته فتسلمها فى هذه السنة وهنأ الملك العزيز يحيى بن خالد بن قيسرانى بقوله :

يا مالكا عم أهل الأرض نائله   وخص إحسانه الدانى مع القاصى
لما رأت شيزر آيات نصرك في   أرجائها ألقت العاصى إلى العاصى

ثم ولى الملك العزيز على شيزر وأحسن إلى الملك المظفر محمود صاحب حماة ورحل كل منهما إلى بلده .

وفى هذه السنة : استأذن الملك المظفر محمود صاحب حماة الملك الكامل فى انتزاع بارين من أخيه قليج أرسلان لأنه خشى أن يسلمها إلى الفرنج لضعف قليج أرسلان عن مقاومتهم فأذن الملك الكامل له فى ذلك ، فسار الملك المظفر من حماة وحاصر بارين وانتزعها من أخيه قليج أرسلان ابن الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، ولما نزل قليج أرسلان إلى أخيه الملك المظفر أحسن إليه وسأله فى الإقامة عنده بحماة ، فامتنع وسار إلى مصر ، فبذل له الملك الكامل إقطاعا جليلا وأطلق له أملاك جده بدمشق ، ثم بدا منه مالا يليق من الكلام فاعتقله الملك الكامل إلى أن مات قليج أرسلان المذكور فى الحبس سنة خمس وثلاثين وستمائة قبل موت الملك الكامل بأيام .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : توفى مظفر الدين كوكبورى بن زين الدين على كجك وقد تقدم ذكر ملكه أربل بعد موت أخيه نور الدين يوسف بن زين الدين على فى سنة ست وثمانين وخمسمائة لما كانا فى خدمة السلطان صلاح الدين فى الجهاد بالساحل فبقى مالكها من تلك السنة إلى هذه السنة ، ولما مات مظفر الدين المذكور لم يكن له ولد فوصى بأربل وبلادها للخليفة المستنصر فتسلمها الخليفة بعد موت مظفر الدين المذكور ، وكان مظفر الدين ملكا شجاعًا وفيه عسف فى استخراج الأموال من الرعية ، وكان يحتفل بمولد النبى صلى الله عليه وسلم وينفق فيه الأموال الجليلة .

وفيها : فى شعبان توفى الشيخ عز الدين على بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى ولد بجزيرة ابن عمر فى رابع جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وخمسمائة ونشأ بها ، ثم سار إلى الموصل مع والده وإخوته وسمع بها من أبى الفضل عبد الله بن أحمد الخطيب الطوسى ومن فى طبقته ، وقدم بغداد مرارًا حاجاً ورسولا من صاحب الموصل وسمع من الشيخين يعيش بن صدقة وعبد الوهاب بن على الصوفى وغيرهما ، ثم رحل إلى الشام والقدس وسمع هناك من جماعة ، ثم عاد إلى الموصل وانقطع فى بيته للتوفير على العلم ، وكان إمامًا فى علم الحديث وحافظًا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة وخبيرًا بأنساب العرب وأخبارهم ، صنف فى التاريخ كتابا كبيرًا سماه الكامل وهو المنقول منه غالب هذا المختصر ، ابتدأ فيه من أول الزمان إلى سنة ثمان وعشرين وستمائة وله كتاب أخبار الصحابة فى ست مجلدات واختصر كتاب الأنساب للسمعانى وهو الموجود فى أيدى الناس دون كتاب السمعانى وورد إلى حلب فى سنة ست وعشرين وستمائة ونزل عند الطواشى طغريل الأتابك بحلب فأكرمه إكراما زائدًا ، ثم سافر إلى دمشق سنة سبع وعشرين ثم عاد إلى حلب فى سنة ثمان وعشرين ، ثم توجه إلى الموصل فتوفى بها فى التاريخ المذكور ونسبة الجزيرة إلى ابن عمر وهو رجل من أهل برقعيد من أعمال الموصل اسمه عبد العزيز بن عمر بنى هذه المدينة فأضيفت إليه .

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وستمائة :

فى هذه السنة : فى المحرم توفى شهاب الدين طغريل الأتابك بحلب .

ذكر مسير السلطان الملك الكامل من مصر إلى قتال كيقباذ ملك بلاد الروم

فى هذه السنة : وقع من كيقباذ بن كيخسرو ملك بلاد الروم التعرض إلى بلادِ خِلَاط ، فرحل الملك الكامل بعساكره من مصر واجتمعت عليه الملوك من أهل بيته ونزل شمالى سَلَمْية فى شهر رمضان من هذه السنة ، ثم سار بجموعه ونزل على النهر الأزرق فى حدود بلد الروم ، وقد ضرب فى عسكره سنة عشر دهليزًا لستة عشر ملكًا فى خدمته منهم إخوته الملك الأشرف موسى صاحب دمشق والملك المظفر غازى صاحب ميافارقين والملك الحافظ أرسلان شاه صاحب قلعة جعبر والصالح إسماعيل أولاد الملك العادل والملك المعظم توران شاه ابن

السلطان صلاح الدين كان قد أرسله ابن أخيه الملك العزيز صاحب حلب مقدما على عسكر حلب إلى خدمة السلطان الملك الكامل والملك الزاهر صاحب البيرة داود بن السلطان صلاح الدين وأخوه الملك الأفضل موسى صاحب صميصات ابن السلطان صلاح الدين وكان قد ملكها بعد أخيه الملك الأفضل على والملك المظفر محمود صاحب حماة ابن الملك المنصور محمد والملك الصالح أحمد صاحب عينتاب ابن الملك الظاهر صاحب حلب ، والملك الناصر داود صاحب الكرك ابن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل ، والملك المجاهد شيركوه صاحب حمص بن محمد بن شيركوه ، وكان قد حفظ كيقباذ ملك بلاد الروم الدربندات بالرجال والمقاتلة ، فلم يتمكن السلطان من الدخول إلى بلاد الروم من جهة النهر الأزرق ، وأرسل بعض العسكر إلى حصن منصور وهو من بلاد كيقباذ فهدموه ، ورحل السلطان وقطع الفرات ، وسار إلى السويداوقدم جاسته تقدير ألفين وخمسمائة فارس مع الملك المظفر صاحب حماة ، فسار الملك المظفر بهم إلى خَرْتَبَرْتْ وسار كيقباذ ملك الروم إليهم واقتتلوا فانهزم العسكر الكاملي وانحصر الملك المظفر صاحب حماة في خَرْتَبَرْتْ مع جملة مع العسكر وجد كيقباذ في حصارهم والملك الكامل بالسويدا ، وقد أحسَّ من الملوك الذين في خدمته بالمخامرة والتقاعد ، فإن شيركوه صاحب حمص سعى إليهم وقال إن السلطان ذكر أنه متى ملك بلاد الروم فرقه على الملوك من أهل بيته عوض مابأيديهم من الشام ويأخذ الشام جميعه لينفرد بملك الشام ومصر ، فتقاعدوا عن القتال وفسدت نياتهم وعلمَ الملك الكامل بذلك فما أمكنه التحرك إلى قتال كيقباذ لذلك ، ودام الحصار على الملك المظفر صاحب حماة فطلب الأمان فأمنه كيقباذ ونزل إليه الملك المظفر فأكرمه كيقباذ وخلع عليه ونادمه ، وتسلم كيقباذ خَرْتَبَرْتْ وأخذها من صاحبها ، وكان من الأرتقية قرايب أصحاب ماردين ، وكان قد دخل في طاعة الملك الكامل وصارت خَرْتَبَرْتْ من بلاد كيقباذ ، وكان نزول المظفر صاحب حماة من خَرْتَبَرْتْ يوم الأحد لسبع بقين من ذى القعدة ، وأقام عند كيقباذ يومين ثم أطلقه وسار من عنده الخمس بقين من ذى القعدة من هذه السنة ، أعنى سنة إحدى وثلاثين وستمائة ، ووصل بمن معه إلى الملك الكامل وهو بالسويدا من بلاد آمد ففرح به وقوى نفرة السلطان الملك الكامل يومئذ من الناصر داود صاحب الكرك ، فألزمه بطلاق بنته فطلقها الناصر داود وأثبت الملك الكامل طلاقها منه .

وفى هذه السنة : استتم بناء قلعة المَعرة ، وكان قد أشار سيف الدين على بن أبى على الهذبانى على الملك المظفر صاحب حماة ببنائها فبناها وتمت الآن وشحنها بالرجال والسلاح ، ولم يكن ذلك مصلحة لأن الحلبيين حاصروها فيها بعد وأخذوها وقربت المعرة بسببها .

وفى هذه السنة : توفى سيف الدين الآمدى وكان فاضلا فى العلوم العقلية والأصولية

وغيرها واسمه على بن أبى على بن محمد بن سالم الثعلبى ، وكان فى مبتدأ أمره حنبليا ، ثم انتقل وصار فقيها شافعيًا ، واشتغل بالأصول وصنف فى أصول الفقه وأصول الدين والمعقولات عدة مصنفات ، وأقام بمصر مدة وتصدر فى الجامع وفى المدرسة الملاصقة لتربة الشافعى ، وتحامل عليه الفقهاء الفضلاء وعملوا محضرًا ونسبوه فيه إلى انحلال العقيدة ومذهب الفلاسفة ، وحملوا المحضر إلى بعض الفقهاء الفضلاء ليكتب خطه حسبما وضعوا خطوطهم به فكتب :

حسدوا الفتى إذْ لم ينالوا سعيه فالقوم أعداء له وخصوم

ولما جرى ذلك استتر الآمدى المذكور وسار إلى حماة وأقام فيها مدة ، ثم عاد إلى دمشق حتى توفى بها فى هذه السنة ، وكانت ولادته فى سنة إحدى وخمسين وخمسمائة .

وفيها : توفى الصلاح الأربلى ، وكان فاضلًا شاعرًا أميرًا محظيًا عند الملكين الكامل والأشرف ابنى الملك العادل .

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وستمائة :

والملك الكامل بالبلاد الشرقية وقد انثنى عزمه عن قصد بلاد الروم للتخاذل الذى حصل فى عسكره ، ثم رحل وعاد إلى مصر وعاد كل واحد من الملوك إلى بلده .

وفيها : توفى الملك الزاهر داود صاحب البيرة ابن السلطان صلاح الدين ، وكان قد مرض فى العسكر الكاملى فحمل إلى البيرة مريضًا وتوفى بها وملك البيرة بعده ابن أخيه الملك العزيز محمد صاحب حلب ، وكان الزاهر المذكور شقيق الظاهر صاحب حلب .

وفيها : توفى القاضى بهاء الدين بن شداد فى صفر ، وكان عمره نحو ثلاث وتسعين سنة ، وصحب السلطان صلاح الدين وكان قاضى عسكره ، ولما توفى صلاح الدين كان عمر القاضى المذكور نحو خمسين سنة ، ونال القاضى بهاء الدين المذكور من المنزلة عند أولاد صلاح الدين وعند الأتابك طغريل ما لم ينلها أحد ، ولم يكن فى أيامه من اسمه شداد بل لعل ذلك فى نسب أمه فاشتهر به وغلب عليه ، وأصله من الموصل ، وكان فاضلًا ديناً وكان إقطاعه على الملك العزيز ما يزيد على مائة ألف درهم فى السنة .

وفيها : لما سارت الملوك إلى بلادهم من خدمة الملك الكامل ، وصل الملك المظفر صاحب حماة ودخلها لخمس بقين من ربيع الأول من هذه السنة ، واتفق مولد ولده الملك المنصور محمد بعد مقدمه بيومين فى الساعة الخامسة من يوم الخميس لليلتين بقيتا من ربيع الأول من هذه السنة ، أعنى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ، فتضاعف السرور بقدوم الوالد والولد قال الشيخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد قصيدة طويلة فى ذلك فمنها :

غدا الملك محروس الذرى والقواعد بأشرف مولود لأشرف والد

حبينا به يوم الخميس كأنه　　خميس بدا للناس فى شخص واحد
وسميته باسم النبى محمد　　وجديه فاستوفى جميع المحامد

أى باسم جديه الملك الكامل محمد والد والدته والملك المنصور محمد صاحب حماة والد والده

ومنها

كأنى به فى سدة الملك جالسًا　　وقد ساد فى اوصافه كل سائد
ووافاك من أبنائه وبنيهم　　بأنجم سعد نورها غير خامد
ألا أيها الملك المظفر دعونى　　ستورى بها زندى ويشتد ساعدى
هنيئًا لك الملك الذى بقدومه　　ترحل عنا كل هم معاود

وفيها : لما تفرقت العساكر الكاملية ، قصد كيقباذ بن كيخسرو صاحب بلاد الروم حران والرها وحاصرهما واستولى عليهما ، وكانا للسلطان الملك الكامل .

وفيها : توفى بالقاهرة القاسم بن عمر بن على الحموى المصرى الدار المعروف بابن الفارض ، وله أشعار جيدة منها قصيدته التى عملها على طريقة الفقراء وهى مقدار ستمائة بيت .

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وستمائة :

فى هذه السنة : سار الناصر داود من الكرك إلى بغداد ملتجئًا إلى الخليفة المستنصر لما حصل عنده من الخوف من عمه الملك الكامل ، وقدّم إلى الخليفة تحفًا عظيمة وجواهر نفيسة ، فأكرمه الخليفة المستنصر وخلع عليه وعلى أصحابه ، وكان الناصر داود يظن أن الخليفة يستحضره فى ملأ من الناس كما استحضر مظفر الدين صاحب أربل فلم يحصل له ذلك وألح فى طلب ذلك من الخليفة فلم يجب فعمل الناصر المذكور قصيدة يمدح المستنصر فيها ويعرض بصاحب أربل واستحضاره ويطلب الأسوة به وهى قصيدة طويلة منها :

فأنت الإمام العدل والمفرق الذى　　به شرفت أنسابه ومناصبه
جمعت شتيت المجد بعد افتراقه　　وفرقت جمع المال فانهال كاتبه
ألا يا أمير المؤمنين ومن غدت　　على كاهل الجوزاء تعلو مراتبه
أيحسن فى شرع المعالى ودينها　　وأنت الذى تعزى اليك مذاهبه
بأنى أخوض الدو والدو مقفر　　مآريه مغبرة وسباسبه
وقد رصد الأعداء لى كل مرصد　　فكلهم نحوى تدب عقاربه

ومنها :

وتسمح لى بالمال والجاه بغيتى — وما الجاه إلا بعض ما أنت واهبه
ويأتيك غيرى من بلاد قريبة — له الأمن فيها صاحب لا يجانبه
فيلقى دنوا منك لم ألق مثله — ويحظى وما أحظى بما أنا طالبه
وينظر من لألآء قدمك نظرة — فيرجع والنور الإمامى صاحبه
ولو كان يعلونى بنفس ورتبة — وصدق ولاء لست فيه أصاقبه
لكنت أسلى النفس عما أرومه — وكنت أذود العين عما يـراقبه
ولكنـه مثـلى ولـو قلت أننى — أزيد عليه لم يعب ذاك عائبه
وما أنا ممن يملأ المال عينـه — ولا يسوى التقريب تقضى مآربه

وكان الخليفة متوقفا على استحضار الناصر داود رعاية لخاطر الملك الكامل فجمع بين المصلحتين واستحضره ليلا ثم عاد الملك الناصر إلى الكرك .

وفى هذه السنة : سار السلطان الملك الكامل من مصر إلى البلاد الشرقية واسترجع حران والرها من يد كيقباذ صاحب بلاد الروم وأمسك أجناد كيقباذ ونوابه الذين كانوا بهما وقيدهم وأرسلهم إلى مصر فلم يستحسن ذلك منه ، ثم عاد الملك الكامل إلى دمشق وأقام عند أخيه الملك الأشرف حتى خرجت هذه السنة .

وفى هذه السنة : توفى شرف الدين محمد بن نصر بن عنين الزرعى الشاعر المشهور ، وكان شاعرا مفلقًا وكان يكثر هجو الناس ، عمل قصيدة خمسمائة بيت سماها مقراض الأعراض لم يسلم منها أحد من أهل دمشق ، ونفاه السلطان صلاح الدين إلى اليمن فمدح صاحبها طغتكين بن أيوب وحصل له منه أموال كثيرة عمل بها ابن عنين متجرًا وقدم به إلى مصر وصاحبها حينئذ العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين فلما أخذت من ابن عنين زكاة ما معه على عادة التجار قال فى العزيز :

ما كان من يتسمى بالعزيز لها — أهل ولا كل برق سحبه غدقه
بين العزيزين بون فى فعـالهما — هذاك يعطى وهذا يأخذ الصدقه

ثم سار ابن عنين المذكور إلى دمشق ولازم الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وبقى عنده وتوفى بدمشق فى هذه السنة وديوانه مشهور .

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وستمائة :

فيها : عاد السلطان الملك الكامل إلى الديار المصرية .

ذكر وفاة الملك العزيز صاحب حلب

وفى هذه السنة : كان قد خرج الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازى ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى حارم للصيد ورمى البندق واغتسل بماء بارد فحم ودخل إلى حلب وقد قويت به الحمى واشتد مرضه وتوفى فى ربيع الأول من هذه السنة ، وكان عمره ثلاثا وعشرين سنة وشهورًا ، وكان حسن السيرة فى رعيته ، ولما توفى تقرر فى الملك بعده ولده الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز محمد وعمره نحو سبع سنين ، وقام بتدبير الدولة شمس الدين لولو الأرمنى وعز الدين عمر بن مجلى وجمال الدولة إقبال الخاتونى والمرجع فى الأمور إلى والدة الملك العزيز ضيفة خاتون بنت الملك العادل .

وفى هذه السنة : توفى علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو صاحب بلاد الروم وملك بعده ابنه غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطالمش بن أرسلان بن سلجوق .

وفى هذه السنة : قويت الوحشة بين الملك الكامل وبين أخيه الملك الأشرف وكان ابتداؤها مافعله شيركوه صاحب حمص لما قصد الملك الكامل بلاد الروم فاتفق الملك الأشرف مع صاحبة حلب ضيفة خاتون أخت الملك الكامل ومع باقى الملوك على خلاف الملك الكامل خلا الملك المظفر صاحب حماة ، فلما امتنع تهدده الملك الأشرف بقصد بلاده وانتزاعها منه فقدم خوفًا من ذلك إلى دمشق وحلف للملك الأشرف ووافقه على قتال الملك الكامل ، وكاتب الملك الأشرف كيخسرو صاحب بلاد الروم واتفق معه على قتال أخيه الملك الكامل إلى أن خرج من مصر ، وأرسل الملك الأشرف يقول للناصر داود صاحب الكرم إنك إن وافقتنى جعلتك ولى عهدى وأوصيت لك بدمشق وزوجتك بابنتى فلم يوافقه الناصر على ذلك لسوء حظه ، ورحل إلى الديار المصرية إلى خدمة الملك الكامل وصار معه على ملوك الشام فسر به الملك الكامل وجدد عقده على ابنته عاشور التى طلقها منه وأركب الناصر داود بسناجق السلطنة ووعده أن ينتزع دمشق من الملك الأشرف أيه ويعطيه إياها وأمر الملك الكامل أمراء مصر وولده الملك العادل أبا بكر ابن الملك الكامل فحملوا الغاشية بين يدى الملك الناصر داود وبالغ فى إكرامه .

وفى هذه السنة : توجه عسكر حلب مع الملك المعظم توران شاه عم الملك العزيز فحاصروا بغراس وكان قد عمرها الداويه بعد ما فتحها السلطان صلاح الدين وخربها وأشرف عسكر حلب على أخذها ثم رحلوا عنها بسبب الهدنة مع صاحب أنطاكية ، ثم إن الفرنج أغاروا على ربض دربساك وهى حينئذ لصاحب حلب فوقع بهم عسكر حلب وولى الفرنج منهزمين وكثر

فيهم القتل والأسر ، وعاد عسكر حلب بالأسرى ورءوس الفرنج ، وكانت هذه الوقعة من أجل الوقائع .

وفى هذه السنة : استخدم الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل وهو بالبلاد الشرقية وهى آمد وحصن كيفا وحران وغيرها نائبا عن أبيه الخوارزمية عسكر جلال الدين منكبرنى فإنهم بعد قتله ساروا إلى كيقباذ ملك بلاد الروم وخدموا عنده ، وكان فيهم عدة مقدمين مثل بركب خان وكشلو خان وصاروخان وفرخان وبردى خان .

فلما مات كيقباذ وتولى ابنه كيخسر وقبض على بركب خان وهو أكبر مقدميهم ففارقت الخوارزمية حينئذ خدمته وساروا عن الروم ونهبوا ما كان على طريقهم فاستمالهم الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل واستأذن أباه فى استخدامهم فأذن له واستخدمهم .

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وستمائة :

وقد استحكمت الوحشة بين الأخوين الكامل والأشرف وقد لحق الملك الأشرف الذرب وضعف بسببه وعهد بالملك إلى أخيه الملك الصالح إسماعيل ابن الملك العادل صاحب بصرى .

ذكر وفاة الملك الأشرف

وفى هذه السنة : توفى الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك العادل ابى بكر ابن أيوب ، وكان قد مرض بالذرب واشتد به حتى توفى فى المحرم من هذه السنة ، وتملك دمشق أخوه الصالح إسماعيل بعهد منه ، وكان مدة ملك الأشرف دمشق ثمان سنين وشهورًا وعمره نحو ستين سنة ، وكان مفرط السخاء يطلق الأموال الجليلة النفيسة ، وكان ميمون النقيبة لم تنهزم له راية وكان سعيدًا ويتفق له أشياء خارقة للعقل ، وكان حسن العقيدة وبنى بدمشق قصورًا ومتنزهات حسنة وكان منهمكا فى اللذات وسماع الأغانى فلما مرض أقلع عن ذلك وأقبل على الاستغفار إلى أن توفى ودفن فى تربته بجانب الجامع ، ولم يخلف من الأولاد إلا بنتا واحدة تزوجها الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل ، وكان سبب الوحشة بينه وبين أخيه الملك الكامل بعد ما كان بينهما من المصافاة أن الملك الأشرف لم يبق بيده غير دمشق وبلادها وكانت لا تفى بما يحتاجه وما يبذله وقت قدوم أخيه الملك الكامل إلى دمشق ، وأيضًا لما فتح الملك الكامل آمد وبلادها لم يزده منها شيئًا وأيضًا بلغه أن الملك الكامل يريد أن ينفرد بمصر والشام وينتزع دمشق منه فتغير بسبب ذلك ، ولما استقر الملك الصالح إسماعيل فى ملك

دمشق كتب إلى الملوك من أهله وإلى كيخسرو صاحب بلاد الروم فى اتفاقهم معه على أخيه الملك الكامل فوافقوه على ذلك إلا الملك المظفر صاحب حماة ، وأرسل الملك المظفر رسولا إلى الملك الكامل يعرفه انتماءه إليه وأنه إنما وافق الملك الأشرف خوفًا منه فقبل الملك الكامل عذره وتحقق صدق ولائه ووعده بانتزاع سَلَمْية من صاحب حمص وتسليمها إليه .

ذكر مسير السلطان الملك الكامل إلى دمشق واستيلائه عليها ووفاته وما يتعلق بذلك

لما بلغ الملك الكامل وفاة أخيه الملك الأشرف سار إلى دمشق ومعه الناصر داود صاحب الكرك وهو لايشك أن الملك الكامل يسلم إليه دمشق لما كان قد تقرر بينهما .

وأما الملك الصالح إسماعيل فإنه استعد للحصار ووصل إليه نجدة الحلبيين وصاحب حمص ونازل الملك الكامل دمشق وأخرج الملك الصالح إسماعيل النفاطين فأحرق العقيبة جميعها، وما بها من خانات وأسواق ، وفى مدة الحصار وصل من عند صاحب حمص رجالة يزيدون على خمسين راجلا نجدة للصالح اسماعيل وظفر بهم الملك الكامل فشنقهم بين البساتين عن آخرهم ، وحال نزول الملك الكامل على دمشق أرسل توقيعا للملك المظفر صاحب حماة بسَلَمْية فتسلمها الملك المظفر واستقرت نوابه بها ، وكان نزول الملك الكامل على دمشق فى جمادى الأولى من هذه السنة فى قوة الشتاء ، ثم سلم الملك الصالح إسماعيل دمشق إلى أخيه الملك الكامل وتعوض عنها بعلبك والبقاع مضافًا إلى بصرى ، وكان قد ورد من الخليفة المستنصر محيى الدين يوسف ابن الشيخ جمال الدين ابن الجوزى رسولا للتوفيق بين الملوك فتسلم الملك الكامل دمشق لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى ، وكان الملك الكامل شديد الحنق على شيركوه صاحب حمص فأمر العسكر فبرزوا لقصد حمص ، وأرسل إلى صاحب حماة وأمره بالمسير إليها فبرز الملك المظفر من حماة ونزل على الرستن واشتد خوف شيركوه صاحب حمص وتخضع الملك الكامل وأرسل إليه نساءه ودخل على الملك الكامل فلم يلتفت إلى ذلك ، ثم بعد استقرار الملك الكامل فى دمشق لم يلبث غير أيام حتى مرض واشتد مرضه ، وكان سببه أنه لما دخل قلعة دمشق أصابه زكام فدخل الحمام وسكب عليه ماء شديد الحرارة فاندفعت النزلة إلى معدته وتورمت منها وحصل له حمى ونهاه الأطباء عن القيء وخوفوه منه فلم يقبل وتقيأ فمات لوقته وعمره نحو ستين سنة ، وكانت وفاته لتسع بقين من رجب من هذه السنة أعنى سنة خمس وثلاثين وستمائة ، وكان بين موته وموت أخيه الملك الأشرف نحو ستة أشهر ، وكانت مدة ملكه لمصر من حين مات أبوه عشرين سنة ، وكان بها نائبا قبل ذلك قريباً من عشرين سنة ، فحكم

فى مصر نائبًا وملكا نحو أربعين سنة ، وأشبه حاله حال معاوية بن أبى سفيان ، فإنه حكم فى الشام نائبا نحو عشرين وملكا نحو عشرين ، وكان الملك الكامل ملكا جليلا مهيبا حازما حسن التدبير ، أمنت الطرق فى أيامه ، وكان يباشر تدبير المملكة بنفسه واستوزر فى أول ملكه وزير أبيه صفى الدين بن شكر فلما مات ابن شكر لم يستوزر أحدًا بعده ، وكان يخرج الملك الكامل بنفسه فينظر فى أمور الجسور عند زيادة النيل وإصلاحها فعمرت فى أيامه ديار مصر أتم العمارة ، وكان محبًا للعلماء ومجالستهم وكانت عنده مسائل غريبة فى الفقه والنحو يمتحن بها الفضلاء إذا حضروا فى خدمته ، وكان كثير السماع للأحاديث النبوية تقدم عنده بسببها الشيخ عمر بن دحية وبنى له دار الحديث بين القصرين فى الجانب الغربى ، وكانت سوق الآداب والعلوم عنده نافقة رحمه الله تعالى .

وكان أولاد الشيخ صدر الدين بن حمويه من أكابر دولته وهم الأمير فخر الدين ابن الشيخ وإخوته عماد الدين وكمال الدين ومعين الدين أولاد الشيخ المذكور ، وكل من أولاد الشيخ المذكور حاز فضيلتى السيف والقلم ، فكان يباشر التدريس ويتقدم على الجيش .

ولما مات السلطان الملك الكامل بدمشق كان معه بها الملك الناصر داود صاحب الكرك فاتفق آراء الأمراء على تحليف العسكر للملك العادل أبى بكر ابن الملك الكامل وهو حينئذ نائب أبيه بمصر ، فحلف له جميع العسكر وأقاموا فى دمشق الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل أبو بكر بن أيوب نائبا عن الملك العادل أبى بكر ابن الملك الكامل ، وتقدمت الأمراء إلى الملك الناصر داود بالرحيل عن دمشق وهددوه إن أقام ، فرحل الملك الناصر داود إلى الكرك وتفرقت العساكر فسار أكثرهم إلى مصر ، وتأخر مع الجواد يونس بعض العسكر ومقدمهم عماد الدين ابن الشيخ وبقى يباشر الأمور مع الملك الجواد ، ولما بلغ شيركوه صاحب حمص وفاة الملك الكامل فرح فرحًا عظيمًا وأتاه فرج ما كان يطمع نفسه به وأظهر سرورا عظيمًا ولعب بالكرة على خلاف العادة وهو فى عشر السبعين .

وأما الملك المظفر صاحب حماة فإنه حزن لذلك حزنا عظيما ورحل من الرستن وعاد إلى حماة وأقام فيها للعزاء ، وأرسل صاحب حمص ارتجع سَلَمْية من نواب الملك المظفر وقطع القناة الواصلة من سَلَمْية إلى حماة فيبست بساتينها .ثم عزم على قطع النهر العاصى عن حماة فسد مخرجه من بحيرة قدس التى بظاهر حمص فبطلت نواعير حماة والطواحين وذهب ماء العاصى فى أودية بجوانب البحيرة ثم لما لم يجد له الماء مسلكا عاد فهدم ما عمله صاحب حمص وجرى كما كان أولا وكذلك كان قد حصل لصاحب حلب ولعسكرها الخوف من الملك الكامل فلما بلغهم موته أمنوا من ذلك .

ذكر استيلاء الحلبيين على المعرة وحصارهم حماة .

ولما بلغ الحلبيين موتُ الكامل اتفقت آراؤهم على أخذ المعرة ثم أخذ حماة من الملك المظفر صاحب حماة لموافقته الملك الكامل على قصدهم ووصل عسكر حلب إلى المعرة وانتزعوها من يد الملك المظفر صاحب حماة وحاصروا قلعتها وخرجت المعرة حينئذ عن ملك الملك المظفر صاحب حماة ثم سار عسكر حلب ومقدمهم المعظم توران شاه بن صلاح الدين إلى حماة بعد استيلائهم على المعرة ونازلوا حماة وبها صاحبها الملك المظفر ونهب العسكر الحلبى بلاد حماة واستمر الحصار على حماة حتى خرجت هذه السنة .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : عقد لسلطان الروم غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو العقد على غازية خاتون بنت الملك العزيز محمد صاحب حلب وهى صغيرة حينئذ وتولى القبول عن ملك بلاد الروم قاضى دوقات ثم عقد للملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز صاحب حلب العقد على أخت كيخسرو وهى ملكة خاتون بنت كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان وأم ملكة خاتون المذكورة بنت الملك العادل أبى بكر بن أيوب وكان قد زوجها الملك المعظم عيسى صاحب دمشق بكيقباذ المذكور وخطب لغياث الدين كيخسرو بحلب .

وفيها : خرجت الخوارزمية عن طاعة الملك الصالح أيوب بعد موت أبيه الملك الكامل ونهبوا البلاد .

وفيها : سار لولو صاحب الموصل وحاصر الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل بسنجار فأرسل الملك الصالح واسترضى الخوارزمية وبذل لهم حران والرها فعادوا إلى طاعته ، واتقع مع بدر الدين لولو صاحب الموصل فانهزم لولو وعسكره هزيمة قبيحة وغنم عسكر الملك الصالح منهم شيئًا كثيراً .

وفى هذه السنة : جرى بين الملك الناصر داود صاحب الكرك وبين الملك الجواد يونس المتولى على دمشق مصاف بين جينين ونابلس انتصر فيه الملك الجواد يونس وانهزم الملك الناصر داود هزيمة قبيحة ، وقوى الملك الجواد بسبب هذه الوقعة وتمكن من دمشق ونهب عسكر الملك الناصر وأثقاله .

وفى أواخر هذه السنة : ولد والدى الملك الأفضل نور الدين على بن الملك المظفر صاحب حماة .

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وستمائة :

فى هذه السنة : رحل عسكر حلب المحاصرة لحماة بعد مولد الملك الأفضل ، وكان قد طالت مدة حصارهم لحماة وضجروا فتقدمت إليهم ضيفة خاتون صاحبة حلب بنت الملك العادل بالرحيل عنها فرحلوا ، وضاق الأمر على الملك المظفر فى هذا الحصار وأنفق فيه أموالا كثيرة ، واستمرت المعرة فى يد الحلبيين وسُلّمْية فى يد صاحب حمص ، ولم يبق بيد الملك المظفر غير حماة وبعرين ، ولما جرى ذلك خاف الملك المظفر أن تخرج بعرين بسبب قلعتها فتقدم بهدمها فهدمت إلى الأرض فى هذه السنة .

ذكر استيلاء الملك الصالح أيوب على دمشق

وفى هذه السنة : فى جمادى الآخرة ، استولى الملك الصالح أيوب ابن السلطان الملك الكامل على دمشق وأعمالها بتسليم الملك الجواد يونس ، وأخذ العوض عنها سنجار والرقة وعانة ، وكان سبب ذلك أن الملك العادل ابن الملك الكامل صاحب مصر لما علم باستيلاء الملك الجواد على دمشق ، أرسل إليه عماد الدين ابن الشيخ لينتزع دمشق منه ، وأن يعوض عنها إقطاعًا بمصر ، فمال الجواد يونس إلى تسليمها إلى الملك الصالح حسبما ذكرناه ، وجهز على عماد الدين ابن الشيخ من وقف له بقصة ، فلما أخذها عماد الدين منه ضربه ذلك الرجل بسكين فقتله .

ولما وصل الملك الصالح أيوب إلى دمشق وصل معه الملك المظفر صاحب حماة معاضدًا له ، وكان قد لاقاه إلى أثناء الطريق ، واستقر الملك الصالح أيوب المذكور فى ملك دمشق ، وسار الجواد يونس إلى البلاد الشرقية المذكورة فتسلمها .

ولما استقر ملك الملك الصالح بدمشق وردت عليه كتب المصريين يستدعونه إلى مصر ليملكها وسأله الملك المظفر صاحب حماة فى منازلة حمص وأخذها من شيركوه فبرز إلى الثنية ، وكان قد نازلت الخوارزمية وصاحب حماة حمص فأرسل شيركوه مالا كثيرًا وفرقه فى الخوارزمية فرحلوا عنه إلى البلاد الشرقية ، ورحل صاحب حماة إلى حماة ثم كر الملك الصالح عائدا إلى دمشق طالبا مصر ، وسار من دمشق إلى خربة اللصوص وعيد بها عيد رمضان ووصل إليه بعض عساكر مصر مقفزين .

ولما خرج الملك الصالح من دمشق جعل نائبه فيها ولده الملك المغيث فتح الدين عمر ابن

الملك الصالح وشرع الملك الصالح يكاتب عمه الصالح إسماعيل صاحب بعلبك ويستدعيه إليه وعمه إسماعيل المذكور تحجج ويعتذر عن الحضور ويظهر له أنه معه وهو يعمل فى الباطن على ملك دمشق وأخذها من الصالح أيوب ، وكان قد سافر الملك الناصر صاحب الكرك إلى مصر واتفق مع الملك العادل أبى بكر ابن الملك الكامل على قتال الملك الصالح أيوب .

ووصل أيضًا فى هذه السنة محيى الدين ابن الجوزى رسولا من الخليفة ليصلح بين الأخوين العادل صاحب مصر والصالح أيوب المستولى على دمشق ، وهذا محيى الدين هو الذى حضر ليصلح بين الكامل والأشرف فاتفق أنه مات فى حضوره فى سنة أربع وثلاثين وخمس وثلاثين أربعة من السلاطين العظماء وهم : الملك الكامل صاحب مصر ، وأخوه الأشرف صاحب دمشق ، والعزيز صاحب حلب ، وكيقباذ صاحب بلاد الروم ، فقال فى ذلك ابن المسجف أحد شعراء دمشق :

يا إمام الهدى أبا جعفر المنـ ـصور يا من له الفخار الأثيل
ماجرى من رسولك الآن محيى الـ ـدين فى هذه البلاد قليل
جاء والأرض بالسلاطين تزهى وغدًا والديار منهم طلول
أقفر الروم والشآم ومصر أفهذا مغسل أم رسول

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وستمائة :

فى هذه السنة : فى صفر سار الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبك ومعه شيركوه صاحب حمص بجموعهما وهجموا دمشق وحصروا القلعة وتسلمها الصالح إسماعيل وقبض على المغيث فتح الدين عمر ابن الملك الصالح أيوب ، وكان الملك الصالح أيوب بنابلس لقصد الاستيلاء على ديار مصر ، وكان قد بلغه سعى عمه إسماعيل فى الباطن ، وكان للصالح أيوب طبيب يثق به يقال له الحكيم سعد الدين الدمشقى فأرسله الصالح أيوب إلى بعلبك ومعه قفص من حمام نابلس ليطالعه بإخبار الصالح صاحب بعلبك وحال وصول الحكيم المذكور علم به صاحب بعلبك فاستحضر . وأكرمه وسرق الحمام التى لنابلس وجعل موضعها حمام بعلبك ولم يشعر الطبيب المذكور بذلك فصار الطبيب المذكور يكتب أن عمك إسماعيل قد جمع وهو فى نية قصد دمشق ويطبق فيقعد الطير بعلبك فيأخذ الصالح إسماعيل البطاقة ويزور على الحكيم أن عمك إسماعيل قد جمع ليعاضدك وهو واصل إليك ويسرجه على حمام نابلس فيعتمد الصالح أيوب على بطاقة الحكيم ويترك ما يرد إليه من غيره من الأخبار واتفق أيضًا أن الملك المظفر صاحب حماة علم بسعى الصالح إسماعيل صاحب بعلبك فى أخذ دمشق مع خلوها ممن يحفظها فجهز نائبه سيف الدين على بن أبى على ومعه جماعة من عسكر حماة وغيرهم وجهز معه من السلاح

والمال شيئاً كثيراً ليصل إلى دمشق ويحفظها لصاحبها وأظهر الملك المظفر وابن أبي على أنهما قد اختصما وأن ابن أبي على قد غضب واجتمع معه هذه الجماعة وقد قصدوا فراق صاحب حماة لأنه يريد أن يسلم حماة للفرنج كل ذلك خوفاً من صاحب حمص شيركوه لئلا يقصد ابن أبي على ويمنعه فلم تخف عن شيركوه هذه الحيلة ، ولما وصل ابن أبي على إلى بحيرة حمص قصده شيركوه وأظهر أنه مصدقه فيما ذكر وسأله الدخول إلى حمص ليضيفه وأخذ ابن أبي على معه وأرسل من استدعى باقى أصحاب ابن أبي على إلى الضيافة ، فمنهم من سمع ودخل إلى حمص ، ومنهم من هرب فسلم ، فلما حصلوا عنده بحمص قبض على ابن أبي على وعلى جميع من دخل حمص من الحمويين ، واستولى على جميع ما كان معهم من السلاح والخزانة ، وبقى يعذبهم ويطلب منهم أموالهم حتى استصفاها . ومات ابن أبي على وغيره فى حبسه بحمص والذى سلم وبقى الى بعد موت شيركوه خلص ، ولما جرى ذلك ضعف الملك المظفر صاحب حماة ضعفا كثيرًا ، وأما الملك الصالح أيوب فلما بلغه قصد عمه إسماعيل دمشق رحل من نابلس إلى الغور فبلغه استيلاء عمه على قلعة دمشق واعتقال ولده المغيث عمر ففسدت نيات عساكره عليه وشرعت الأمراء ومن معه من الملوك يحركون نقاراتهم ويرحلون مفارقين الصالح أيوب إلى الصالح إسماعيل بدمشق ، فلم يبق عند الصالح أيوب بالغور غير مماليكه وأستاذ داره حسام الدين ابن أبي على ، وأصبح الملك الصالح أيوب لا يدرى ما يفعل ولا له موضع يقصده فقصد نابلس ونزل بها بمن بقى معه ، وسمع الناصر داود بذلك وكان قد وصل من مصر إلى الكرك فنزل بعسكره ، وأمسك الملك الصالح أيوب وأرسله إلى الكرك واعتقله بها وأمر بالقيام فى خدمته بكل ما يختاره ، ولما اعتقل الصالح أيوب بالكرك تفرق عنه باقى أصحابه ومماليكه ولم يبق منهم معه غير عدة يسيرة ، ولما جرى ذلك أرسل أخو الصالح الملك العادل أبو بكر صاحب مصر يطلبه من الملك الناصر داود فلم يسلمه الناصر داود فأرسل الملك العادل وتهدد الملك الناصر يأخذه بلاده فلم يلتفت إلى ذلك .

ذكر غير ذلك

وفى هذه السنة : بعد اعتقال الملك الصالح بالكرك قصد الناصر داود القدس ، وكان الفرنج قد عمروا قلعتها بعد موت الملك الكامل فحاصرها وفتحها وخرب القلعة وخرب برج داود أيضاً فإنه لما خربت القدس أولا لم يخرب برج داود فخربه فى هذه المرة .

وفى هذه السنة : توفى الملك المجاهد شيركوه صاحب حمص بن ناصر الدين محمد بن

شيركوه بن شاذى وكانت مدة ملكه بحمص نحو ست وخمسين سنة لأن صلاح الدين ملكه حمص سنة إحدى وثمانين وخمسمائة بعد موت أبيه محمد بن شبركوه وكان عمره يومئذ نحو اثنتى عشرة سنة ، وكان شيركوه المذكور عسوفاً لرعيته وملك حمص بعده ولده الملك المنصور إبراهيم بن شيركوه .

وفى هذه السنة : استولى بدر ا لدين لولو صاحب الموصل على سنجار وأخذها من الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل .

ذكر خروج الملك الصالح أيوب من الاعتقال والقبض على أخيه الملك العادل صاحب مصر وملك الملك الصالح أيوب ديار مصر

وفى هذه السنة : فى أواخر رمضان أفرج الملك الناصر داود صاحب الكرك عن ابن عمه الملك الصالح أيوب واجتمعت عليه مماليكه وكاتبه إليها زهير وسار الناصر داود وصحبته الصالح أيوب إلى قبة الصخرة وتحالفا بها على أن تكون ديار مصر للصالح ودمشق والبلاد الشرقية للناصر داود ، ولما تملك الصالح أيوب لم يف للناصر بذلك وكان يتأول فى يمينه أنه كان مكرها ثم سارا إلى غزة ، فلما بلغ العادل صاحب مصر ظهور أمر أخيه الصالح عظم عليه وعلى والدته ذلك ، وبرز بعسكر مصر ونزل على بلبيس لقصد الناصر داود والصالح أخيه ، وأرسل إلى عمه الصالح إسماعيل المستولى على دمشق أن يبرز ويقصدهما من جهة الشام وأن يستأصلهما فسار الصالح إسماعيل بعساكر دمشق ونزل الفوار ، فبينا الناصر داود والصالح أيوب فى هذه الشدة وهما بين عسكرين قد أحاطا بهما إذ ركبت جماعة من المماليك الأشرفية ومقدمهم أيبك الأسمر وأحاطوا بدهليز الملك العادل أبى بكر ابن الملك الكامل وقبضوا عليه وجعلوه فى خيمة صغيرة: وعليه من يحفظه ، وأرسلوا إلى الملك الصالح أيوب يستدعونه فأتاه فرج لم يسمع بمثله ، وسار الملك الصالح أيوب والملك الناصر داود إلى مصر وبقى فى كل يوم يتلقى الملك الصالح فوجًا بعد فوج من الأمراء والعسكر ، وكان القبض على الملك العادل ليلة الجمعة ثامن ذى القعدة من هذه السنة ، فكانت مدة ملكه نحو سنتين ، ودخل الملك الصالح أيوب إلى قلعة الجبل بكرة الأحد لست بقين من الشهر المذكور وزينت له البلاد وفرح الناس بقدمه وحصل للملك المظفر صاحب حماة من السرور والفرح بملك الملك الصالح مصر مالا يمكن شرحه فإنه ما زال على ولائه حتى إنه لما أمسك بالكرك كان يخطب له بحماة وبلادها ، ولما استقر الملك الصالح أيوب فى ملك مصر وصحبته الناصر داود حصل عند كل

واحد معها استشعار من صاحبه وخاف الناصر داود أن يقبض عليه فطلب دستوراً وتوجه إلى بلاد الكرك وغيرها .

ذكر وفاة صاحب ماردين

فى هذه السنة : وقيل فى سنة ست وثلاثين توفى ناصر الدين أرتق أرسلان ابن إيلغازى ابن البى بن تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق صاحب ماردين ، وكان يلقب الملك المنصور وملك المذكور ماردين بعد أخيه حسام الدين بولق أرسلان حسبما تقدم ذكره فى سنة ثمانين وخمسمائة ، وبقى أرتق أرسلان متغلبا عليه مملوك والده البفش حتى قتله أرتق أرسلان فى سنة إحدى وستمائة ، واستقل أرتق أرسلان بملك ماردين حتى توفى فى هذه السنة ، ولما مات الملك المنصور أرتق أرسلان ملك بعده ابنه الملك السعيد نجم الدين غازى بن أرتق أرسلان المذكور ، حتى توفى فى سنة ثلاث وخمسين وستمائة ظنا ، ثم ملك بعده فى السنة المذكورة ابنه الملك المظفر قرا أرسلان بن غازى بن أرتق أرسلان ، وكانت وفاة المظفر قرا أرسلان المذكور سنة إحدى وتسعين وستمائة ظنا ، ثم ملك بعده ولده الأكبر شمس الدين داود ابن قرا أرسلان سنة وتسعة أشهر ثم توفى ، وملك بعده أخوه الملك المنصور نجم الدين غازى بن قرا أرسلان فى سنة ثلاث وتسعين وستمائة ظنا ، ونقلت وفيات المذكورين حسبما هو مشروح من تقويم حل ماردين ذكر فيه تواريخ بنى أرتق ولم اتحقق صحة ذلك وسنذكر فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة وفاة الملك المنصور غازى المذكور فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة وفاة الملك المنصور غازى المذكور فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وستمائة :

فى هذه السنة : قبض الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل بعد استقراره فى ملك مصر على أيبك الأسمر مقدم المماليك الأشرفية وعلى غيره من الأمراء والمماليك الذين قبضوا على أخيه وأودعهم الحبوس ، وأخذ فى إنشاء مماليكه ، وشرع الملك الصالح أيوب المذكور فى هذه السنة فى بناء قلعة الجزيرة واتخذها مسكنًا لنفسه .

وفيها : نزل الملك الحافظ أرسلان شاه ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب عن قلعة جعبر وبالس وسلمها إلى أخته ضيفة خانون صاحبة حلب ، وتسلم عوض ذلك أعزازو بلاداً معها تساوى ما نزل عنه ، وكان سبب ذلك أن الملك الحافظ المذكور أصابه فالج وخشى من أولاده وتغلبهم عليه ففعل ذلك ، لأنه كان ببلاد قريبة إلى حلب لا يمكنهم التعرض إليه .

وفى هذه السنة : كثر عبث الخوارزمية وفسادهم بعد مفارقة الملك الصالح أيوب البلاد الشرقية وساروا إلى قرب حلب ، فخرج إليهم عسكر حلب مع الملك المعظم توران شاه ابن صلاح الدين ، ووقع بينهم القتال فانهزم الحلبيون هزيمة قبيحة وقتل منهم خلق كثير منهم الملك الصالح ابن الملك الأفضل ابن السلطان صلاح الدين ، وأسر مقدم الجيش الملك المعظم المذكور واستولى الخوارزميون على ثقال الحلبيين وأسروا منهم عدة كثيرة ، ثم كانوا يقتلون بعضهم ليشترى غيره نفسه منهم بماله فأخذوا بذلك شيئاً كثيراً ، ثم نزل الخوارزمية بعد ذلك على جبلان وكثر عبثهم وفسادهم ونهبهم فى بلاد حلب وجفل أهل الحواضر والبلاد ودخلوا مدينة حلب واستعد أهلها للحصار وارتكب الخوارزمية من الزنا والفواحش والقتل ما ارتكبوه التتر ثم سارت الخوارزمية إلى منبج وهجموها بالسيف يوم الخميس لتسع بقين من ربيع الأول من هذه السنة ، وفعلوا من القتل والنهب مثل ما تقدم ذكره ، ثم رجعوا إلى بلادهم وهى حران وما معها بعد أن خربوا بلد حلب .

ذكر عود الخوارزمية إلى بلد حلب وغيرها

ثم إن الخوارزمية رحلوا من حران وقطعوا الفرات من الرقة ووصلوا إلى الجبول ، ثم إلى تل أعزاز ثم إلى سرمين ثم إلى المعرة وهم ينهبون ما يجدونه ، فإن الناس جفلوا من بين أيديهم .وكان قد وصل الملك المنصور إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص ومعه عسكر من عسكر الصالح إسماعيل المستولى على دمشق نجدة للحلبيين فاجتمع الحلبيون مع صاحب حمص المذكور وقصدوا الخوارزمية ، واستمرت الخوارزمية على ماهم عليه من النهب حتى نزلوا على شَيْزَر ، ونزل عسكر حلب على تل السلطان ثم رحلت الخوارزمية إلى جهة حماة ولم يتعرضوا إلى نهب لانتماء صاحبها الملك المظفر إلى الملك الصالح أيوب ، ثم سارت الخوارزمية إلى سَلَمْية ثم إلى الرصافة طالبين الرقة ، وسار عسكر حلب من تل السلطان إليهم ولحقتهم العرب فأرمت الخوارزمية ما كان معهم من المكاسب وسيبوا الأسرى ووصلت الخوارزمية إلى الفرات فى أوآخر شعبان فى هذه السنة ولحقهم عسكر حلب وصاحب حمص إبراهيم قاطع صفين فعمل لهم الخوارزمية ستائر ووقع القتال بينهم إلى الليل فقطع الخوارزمية الفرات وساروا إلى حران فسار عسكر حلب إلى البيرة وقطعوا الفرات منها وقصدوا الخوارزمية واتقعوا قريب الرها لتسع بقين من رمضان هذه السنة ، فولى الخوارزمية منهزمين وركب صاحب حمص وعسكر حلب أقفيتهم يقتلون ويأسرون إلى أن حال الليل بينهم ، ثم سار عسكر حلب إلى حران فاستولوا عليها وهربت الخوارزمية إلى بلد عانة وبادر بدر الدين لولو صاحب الموصل إلى

نصيبين ودارا وكانتا للخوارزمية فاستولى عليهما وخلص من كان بهما من الأسرى وكان منهم الملك المعظم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين أسيرًا فى بلدة دارا من حين أسروه فى كسرة الحلبيين فحمله بدر الدين لولو إلى الموصل وقدم له ثيابا وتحفاً وبعث به إلى عسكر حلب ، واستولى عسكر حلب على الرقة والرها وسروج ورأس عين وما مع ذلك ، واستولى صاحب حمص المنصور إبراهيم على بلد الخابور ثم سار عسكر حلب ووصل إليهم نجدة من الروم وحاصروا الملك المعظم ابن الملك الصالح أيوب بآمد وتسلموها منه وتركوا له حصن كيفا وقلعة الهيثم ولم يزل ذلك بيده حتى توفى أبوه الملك الصالح أيوب بمصر وسار إليها المعظم المذكور على ما سنذكره إن شاء الله تعالى ، وبقى ولد المعظم وهو الملك الموحد عبد الله ابن المعظم توران شاه ابن الصالح أيوب ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب مالكا لحصن كيفا إلى أيام التتر وطالت مدته بها .

ذكر ما كان من الملك الجواد يونس

فى هذه السنة : كان هلاك الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل ، وصورة ماجرى له أنه كان قد استولى بعد ملك دمشق على سنجار وعانة فباع عانة من الخليفة المستنصر بمال تسلمه منه ، وسار لولو صاحب الموصل وحاصر سنجار ويونس المذكور غائب عنها واستولى عليها ولم يبق بيد يونس من البلاد شىء فسار على البرية إلى غزة وأرسل إلى الملك الصالح أيوب صاحب مصر يسأله فى المصير إليه فلم يجبه إلى ذلك فسار يونس حينئذ ودخل إلى عكا وأقام مع الفرنج فأرسل الصالح إسمعيل صاحب دمشق حينئذ وبذل مالا للفرنج وتسلم الملك الجواد يونس المذكور من الفرنج واعتقله ثم خنقه .

وفى هذه السنة : ولى الملك الصالح أيوب الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام القضاء بمصر والوجه القبلى ، وكان عز الدين المذكور بدمشق فلما قوى خوف الصالح إسماعيل صاحب دمشق من ابن أخيه الصالح أيوب صاحب مصر سلم الصالح إسماعيل صفد والشقيف إلى الفرنج ليعضدوه ويكونوا معه على ابن أخيه الصالح أيوب ، فعظم ذلك على المسلمين وأكثر الشيخ عز الدين بن عبد السلام التشنيع على الصالح إسماعيل بسبب ذلك ، وكذلك جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب ثم خافا من الصالح إسماعيل فسار عز الدين ابن عبد السلام إلى مصر وتولى بها القضاء كرهًا ، وسار جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب إلى الكرك وأقام عند الملك الناصر داود صاحب الكرك ونظم له مقدمته الكافية فى النحو ، ثم بعد ذلك سافر ابن الحاجب إلى الديار المصرية .

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وستمائة :

والصالح إسماعيل صاحب دمشق والمنصور إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص وصاحبة حلب متفقون على عداوة الملك الصالح أيوب صاحب مصر ولم يوافقهم صاحب حماة على ذلك وأخلص فى الانتماء إلى صاحب مصر .

وفى هذه السنة : اتقعت الخوارزمية مع الملك المظفر غازى صاحب ميافارقين ابن الملك العادل .

فيها : فى شعبان أصاب بن الملك المظفر صاحب حماة الفالج وهو جالس بين أصحابه فى قلعة حماة وبقى أياما لا يتكلم ولا يتحرك وكان ذلك فى أواخر فصل الشتاء وأرجف الناس بموته وقام بتدبير المملكة مملوكه وأستاذ داره سيف الدين طغريل ثم خف مرض الملك المظفر وفتح عينيه وصار يتكلم باللفظة واللفظتين لا يكاد يفهم وكان العاطب الجانب الأيمن منه وبعث إليه الصالح صاحب مصر طبيبا حاذقا نصرانياً يقال له النفيس ابن طليب فلم تنجع فيه المداواة واستمر على ذلك إلى أن توفى بعد سنتين وكسر على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفى هذه السنة : فى ذى الحجة توفى الملك الحافظ نور الدين أرسلان شاه ابن الملك العادل بن أيوب بإعزاز وهى التى تعوضها عن قلعة جعبر ونقل إلى حلب فدفن فى الفردوس وتسلم ثواب الملك الناصر يوسف صاحب حلب قلعة أعزاز وأعمالها .

وفيها : فى شعبان توفى الشيخ العلامة . كمال الدين موسى بن يونس بن محمد بن منعه بن مالك الفقيه الشافعى ، كان إمام وقته فى مذهب الشافعى وغيره ، وكان يشتغل الحنفيون عليه فى مذهب أبى حنيفة ويحل الجامع الكبير فى مذهب أبى حنيفة وكان متقنا علم المنطق والطبيعى والإلهى ، وكان إماما مبرزاً فى العلم الرياضى وأتقن المجسطى وأقليدس والموسيقى والحساب بأنواعه ، وكان أهل الذمة يقرءون عليه التوراة والإنجيل وشرح لهم هذين الكتابين شرحا يعترفون أنهم لا يجدون من يوضح لهم مثله ، وكان إماما فى العربية والتصريف وكان يقرى كتاب سيبوية والمفصل وغيرهما ، وكذلك كان إماما فى التفسير والحديث ، وقدم الشيخ أثير الدين الأبهرى واسمه المفضل بن عمر بن المفضل إلى الموصل واشتغل على الشيخ كمال الدين المذكور ، وكان الشيخ أثير الدين الأبهرى المذكور حينئذ إماماً مبرزًا فى العلوم ومع ذلك يأخذ الكتاب ويجلس بين يديه ويقرأ عليه .

قال القاضى شمس الدين ابن خلكان : ولقد شاهدت بعينى أثير الدين الأبهرى وهو يقرأ المجسطى على الشيخ كمال الدين بن يونس المذكور ، واستمر سنين عديدة يشتغل عليه ، وكان الأثير إذ ذاك صاحب تصانيف يشتغل فيها الناس ، وقصد تقى الدين عثمان بن

عبد الرحمن المعروف بابن الصلاح الفقيه الشافعى الشيخ كمال الدين المذكور وسأله فى أن يقرئه المنطق سراً وتردد ابن الصلاح إلى الشيخ كمال الدين مدة يقرأ عليه المنطق ولا يفهمه ، فقال له ابن يونس المذكور يا فقيه المصلحة عندى أن تترك الاشتغال بهذا الفن ، فقال له ابن الصلاح ولم ذلك ؟ فقال لأن الناس يعتقدون فيك الخير وهم ينسبون كل من اشتغل بهذا الفن إلى فساد الاعتقاد فكأنك تفسد عقائدهم فيك ولا يصح لك من هذا الفن شىء ، فقبل ابن الصلاح إشارته وترك قراءته ، وكان الشيخ كمال الدين بن يونس المذكور يتهم فى دينه لكون العلوم العقلية غالبة عليه ، وكانت تعتريه غفلة لاستيلاء الفكرة عليه فعمل فيه بعضهم :

أجدك أن قد جاد بعد التعبس ... غزال بوصل لى وأصبح مونسى
وعاطيته صهباء من فيه مزجها ... كرقة شعرى أو كدين ابن يونس

وكانت ولادته فى صفر سنة إحدى وخمسين وخمسمائة بالموصل ، وبها توفى فى التاريخ المذكور رحمه الله تعالى :

ثم دخلت سنة أربعين وستمائة :

وفى هذه السنة : كان بين الخوارزمية ومعهم الملك المظفر غازى صاحب ميافارقين وبين عسكر حلب ومعهم المنصور إبراهيم صاحب حمص مصاف قريب الخابور عند المجدل فى يوم الخميس لثلاث بقين من صفر هذه السنة فولى المظفر غازى والخوارزمية منهزمين أقبح هزيمة ونهبت منهم عسكر حلب شيئاً كثيراً ونهب وطاقات الخوارزمية ونساؤهم أيضا ونزل الملك المنصور إبراهيم فى خيمة الملك المظفر غازى واحتوى على خزانته ووطاقه ووصل عسكر حلب وصاحب حمص إلى حلب فى مستهل جمادى الأولى مؤيدين منصورين .

ذكر وفاة الملكة ضيفة خاتون صاحبة حلب وهى والدة الملك العزيز

وفى هذه السنة : فى ليلة الجمعة لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى ، توفيت ضيفة خاتون بنت الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وكان مرضها قرحة فى مراق البطن وحمى ودفنت بقلعة حلب ، وكان مولدها سنة إحدى أو اثنتين وثمانين وخمسمائة بقلعة حلب حين كانت حلب لأبيها الملك العادل قبل أن ينتزعها منه أخوه السلطان صلاح الدين ويعطيها ابنه الظاهر غازى ، فاتفق مولدها ووفاتها بقلعة حلب ، ولما ولدت كان عند أبيها الملك العادل ضيف فسماها ضيفة ، فكانت مدة عمرها نحو تسع وخمسين سنة ، وكان الملك الظاهر صاحب حلب قد تزوج قبل ضيفة خاتون بأختها غازية وتوفيت ، فلما توفيت غازية تزوج بأختها ضيفة

خاتون المذكورة ، وكانت ضيفة خاتون قد ملكت حلب بعد وفاة ابنها الملك العزيز وتصرفت فى الملك تصرف السلاطين وقامت بالملك أحسن قيام وكانت مدة ملكها نحو ست سنين ، ولما توفيت كان عمر ابن ابنها الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز نحو ثلاث عشرة سنة فأشهد عليه أنه بلغ وحكم واستقل بمملكة حلب وما هو مضاف إليها والمرجع فى الأمور إلى جمال الدين إقبال الأسود الخصى الخاتونى .

ذكر وفاة المستنصر بالله

وفى هذه السنة : توفى المستنصر بالله أبو جعفر المنصور بن الظاهر محمد بن الإمام الناصر أحمد بكرة الجمعة لعشر خلون من جمادى الآخرة ، وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة إلا شهرًا ، وكان حسن السيرة عادلا فى الرعية ، وهو الذى بنى المدرسة ببغداد المسماة بالمستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقى مما يلى دار الخلافة ، وجعل لها أوقافا جليلة على أنواع البر ، ولما مات المستنصر اتفق آراء أرباب الدولة مثل الدوادار والشرابى على تقليد الخلافة ولده عبد الله ولقبوه المستعصم بالله وهو سابع ثلاثينهم وآخرهم وكنيته أبو أحمد بن المستنصر بالله منصور ، وكان عبد الله المستعصم ضعيف الرأى فاستبذ كبراء دولته بالأمر وحسنوا له قطع الأجناد وجمع المال ومداراة التتر ففعل ذلك وقطع أكثر العساكر .

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وستمائة :

فى هذه السنة : قصدت التتر بلاد غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو بن قليج ارسلان السلجوقى صاحب بلاد الروم ، فأرسل واستنجد بالحلبيين فأرسلوا إليه نجدة مع ناصح الدين الفارسى ، وجمع العساكر من كل جهة والتقى مع التتر فانهزمت عساكر الروم هزيمة قبيحة ، وقتل التتر وأسروا منهم خلقًا كثيراً ، وتحكمت التتر فى البلاد واستولوا أيضا على خِلاط وآمد وبلادهما وهرب غياث الدين كيخسرو إلى بعض المعاقل ثم أرسل إلى التتر وطلب الأمان ودخل فى طاعتهم ، ثم توفى غياث الدين كيخسرو المذكور بعد ذلك فى سنة أربع وخمسين وستمائة حسبما نذكره إن شاء الله تعالى ، وخلف صغيرين وهما ركن الدين وعز الدين ثم هرب عز الدين إلى قسطنطينية وبقى ركن الدين فى الملك تحت حكم التتر والحاكم البراواناه معين الدين سليمان والبرواناه لقبه وهو اسم الحاجب بالعجمى ، ثم إن البراوناه قتل ركن الدين وأقام فى الملك ولدًا له صغيرًا .

وفيها : كانت المراسلة بين الصالح أيوب صاحب مصر والصالح إسماعيل صاحب دمشق

فى الصلح ، وأن يطلق الصالح إسماعيل المغيث فتح الدين عمر ابن الملك الصالح أيوب وحسام الدين بن أبى على الهدبانى وكانا معتقلين عند الملك الصالح إسماعيل فأطلق حسام الدين بن أبى على وجهزه إلى مصر واستمر الملك المغيث ابن الصالح أيوب فى الاعتقال واتفق الصالح إسماعيل مع الناصر داود صاحب الكرك واعتضد بالفرنج وسلما أيضاً إلى الفرنج عسقلان وطبرية ، فعمر الفرنج قلعتيهما وسلما أيضا إليهم القدس بما فيه من المزارات .

قال القاضى جمال الدين بن واصل :

ومررت إذ ذاك بالقدس متوجهًا إلى مصر ورأيت القسوس وقد جعلوا على الصخرة قنانى الخمر للقربان .

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وستمائة :

ذكر المصاف الذى كان بين عسكر مصر ومعهم الخوارزمية وبين عسكر دمشق ومعهم الفرنج وصاحب حمص

فى هذه السنة : وصلت الخوارزمية إلى غزة باستدعاء الملك الصالح أيوب لنصرته على عمه الصالح إسماعيل ، وكان مسيرهم على حارم والروج إلى أطراف بلاد دمشق حتى وصلوا إلى غزة ، ووصل إليهم عدة كثيرة من العساكر المصرية مع ركن الدين بيبرس مملوك الملك الصالح أيوب ، وكان من أكبر مماليكه وهو الذى دخل معه الحبس لما حبس فى الكرك ، وأرسل الملك الصالح إسماعيل عسكر دمشق مع الملك المنصور إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص ، وسار صاحب حمص جريدة ودخل عكا فاستدعى الفرنج على ما كان قد وقع عليه اتفاقهم ووعدهم بجزء من بلاد مصر ، فخرجت الفرنج بالفارس والراجل واجتمعوا أيضًا بصاحب حمص وعسكر دمشق والكرك ولم يحضر الناصر داود ذلك ، والتقى الفريقان بظاهر غزة فولى عسكر دمشق وصاحب حمص إبراهيم والفرنج منهزمين وتبعهم عسكر مصر والخوارزمية فقتلوا منهم خلقًا عظيمًا ، واستولى الملك الصالح أيوب صاحب مصر على غزة والسواحل والقدس ووصلت الأسرى والرءوس إلى مصر ودقت بها البشائر عدة أيام ، ثم أرسل الملك الصالح صاحب مصر باقى عسكر مصر مع معين الدين ابن الشيخ واجتمع إليه من بالشام من عسكر مصر والخوارزمية وساروا إلى دمشق وحاصروها وبها صاحبها الملك الصالح إسماعيل وإبراهيم بن شيركوه صاحب حمص وخرجت هذه السنة وهم محاصروها .

ذكر وفاة صاحب حماة

فى هذه السنة : توفى جد الملك المظفر صاحب حماة تقى الدين محمود ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب يوم السبت ثمان جمادى الأولى من هذه السنة ، أعنى سنة اثنتين وأربعين وستمائة ، وكانت مدة مملكته لحماة خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وعشرة أيام كان منها مريضًا بالفالج سنتين وتسعة أشهر وأيامًا ، وكانت وفاته وهو مفلوج بحمى حادة عرضت له ، وكان عمره ثلاثا وأربعين سنة لأن مولده سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، وكان شهما شجاعًا فطنًا ذكيًا ، وكان يحب أهل الفضائل والعلوم ، استخدم الشيخ علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف وكان مهندسًا فاضلا فى العلوم الرياضية فبنى للملك المظفر المذكور أبراجًا بحماة وطاحونًا على النهر العاصى ، وعمل له كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصودة وعملت هذه الكرة بحماة .

قال القاضى جمال الدين بن واصل : وساعدت الشيخ علم الدين على عملها وكان الملك المظفر يحضر ونحن نرسمها ويسألنا عن مواضع دقيقة فيها ، ولما مات الملك المظفر صاحب حماة ملك بعده ولده الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر محمود المذكور وعمره حينئذ عشر سنين وشهر واحد وثلاثة عشر يوما والقائم بتدبير المملكة سيف الدين طغريل مملوك الملك المظفر ومشاركه الشيخ شرف الدين عبدالعزيز بن محمد المعروف بشيخ الشيوخ والطواشى مرشد والوزير بهاء الدين بن التاج ومرجع الجميع إلى والدة الملك المنصور غازية خاتون بنت الملك الكامل .

وفيها : بلغ الملك الصالح نجم الدين أيوب وفاة ابنه الملك المغيث فتح الدين عمر فى حبس الصالح إسماعيل صاحب دمشق فاشتد حزن الصالح أيوب عليه وحنقه على الصالح إسماعيل.

وفى هذه السنة : توفى الملك المظفر شهاب الدين غازى ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب صاحب ميافارقين ، واستقر بعده فى ملكه ولده الملك الكامل ناصر الدين محمد بن غازى .

وفيها : سير من حماة الشيخ تاج الدين أحمد بن محمد بن نصر الله المعروف بيته ببنى المغيرك رسولا إلى الخليفة ببغداد وصحبته تقدمة من السلطان الملك المنصور صاحب حماة .

وفيها : توفى القاضى شهاب الدين إبراهيم بن عبدالله بن عبدالمنعم بن على بن محمد الشافعى عرف بابن أبى الدم قاضى حماة ، وكان قد توجه فى الرسلية إلى بغداد فمرض فى المعرة وعاد إلى حماة مريضًا فتوفى بها وهو الذى ألف التاريخ الكبير المظفرى وغيره .

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وستمائة :

فيها : سير الصالح إسماعيل وزيره أمين الدولة الذى كان سامريا وأسلم إلى العراق مستشفعا بالخليفة ليصلح بينه وبين ابن أخيه فلم يجب الخليفة إلى ذلك وكان أمين الدولة غالبا على الملك الصالح إسماعيل المذكور بحيث لا يخرج عن رأيه .

ذكر استيلاء الملك الصالح أيوب على دمشق

وفيها : تسلم عسكر الملك الصالح أيوب ومقدمهم معين الدين ابن الشيخ دمشق من الصالح إسماعيل ابن الملك العادل ، وكان محصورًا معه بدمشق إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص فتسلم دمشق على أن يستقر بيد الملك الصالح إسماعيل بعلبك وبصرى والسواد ويستقر بيد صاحب حمص وماهو مضاف إليها فأجابها معين الدين ابن الشيخ إلى ذلك ، ووصل إلى دمشق حسام الدين ابن أبى على بمن كان معه من العسكر المصرى ، واتفق بعد تسليم دمشق أن معين الدين ابن الشيخ مرض وتوفى بها وبقى حسام الدين بن أبى على نائبا بدمشق للملك الصالح أيوب ، ثم إن الخوارزمية خرجوا عن طاعة الملك الصالح أيوب فإنهم كانوا يعتقدون أنهم إذا كسروا الصالح إسماعيل وفتحوا دمشق يحصل لهم من البلاد والإقطاعات ما يرضى خاطرهم ، فلما لم يحصل لهم ذلك خرجوا عن طاعة الملك الصالح أيوب وصاروا مع الملك الصالح إسماعيل ، وانضم إليهم الناصر داود صاحب الكرك ، وساروا إلى دمشق وحصروها وغلت بها الأقوات وقاسى أهلها شدة عظيمة لم يسمع بمثلها ، وقام حسام الدين ابن أبى على الهدبانى فى حفظ دمشق أتم قيام وخرجت السنة والأمر على ذلك .

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفى هذه السنة : قصدت التتر بغداد وخرجت عساكر بغداد للقائهم ولم يكن للتتر بهم طاقة فولى التتر منهزمين على أعقابهم تحت الليل .

وفى هذه السنة : توفيت ربيعة خاتون بنت أيوب أخت السلطان صلاح الدين بدمشق بدار العقيقى ، وكانت قد جاوزت ثمانين سنة : وبنت مدرسة للحنابلة بجبل الصالحية .

وفيها : توفى الشيخ تقى الدين عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن الصلاح الفقية المحدث .

وفيها : توفى علم الدين على بن محمد بن عبد الصمد السخاوى شرح قصيدة الشاطبى فى القراءات وشرح المفصل للزمخشرى وسمى شرحه المفضل فى شرح المفصل وله مجموع سماه كتاب سفر السعادة وسفير الإفادة ذكر فيه مسائل مشكلة فى النحو وعدة من أبيات المعانى ولغة غريبة .

وفى هذه السنة : لما تسلم دمشق الملك الصالح أيوب تسلمت نواب الملك المنصور صاحب حماة سَلْمية وانتزعوها من صاحب حمص ، واستقرت سَلَمْية فى هذه السنة فى ملك الملك المنصور صاحب حماة .

وفيها : توفى الشيخ موفق الدين أبو البقاء يعيش بن محمد بن على الموصلى الأصل الحلبى المولد والمنشأ النحوى ويعرف بابن الصائغ وكان ظريفا حسن المحاضرة شرح المفصل شرحًا مستوفيًا ليس فى الشروح مثله وله غير ذلك وولد فى رمضان سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة بحلب وتوفى بها فى التاريخ المذكور ودفن بالمقام .

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وستمائة :

ذكر كسرة الخوارزمية على القصب واستيلاء الصالح أيوب على بعلبك

كنا قد ذكرنا اتفاق الخوارزمية مع الصالح إسماعيل والناصر داود ومحاصرتهم دمشق وبها حسام الدين بن أبى على ، ولما وقع ذلك اتفق الحلبيون والملك المنصور إبراهيم صاحب حمص وصاروا مع الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل وقصدوا الخوارزمية ، فرحلت الخوارزمية عن دمشق وساروا إلى نحو الحلبيين وصاحب حمص والتقوا على القصب فى هذه السنة ، فانهزمت الخوارزمية هزيمة قبيحة تشتت شملهم بعدها وقتل مقدمهم حسام الدين بركة خان وحمل رأسه إلى حلب ، ومضت طائفة من الخوارزميين مع مقدمهم كشولخان الخوارزمى ، فلحقوا بالتتر وصاروا معهم ، وانقطع منهم جماعة وتفرقوا فى الشام وخدموا به وكفى الله الناس شرهم ، ولما وصل خبر كسرتهم إلى الملك الصالح أيوب بديار مصر فرح فرحاً عظيماً ودقت البشائر بمصر وزال ما كان عنده من الغيظ على إبراهيم صاحب حمص ، وحصل بينهما التصافى بسبب ذلك ، وأما الصالح إسماعيل فإنه سار إلى الملك الناصر يوسف صاحب حلب واستحار به ، وأرسل

الصالح أيوب يطلبه فلم يسلمه الملك الناصر إليه ، ولما جرى ذلك رحل حسام الدين بن أبى على الهدبانى بمن عنده من العسكر بدمشق ونازل بعلبك وبها أولاد الصالح إسماعيل وحاصرها وتسلمها بالأمان وحمل أولاد الصالح إسماعيل إلى الملك الصالح أيوب بديار مصر فاعتقلوا هناك ، وكذلك بعث بأمين الدولة وزير الملك الصالح إسماعيل وأستاذ داره ناصر الدين يغمور فاعتقلا بمصر أيضاً وزينت القاهرة ومصر ودقت البشائر بها لفتح بعلبك ، واتفق فى هذه الأيام وفاة صاحب عجلون وهو سيف الدين بن قليج فتسلم الملك الصالح أيوب عجلون أيضاً ، ولما جرى ماذ كرناه أرسل الملك الصالح أيوب عسكراً مع الأمير فخر الدين يوسف ابن الشيخ وكان فخر الدين ابن الشيخ قد اعتقله الملك العادل أبو بكر بن الملك الكامل ، ثم لما ملك الملك الصالح أيوب مصر أفرج عنه وأمره بملازمة بيته فلازمه مدة ثم قدمه فى هذه السنة على العسكر وجهزه إلى حرب الملك الناصر داود صاحب الكرك فسار فخر الدين المذكور واستولى على جميع بلاد الملك الناصر وولى عليها وسار إلى الكرك وحاصرها وخرب ضياعها وضعف الملك الناصر ضعفا بالغا ولم يبق بيده غير الكرك وحدها .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : حبس الصالح أيوب مملوكه بيبرس وهو الذى كان معه لما اعتقل فى الكرك ، وسببه أن بيبرس المذكور مال إلى الخوارزمية وإلى الناصر داود وصار معهم على أستاذه لما جرده إلى غزة كما تقدم ذكره ، فأرسل استاذه الصالح أيوب واستماله فوصل إليه فاعتقله فى هذه السنة وكان آخر العهد به .

وفيها : أرسل الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص ابن شيركوه وطلب دستورًا من الملك الصالح أيوب ليصل إلى بابه وينتظم فى سلك خدمته ، وكان قد حصل بإبراهيم المذكور السل ، وسار على تلك الحالة من حمص متوجهًا إلى الديار المصرية ، ووصل إلى دمشق فقوى به المرض وتوفى فى دمشق فنقل إلى حمص ودفن بها ، وملك بعده ولده الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك المنصور إبراهيم المذكور .

وفى هذه السنة : بعد فتوح دمشق وبعلبك استدعى الملك الصالح أيوب خدمة حسام الدين بن أبى على إلى مصر ، وأرسل موضعه نائباً بدمشق الأمير جمال الدين بن مطروح ، ولما وصل حسام الدين بن أبى على إلى مصر استنابه الملك الصالح بها ، وسار الملك الصالح أيوب إلى دمشق ثم سار منها إلى بعلبك ثم عاد إلى دمشق ، ووصل إلى خدمة الملك الصالح أيوب بدمشق الملك المنصور محمد صاحب حماة والملك الأشرف موسى صاحب حمص فأكرمهما وقربهما

ثم أعطاهما الدستور فعادا إلى بلادهما ، واستمر الملك الصالح بالشام حتى خرجت هذه السنة .

وفى هذه السنة : توفى عماد الدين داود بن موشك بالكرك وكان جامعًا لمكارم الأخلاق .

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وستمائة :

وفيها : عاد الملك الصالح نجم الدين أيوب من الشام إلى الديار المصرية .

وفيها : فتح فخر الدين ابن الشيخ قلعتى عسقلان وطبرية والملك الصالح بالشام بعد محاصرتها مدة ، وكنا قد ذكرنا تسليمها إلى الفرنج فى سنة إحدى وأربعين وستمائة فعمروهما واستمرتا بأيدى الفرنج حتى فتحتا فى هذه السنة .

وفيها : سلم الأشرف صاحب حمص شميميس للملك الصالح أيوب فعظم ذلك على الحلبيين لئلا يحصل الطمع للملك الصالح فى ملك باقى الشام .

وفيها : توفى الملك العادل أبو بكر ابن السلطان الملك الكامل بالحبس وأمه الست السوداء تعرف ببنت الفقيه نصر ، وكان مسجوناً من حين قبض عليه ببلبيس إلى هذه الغاية ، فكان مدة مقامة بالسجن نحو ثمان سنين ، وكان عمره نحو ثلاثين سنة ، وخلف ولداً صغيرا وهو الملك المغيث فتح الدين عمر وهو الذى ملك الكرك فيما بعد ، ثم قتله الملك الظاهر بيبرس على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفى هذه السنة : توجه الطواشى مرشد المنصورى ومجاهد الدين أمير جندار من حماة إلى حلب وأحضرا بنت الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر صاحب حلب وهى عائشة خاتون زوج الملك المنصور صاحب حماة ، وحضرت معها أمها فاطمة خاتون بنت السلطان الكامل ابن الملك العادل ووصلت إلى حماة فى العشر الأوسط من رمضان من هذه السنة أعنى سنة خمس وأربعين وستمائة ، ووصلت فى تجمل عظيم واحتفل للقائها بحماة احتفالا عظيما .

وفى هذه السنة : توفى علاء الدين قرا سنقر الساقى العادلى أحد مماليك الملك العادل بن أيوب وصارت مماليكه بالولاء للملك الصالح أيوب ومنهم سيف الدين قلاوون الصالحى الذى صار له ملك مصر والشام على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفيها : توفى عمر بن محمد بن عبد الله المعروف بالشلوبينى بأشبيلية كان فاضلا إماما فى النحو شرح الجزولية وصنف فى النحو غير ذلك ، وكان فيه مع هذه الفضيلة التامة بله وغفلة ، وكنيته أبو على والشلوبينى نسبة إلى شلوبين ، وهو حصن منيع من حصون الأندلس من معاقل سواحل غرناطة على بحر الروم منه عمر الشلوبينى المذكور ، هذا ما نص عليه ابن سعيد

المغربي فى كتابه الكبير المسمى (بالمغرب فى أخبار أهل المغرب) فى المجلدة الخامسة عشرة بعد ذكر غرناطة .

قال : وقد وصف حصن شلوبين المذكور ، ومنه الشيخ أبو على عمر الشالوبينى ، قال : وقرأت عليه النحو وكان إمام نحاة أهل المغرب وكان فى طبقة أبى على الفارسى ، ومن هنا يتحقق أن الذى نقله القاضى شمس الدين بن خلكان ومن تابعه أن الشلوبين هو الأبيض الأشقر بلغة أهل الأندلس وهم محض لعدم وقوفهم على كتاب (المغرب فى حلى أهل المغرب)المذكور .

ثم دخلت سنة ست وأربعين وستمائة :

وفيها : أرسل الملك الناصر صاحب حلب عسكرا مع شمس الدين لولؤ الأرمنى فحاصروا الملك الاشرف موسى بحمص مدة شهرين فسلم إليهم حمص وتعوض عنها بتل باشر مضافا إلى ما بيده من تدمر والرحبة ، ولما بلغ الملك الصالح نجم الدين أيوب ذلك شق عليه وسار إلى الشام لارتجاع حمص من الحلبيين ، وكان قد حصل له مرض وورم فى مأبطه ثم فتح وحصل منه ناصور ووصل الملك الصالح إلى دمشق وأرسل عسكرا إلى حمص مع حسام الدين ابن أبى على فخر الدين ابن الشيخ فنازلوا حمص وحصروها ونصبوا عليها منجنيقا مغربيا يرمى بحجر زنتها مائة وأربعون رطلا بالشامى مع عدة منجنيقات أخرى وكان الشتاء والبرد قويًا ، واستمر عليها الحصار واتفق حينئذ وصول الخبر إلى الملك الصالح وهو بدمشق بوصول الفرنج إلى جهة دمياط وكان أيضًا قد قوى مرضه ووصل أيضا نجم الدين الباذراى رسول الخليفة وسعى فى الصلح بين الملك الصالح والحلبيين وأن تستقر حمص بيد الحلبيين فأجاب الملك الصالح إلى ذلك وأمر العسكر فرحلوا عن حمص بعد أن أشرفوا على أخذها ثم رحل الملك الصالح عن دمشق فى محفة لقوة مرضه واستناب بدمشق جمال الدين بن يغمور وعزل ابن مطروح وأرسل حسام الدين ابن أبى على قدامه ليسبقه إلى مصر وينوب عنه بها .

وفيها : فى يوم الخميس السادس والعشرين من شوال من السنة المذكورة أعنى سنة ست وأربعين وستمائة ، توفى أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبى بكر بن يونس المعروف بابن الحاجب الملقب جمال الدين وكان والده عمر حاجبا للأمير عز الدين بن موسك الصالحى وكان كرديا واشتغل ولده أبو عمرو والمذكور بالقاهرة فى صغره بالقرآن والفقه على مذهب مالك بن أنس وبالعربية وبرع فى علومه وأتقنها ثم انتقل إلى دمشق ودرس بجامعها وأكب الخلق على الاشتغال عليه ، ثم عاد إلى القاهرة ، ثم انتقل إلى الإسكندرية فتوفى بها ، وكان مولد الشيخ أبى عمرو المذكور فى أواخر سنة سبعين وخمسمائة بإسنا بليدة بالصعيد ، وكان الشيخ أبو عمرو

المذكور متفننا فى علوم شتى وكان الأغلب عليه علم العربية وأصول الفقه صنف فى العربية مقدمته الكافية واختصر كتاب الأحكام للآمدى فى أصول الفقه فطبق ذكر هذين الكتابين أعنى الكافية ومختصره فى أصول الفقه جميع البلاد خصوصابلاد العجم ، وأكب الناس على الاشتغال بهما إلى زماننا هذا وله غيرهما عدة مصنفات .

وفيها : أعنى فى سنة ست وأربعين وستمائة توفى عز الدين أيبك المعظمى فى محبسه بالقاهرة ، وكان المذكور قد ملك صرخد فى سنة ثمان وستمائة حسبما تقدم ذكره فى السنة المذكورة .

وقال ابن خلكان : إنه ملك صرخد فى سنة إحدى عشرة وستمائة ، قال : لأن استاذه الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب حج فى السنة المذكورة وأخذ صرخد من صاحبها ابن قراجا وأعطاها مملوكه أيبك المذكور ، والظاهر أن الأول أصح واستمرت فى يد أيبك إلى سنة أربع وأربعين وستمائة فأخذها الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل من أيبك المذكور وأمسك أيبك فى السنة المذكورة وحمله إلى القاهرة وحبسه فى دار الطواشى صواب واستمر معتقلا بها حتى توفى معتقلا فى هذه السنة فى أوائل جمادى الأولى ودفن خارج باب النصر فى تربة شمس الدولة ، ثم نقل إلى الشام ودفن فى تربة كان قد أنشأها بظاهر دمشق على الشرف الأعلى مطلة على الميدان الأخضر الكبير رحمه الله تعالى هكذا نقلت ذلك من وفيات الأعيان .

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وستمائة :

ذكر ملك الفرنج دمياط ونزول الملك الصالح أشمون طناخ

وفى هذه السنة : سار ريد إفرنس وهو من أعظم ملوك الفرنج وريد بلغتهم هو الملك أى ملك إفرنس وإفرنس أمة عظيمة من أمم الفرنج وكان جمع ريد افرنس نحو خمسين ألف مقاتل وشتى فى جزيرة قبرس ، ثم سار ووصل فى هذه السنة إلى دمياط وكان قد شحنها الملك الصالح بآلات عظيمة وذخائر وافرة وجعل فيها بنى كنانة وهم مشهورون بالشجاعة وكان قد أرسل الملك الصالح فخر الدين ابن الشيخ بجماعة كثيرة من العسكر ليكونوا قبالة الفرنج بظاهر دمياط ولما وصلت الفرنج عبر فخر الدين ابن الشيخ من البر الغربى إلى البر الشرقى ووصل الفرنج إلى البر الغربى لتسع بقين من صفر هذه السنة ، ولما جرى ذلك هربت بنو كنانة وأهل دمياط منها وأخلوا دمياط وتركوا أبوابها مفتحة فتملكها الفرنج بغير قتال واستولوا على مابها من الذخائر والسلاحات ، وكان هذا من أعظم المصائب وعظم ذلك على الملك الصالح وأمر

بشنق بنى كنانة فشنقوا عن آخرهم ، ووصل الملك الصالح إلى المنصورة ونزل بها يوم الثلاثاء لخمس بقين من صفر هذه السنة وقد اشتد مرضه وهو السل والقرحة التى كانت به وقد أيس منه .

ذكر استيلاء الملك الصالح أيوب على الكرك

وفى هذه السنة : سار الملك الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبى بكر ابن أيوب من الكرك إلى حلب لما ضاقت عليه الأمور مستجيرًا بالملك الناصر صاحب حلب ، وكان قد بقى عند الناصر داود من الجوهر مقدار كثير قال كان يساوى مائة ألف دينار إذا بيع بالهوان ، فلما وصل إلى حلب سير الجوهر المذكور إلى بغداد وأودعه عند الخليفة المستعصم ووصل إليه خط الخليفة بتسليمه فلم تقع عينه عليه بعد ذلك ، ولما سار الناصر داود عن الكرك استناب عليها ابنه عيسى ولقبه الملك المعظم ، وكان له ولدان آخران أكبر من عيسى المذكور هما الأمجد حسن والظاهر شاذى فغضب الأخوان المذكوران من تقديم أخيهما عيسى عليهما ، وبعد سفر أبيهما قبضا على أخيهما عيسى وتوجه الأمجد حسن إلى الملك الصالح أيوب وهو مريض على المنصورة وبذل له تسليم الكرك على إقطاع له ولأخيه بديار مصر فأحسن إليه الصالح أيوب وأعطاهما إقطاعا أرضاهما وأرسل إلى الكرك وتسلمها يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة من هذه السنة وفرح الملك الصالح بالكرك فرحا عظيما مع ماهو فيه من المرض لما كان فى خاطره من صاحبها .

ذكر وفاة الملك الصالح أيوب

وفى هذه السنة : توفى الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر ابن أيوب فى ليلة الأحد لأربع عشرة ليلة مضت من شعبان هذه السنة أعنى سنة سبع وأربعين وستمائة ، وكانت مدة مملكته للديار المصرية تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوما وكان عمره نحو أربع وأربعين سنة ، وكان مهيبا عالى الهمة عفيفا طاهر اللسان والذيل شديد الوقار كثير الصمت ، وجمع من المماليك الترك ما لم يجتمع لغيره من أهل بيته حتى كان أكثر أمراء عسكره مماليكه ورتب جماعة من المماليك الترك حول دهليزه وسماهم البحرية وكان لا يجسر أن يخاطبه أحد إلا جوابا ولايتكلم أحد بحضرته ابتداء وكانت القصص توضع بين يديه مع الخدام فيكتب بيده عليها وتخرج للموقعين ، وكان لايستقل أحد من أهل

دولته بأمر من الأمور إلا بعد مشاورته بالقصص ، وكان غاويًا بالعمارة بنى قلعة الجزيرة وبنى الصالحية وهى بلدة بالسايح وبنى له بها قصورا للتصيد وبنى قصرا عظيما بين مصر والقاهرة يسمى بالكبش ، وكانت أم الملك الصالح أيوب جارية سوداء تسمى ورد المنى غشيها السلطان الملك الكامل فحملت بالملك الصالح ، وكان للملك الصالح ثلاثة أولاد أحدهم فتح الدين عمر توفى فى حبس الصالح إسماعيل ، وكان قد توفى ولده الآخر قبله ولم يكن قد بقى له غير المعظم توران شاه بحصن كيفا ومات الملك الصالح ولم يوص بالملك إلى أحد ، فلما توفى أحضرت شجر الدر وهى جارية الملك الصالح فخر الدين ابن الشيخ والطواشى جمال الدين محسنا وعرفتهما بموت السلطان فكتموا ذلك خوفًا من الفرنج ، وجمعت شجر الدر الأمراء وقالت لهم : السلطان يأمركم أن تحلفوا له ثم من بعده لولده الملك المعظم توران شاه المقيم بحصن كيفا وللأمير فخر الدين ابن الشيخ بأتابكية العسكر وكتبت إلى حسام الدين بن أبى على وهو النائب بمصر بمثل ذلك فحلفت الأمراء والأجناد والكبراء بالعسكر وبمصر وبالقاهرة على ذلك فى العشر الأوسط من شعبان هذه السنة ، وكان بعد ذلك تخرج الكتب والمراسم وعليها علامة الملك الصالح ، وكان يكتبها خادم يقال له السهيلى فلايشك أحد فى أنه خط السلطان ، فأرسل فخر الدين ابن الشيخ قاصدًا لإحضار الملك المعظم من حصن كيفا ، ولما جرى ذلك شاع بين الناس موت السلطان ولكن أرباب الدولة لايجسرون أن يتفوهوا بذلك وتقدم الفرنج عن دمياط إلى المنصورة وجرى بينهم وبين المسلمين فى مستهل رمضان من هذه السنة وقعة عظيمة استشهد فيها جماعة من كبار المسلمين ونزلت الفرنج بحر مساح ثم قربوا من المسلمين ثم إن الفرنج كبسوا المسلمين على المنصورة بكرة الثلاث لخمس مضين من ذى القعدة ، وكان فخر الدين يوسف ابن الشيخ صدر الدين ابن حمويه فى الحمام بالمنصورة فركب مسرعاً وصادفه جماعة من الفرنج فقتلوه وكان سعيدا فى الدنيا ومات شهيدا ثم حملت المسلمون والترك البحرية على الفرنج فردوهم على أعقابهم واستمرت بهم الهزيمة وأما الملك المعظم توران شاه فإنه سار من حصن كيفا ووصل إلى دمشق فى رمضان من هذه السنة وعيدبها عيد الفطر ووصل إلى المنصورة يوم الخميس لتسع بقين من ذى القعدة من هذه السنة أعنى سنة سبع وأربعين وستمائة ، ثم اشتد القتال بين المسلمين والفرنج برًا وبحرًا ووقعت مراكب المسلمين على الفرنج وأخذوا منهم اثنين وثلاثين مركبا منها تسع شوانى فضعفت الفرنج لذلك وأرسلوا يطلبون القدس وبعض الساحل وأن يسلموا دمياط إلى المسلمين فلم تقع الإجابة إلى ذلك .

ذكر غير ذلك

وفى هذه السنة : وقع الحرب بين صاحب الموصل بدر الدين لولو وبين الملك الناصر صاحب حلب ، فأرسل إليه الملك الناصر عسكراً والتقوا مع المواصلة بظاهر نصيبين فانهزمت

المواصلة هزيمة قبيحة واستولى الحلبيون على أثقال لولو صاحب الموصل وخيمه وتسلم الحلبيون نصيبين وأخذوها من صاحب الموصل ، ثم ساروا إلى دارا فنازلوها وتسلموها وخربوها بعد حصار ثلاثة أشهر ، ثم تسلموا قرقيسيا وعادوا إلى حلب .

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وستمائة :

ذكر هزيمة الفرنج وأسر ملكهم

لما أقام الفرنج قبالة المسلمين بالمنصورة فنيت أزوادهم وانقطع عنهم المدد من دمياط ، فإن المسلمين قطعوا الطريق الواصل من دمياط إليهم فلم يبق لهم صبر على المقام فرحلوا ليلة الأربعاء لثلاث مضين من المحرم متوجهين إلى دمياط ، وركب المسلمون أكتافهم ، ولما استقر صباح الأربعاء خالطهم المسلمون وبذلوا فيهم السيف فلم يسلم منهم إلا القليل وبلغت عدة القتلى من الفرنج ثلاثين ألفا على ما قيل وانحاز ريد أفرانس ومن معه من الملوك إلى بلد هناك وطلبوا الأمان فأمنهم الطواشى محسن الصالحى ثم احتيط عليهم وأحضروا إلى المنصورة وقيدريد أفرنس وجعل فى الدار التى كان ينزلها كاتب الإنشاء فخر الدين بن لقمان ووكل به الطواشى صبيح المعظمى ، ولما جرى ذلك رحل الملك المعظم بالعساكر من المنصورة ونزل بفارسكور ونصب بها برج خشب للملك المعظم .

ذكر مقتل الملك المعظم

وفى هذه السنة : يوم الاثنين لليلة بقيت من المحرم ، قتل الملك المعظم توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب ، وسبب ذلك أن المذكور أطرح جانب أمراء أبيه ومماليكه وكل منهم بلغه عنه من التهديد والوعيد ما نفر قلبه منه ، واعتمد على بطانته.الذين وصلوا معه من حصن كيفا وكانوا أطرافا أراذل ، فاجتمعت البحرية على قتله بعد نزوله بفارسكور وهجموا عليه بالسيوف ، وكان أول من ضربه ركن الدين بيبرس الذى صار سلطانا فيما بعد على ما سنذكره إن شاء الله تعالى فهرب الملك المعظم منهم إلى البرج الخشب الذى نصب له بفارسكور على ما تقدم ذكره ، فأطلقوا فى البرج النار فخرج الملك المعظم من البرج هاربًا طالبًا البحر ليركب

فى حراقته فحالوا بينه وبينها بالنشاب فطرح نفسه فى البحر فأدركوه وأتموا قتله فى نهار الاثنين المذكور ، وكانت مدة إقامته فى المملكة من حين وصوله إلى الديار المصرية شهرين وأياما ، ولما جرى ذلك اجتمعت الأمراء واتفقوا على أن يقيموا شجر الدر زوجة الملك الصالح فى المملكة ، وأن يكون عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحى المعروف بالتركمانى أتابك العسكر ، وحلفوا على ذلك وخطب لشجر الدر على المنابر وضربت السكة باسمها وكان نقش السكة المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل ، وكانت شجر الدر قد ولدت من الملك الصالح ولداً ومات صغيراً وكان اسمه خليل فسميت والدة خليل ، وكانت صورة علامتها على المناشير والتواقيع والدة خليل ولما استقر ذلك وقع الحديث مع ريد أفرنس فى تسليم دمياط بالإفراج عنه فتقدم ريد أفرنس إلى من بها من نوابه فى تسليمها فسلموها وصعد إليها العلم السلطانى يوم الجمعة لثلاث مضين من صفر من هذه السنة ، أعنى سنة ثمان وأربعين وستمائة ، وأطلق ريد أفرنس فركب فى البحر بمن سلم معه نهار السبت غد الجمعة المذكورة وأقلعوا إلى عكا ووردت البشرى بهذا الفتح العظيم إلى سائر الأقطار ، وفى واقعة ريد أفرنس المذكورة يقول جمال الدين يحيى بن مطروح أبياتا منها :

قل للفرنسيس إذا جئته ... مقال صدق عن فؤول نصيح
أتيت مصراً تبتغى ملكها ... تحسب أن الزمر ياطبل ريح
وكل أصحابك أوردتهم ... بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفا لا يرى منهم ... غير قتيل أو أسير جريح
وقل لهم إن أضمروا عودة ... لأخذ ثار أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باقى والطواشى صبيح

ثم عادت العساكر ودخلت القاهرة يوم الخميس تاسع صفر من السنة المذكورة ، وأرسل المصريون رسولا إلى الأمراء الذين بدمشق فى موافقتهم على ذلك فلم يجيبوا إليه ، وكان الملك السعيد ابن الملك العزيز عثمان ابن الملك العادل صاحب الصبية قد سلمها إلى الملك الصالح أيوب فلما جرى ذلك قصد قلعة الصبيبة فسلمت إليه وكان من الملك السعيد ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر ملك الملك المغيث الكرك

كان الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك العادل أبى بكر ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب قد أرسله الملك المعظم توران شاه لما وصل إلى الديار المصرية إلى الشوبك واعتقله بها وكان النائب على الكرك والشوبك بدر الدين الصوابى الصالحى ، فلما

جرى ماذكرناه من قتل الملك المعظم ولما استقر عليه الحال بادر بدر الدين الصوابى المذكور فأفرج عن المغيث وملكه القلعتين الكرك والشوبك ، وقام فى خدمته أتم قيام .

ذكر استيلاء الملك الناصر صاحب حلب على دمشق

ولما جرى ما ذكرناه ولم يجب أمراء دمشق إلى ذلك ، كاتب الأمراء القيمرية الذين بها الملك الناصر يوسف صاحب حلب ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازى ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين فسار إليهم وملك دمشق ودخلها فى يوم السبت لثمان مضين من ربيع الآخر من هذه السنة ، ولما استقر الناصر المذكور فى ملك دمشق خلع على جمال الدين ابن يغمور وعلى الأمراء القيمرية به وأحسن إليهم واعتقل جماعة من الأمراء مماليك الملك الصالح وعصت عليه بعلبك وعجلون وشميميس مدة مديدة ثم سلمت جميعها إليه ، ولما ورد الخبر بذلك إلى مصر قبضوا على من عندهم من القيمرية وعلى كل من اتهم بالميل إلى الحلبيين .

ذكر سلطنة أيبك التركمانى

ثم إن كبراء الدولة اتفقوا على إقامة عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحى فى السلطنة ، لأنه إذا استقر أمر المملكة فى امرأة على ما هو عليه الحال تفسد الأمور فأقاموا أيبك المذكور وركب بالسناحق السلطانية وحملت الغاشية بين يديه يوم السبت آخر ربيع الآخر من هذه السنة ، ولقب الملك المعز وأبطلت السكة والخطبة التى كانت باسم شجر الدر .

ذكر عقد السلطنة للملك الأشرف موسى بن يوسف صاحب اليمن المعروف بأقسيس

ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، ثم اجتمعت الأمراء واتفقوا على أنه لابد من إقامة شخص من بنى أيوب فى السلطنة ، واجتمعوا على إقامة موسى المذكور ولقبوه الملك الأشرف ، وأن يكون أيبك التركمانى أتابكه ، وأجلس الأشرف موسى المذكور فى دست السلطنة ، وحضرت الأمراء فى خدمته يوم السبت لخمس مضين من جمادى الأولى من هذه السنة ، وكان بغزة حينئذ جماعة من عسكر مصر مقدمهم خاص ترك فسار إليهم عسكر دمشق فاندفعوا من غزة إلى الصالحية بالسابح واتفقوا على طاعة المغيث صاحب الكرك

وخطبوا له بالصالحية يوم الجمعة لأربع مضين من جمادى الآخرة من هذه السنة ، ولما جرى ذلك اتفق كبراء الدولة بمصر ونادوا بالقاهرة ومصر أن البلاد للخليفة المستعصم ، ثم جددت الأيمان للملك الأشرف موسى بالسلطنة ولأيبك التركمانى بالأتابكية ، وفى يوم الأحد لخمس مضين من رجب رحل فارس الدين أقطاى الصالحى الجمدار متوجها إلى جهة غزة ومعه تقدير ألفى فارس ، وكان أقطاى المذكور مقدم البحرية فلما وصل إلى غزة اندفع من كان بها من جهة الملك الناصر بين يديه .

ذكر تخريب دمياط

وفى هذه السنة : اتفق آراء أكابر الدولة وهدموا سور دمياط فى العشر الأخير من شعبان هذه السنة لما حصل للمسلمين عليها من الشدة مرة بعد أخرى ، وبنوا مدينة بالقرب منها فى البر وسموها المنشية ، وأسوار دمياط التى هدمت من عمارة المتوكل الخليفة العباسى .

ذكر القبض على الناصر داود

وفى هذه السنة : مستهل شعبان قبض الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب على الناصر داود الذى كان صاحب الكرك وبعث به إلى حمص فاعتقل بها ، وذلك لأشياء بلغت الناصر يوسف عن المذكور خاف منها .

ذكر مسير السلطان الملك الناصر يوسف صاحب الشام إلى الديار المصرية وكسرته

وفى هذه السنة : سار الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز بعساكره من دمشق وصحبته من ملوك أهل بيته : الصالح إسماعيل بن العادل بن أيوب ، والأشرف موسى صاحب حمص وهو حينئذ صاحب تل باشر والرحبة وتدمر ، والمعظم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين ، وأخو المعظم المذكور نصرة الدين ، والأمجد حسن والظاهر شاذى ابنا الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى بن العادل بن أيوب ، وتقى الدين عباس ابن الملك العادل بن أيوب ، ومقدم الجيش شمس الدين لولو الأرمنى وإليه تدبير المملكة فرحلوا من دمشق يوم الأحد منتصف رمضان من هذه السنة .

ولما بلغ المصريين ذلك اهتموا لقتاله ودفعه وبرزوا إلى السايح وتركوا الأشرف المسمى بالسلطان بقلعة الجبل وأفرج أيبك التركمانى حينئذ عن ولدى الصالح إسماعيل وهما المنصور إبراهيم والملك السعيد عبد الملك ابنا الصالح إسماعيل وكانا معتقلين من حين استيلاء الملك الصالح أيوب على بعلبك وخلع عليهما ليتوهم الناصر يوسف صاحب دمشق من أبيهما الصالح إسماعيل والتقى العسكران المصرى والشامى بالقرب من العباسية فى يوم الخميس عاشر ذى القعدة من هذه السنة ، فكانت الكسرة أولا على عسكر مصر فخامر جماعة من المماليك الترك العزيزية على الملك الناصر صاحب دمشق وثبت المعز أيبك التركمانى فى جماعة قليلة من البحرية فانضاف جماعة من العزيزية مماليك والد الملك الناصر إلى أيبك التركانى ، ولما انكسرت المصريون وتبعتهم العساكر الشامية ولم يشكوا فى النصر بقى الملك الناصر تحت السناجق السلطانية مع جماعة يسيرة من المتعممين لا يتحرك من موضعه ، فجعل المعز التركمانى بمن معه عليه فولى الملك الناصر منهزما طالبا جهة الشام ، ثم حمل أيبك التركمانى المذكور على طلب شمس الدين لولو فهزمهم وأخذ شمس الدين لولو أسيراً فضربت عنقه بين يديه ، وكذلك أسر الأمير ضياء الدين القيمرى فضربت عنقه ، وأسر يومئذ الملك الصالح إسماعيل والأشرف صاحب حمص والمعظم توران شاه بن صلاح الدين بن أيوب وأخوه نصرة الدين ، ووصل عسكر الملك الناصر فى أثر المنهزمين إلى العباسية وضربوا بها دهليز الملك الناصر وهم لا يشكون أن الهزيمة تمت على المصريين ، فلما بلغهم هروب الملك الناصر اختلفت آراؤهم فمنهم من أشار بالدخول إلى القاهرة وتملكها ولو فعلوه لما كان بقى مع أيبك التركمانى من يقاتلهم به وكان هرب فإن غالب المصريين المنهزمين وصلوا إلى الصعيد ، ومنهم من أشار بالرجوع إلى الشام ، وكان معهم تاج الملوك بن المعظم وهو مجروح وكانت الواقعة يوم الخميس ووصل المنهزمون من المصريين إلى القاهرة فى غد الوقعة نهار الجمعة فلم يشك أهل مصر فى ملك الملك الناصر ديار مصر وخطب له فى الجمعة المذكورة بقلعة الجبل ومصر .

وأما القاهرة فلم يقم فيها فى ذلك النهار خطبة لأحد ثم وردت إليهم البشرى بانتصار البحرية ودخل أيبك التركمانى والبحرية إلى القاهرة يوم السبت ثانى عشر ذى القعدة ومعه الصالح إسماعيل تحت الاحتياط وغيره من المعتقلين فحبسوا بقلعة الجبل وعقب ذلك أخرج أيبك التركمانى أمين الدولة و زير الصالح إسماعيل وأستاذ داره يغمور وكانا معتقلين من حين استيلاء الصالح أيوب على بعلبك فشنقهما على باب قلعة الجبل رابع عشر ذى القعدة ، وفى ليلة الأحد السابع والعشرين من ذى القعدة هجم جماعة على الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن الملك العادل بن أيوب وهو يمص قصب سكر وأخرجوه إلى ظاهر قلعة الجبل من جهة القرافة فقتلوه ودفن هناك وعمره قريب من خمسين سنة ، وكانت أمه رومية من حظايا الملك العادل .

وفى هذه السنة ؛ بعد هزيمة الملك الناصر صاحب الشام سار فارس الدين أقطاى بثلاثة آلاف فارس إلى غزة فاستولى عليها ثم عاد إلى الديار المصرية .

ذكر قتل صاحب اليمن

وفى هذه السنة : وثب على الملك المنصور عمر صاحب اليمن جماعة من مماليكه فقتلوه ، وهو عمر بن على بن رسول وكان والده على بن رسول أستاذ دار الملك المسعود ابن السلطان الملك الكامل ، فلما سار الملك المسعود قاصداً الشام ومات بمكة على ما تقدم ذكره استناب أستاذ داره على بن رسول المذكور باليمن فاستقر نائبا بها لبنى أيوب ، وكان لعلى المذكور إخوة فأحضروا إلى مصر وأخذوا رهائن خوفاً من تغلب على بن رسول على اليمن ، واستمر المذكور نائبا باليمن حتى مات قبل سنة ثلاثين وستمائة ، واستولى على اليمن بعده ولده عمر بن على المذكور على ما كان عليه أبوه من النيابة فأرسل من مصر أعمامه ليعزلوه ويكونوا نوابا موضعه ، فلما وصلوا إلى اليمن قبض عمر المذكور عليهم واعتقلهم ، واستقلّ عمر المذكور بملك اليمن يومئذ وتلقب بالملك المنصور واستكثر من المماليك الترك فقتلوه فى هذه السنة ، أعنى سنة ثمان وأربعين وستمائة ، واستقر بعده فى ملك اليمن ابنه يوسف بن عمر وتلقب بالملك المظفر وصفا له ملك اليمن وطالت أيام مملكته على ما ستعلمه إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وستمائة :

وفيها : توفى الصاحب محيى الدين بن مطروح وكان متقدما عند الملك الصالح أيوب ، كان يتولى له لما كان الصالح بالشرق نظر الجيش ثم استعمله على دمشق ثم عزله وولى ابن يغمور ، وكان ابن مطروح المذكور فاضلا فى النثر والنظم فمن شعره :

عانقته فسكرت من طيب الشذا ... غصن رطيب بالنسيم قد اغتذا
نشوان ما شرب المدام وإنما ... أمسى بخمر رُضَابِهِ متنبذا
جاء العذول يلومنى من بعد ما ... أخذ الغرام على فيه مأخذا
لا أرعوى لا أنثنى لا أنتهى ... عن حبه فليهذ فيه من هذى
إن عشت عشت على الغرام وإن أمت ... وَجْدًا به وصبابة يا حبذا

وفيها : جهز الملك الناصر يوسف صاحب الشام عسكراً إلى غزة ، وخرج المصريون إلى السائح وأقاموا كذلك حتى خرجت هذه السنة .

وفيها : توفى علم الدين قيصر ابن أبى القاسم بن عبد الغنى بن مسافر الفقيه الحنفى المقرى المعروف بتعاسيف ، وكان إماما فى العلوم الرياضية ، اشتغل بالديار المصرية والشام ، ثم سار إلى الموصل وقرأ على الشيخ كمال الدين موسى بن يونس علم الموسيقى ، ثم عاد إلى الشام وتوفى بدمشق فى شهر رجب من السنة المذكورة ، ومولده سنة أربع وسبعين وخمسمائة بأصفون من شرقى صعيد مصر .

ثم دخلت سنة خمسين وستمائة :

ولم يقع لنا فيها ما يصلح أن يؤرخ .

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وستمائة :

فيها : استقر الصلح بين الملك الناصر يوسف صاحب الشام وبين البحرية بمصر على أن يكون للمصريين إلى نهر الأردن ، وللملك الناصر ما وراء ذلك ، وكان نجم الدين الباذراى رسول الخليفة هو الذى حضر من جهة الخليفة وأصلح بينهم على ذلك ورجع كل منهم إلى مقره .

وفيها : قطع أبيك التركمانى خبز حسام الدين ابن أبى على الهدبانى فطاب دستوراً فأعطيه وسار إلى الشام فاستخدمه الملك الناصر يوسف بدمشق .

ذكر أحوال الناصر صاحب الكرك

وفيها : أفرج الملك الناصر يوسف عن الملك الناصر داود بن المعظم الذى كان صاحب الكرك ، وكان قد اعتقله بقلعة حمص وذلك بشفاعة الخليفة المستعصم فيه فأفرج عنه وأمره أن لا يسكن فى بلاده فرحل الناصر داود المذكور إلى جهة بغداد فلم يمكنوه من الوصول إليها وطلب وديعته الجوهر فمنعوه إياها وكتب الملك الناصر يوسف إلى ملوك الأطراف أنهم لا يؤووه ولا يميروه فبقى الناصر داود فى جهات عانة والحديثة وضاقت به الأحوال وبمن معه وانضم إليه جماعة من غزيه فبقوا يرحلون وينزلون جميعًا ، ثم لما قوى عليهم الحرو ولم يبق بالبرية عشب قصدوا أزوار الفرات يقاسون بقية الليل وهواجر النهار ، وكان معه أولاده وكان لولده الظاهر شاذى فهد فكان يتصيد فى النهار ما يزيد على عشرة غزلان ، وكان يمضى للملك الناصر داود وأصحابه أياما لا يطعمون غير لحوم الغزلان ، واتفق أن الأشرف صاحب تل باشر وتدمر

والرحبة يومئذ أرسل إلى الناصر داود مركبين موسقين دقيقاً وشعيراً ، فأرسل صاحب دمشق وتهدده على ذلك ، ثم إن الناصر داود قصد مكانا للشرابى واستجار به فرتب له الشرابى شيئاً دون كفايته وأذن له فى النزول بالأنبار وبينها وبين بغداد ثلاثة أيام ، والناصر داود مع ذلك يتضرع إلى الخليفة المستعصم فلا يجيب ضراعته ويطلب وديعته فلا يرد لهفته ولا يجيبه إلا بالمماطلة والمطاولة ، وكانت مدة مقامه متنقلا فى الصحارى مع غزيه قريب ثلاثة أشهر ، ثم بعد ذلك أرسل الخليفة وشفع فيه عند الملك الناصر فأذن له فى العود إلى دمشق ، ورتب له مائة ألف درهم على بحيرة فامية وغيرها فلم يتحصل له من ذلك إلا دون ثلاثين ألف درهم .

وفى هذه السنة : وصلت الأخبار من مكة بأن ناراً ظهرت من عدن وبعض جبالها بحيث كانت تظهر فى الليل ويرتفع منها فى النهار دخان عظيم .

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وستمائة :

ذكر دولة الحفصيين ملوك تونس

وإنما ذكرناها فى هذه السنة لأنها كالمتوسطة لمدة ملكهم وهو ما نقلناه من الشيخ الفاضل ركن الدين بن قويع التونسى قال :

والحفصيون أولهم أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى وهنتاتة بتائين مثناتين من فوقهما ، قبيلة من المصامدة ويزعمون أنهم قرشيون من بنى عدى بن كعب رهط عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان أبو حفص المذكور من أكبر أصحاب ابن تومرت بعد عبد المؤمن ، وتولى عبد الواحد بن أبى حفص أفريقية نيابة عن بنى عبد المؤمن فى سنة ثلاث وستمائة ، ومات سلخ ذى الحجة سنة ثمانى عشرة وستمائة فتولى أبو العلاء من بنى عبد المؤمن ، ثم توفى فعادت أفريقية إلى ولاية الحفصيين وتولى منهم عبد الله بن عبد الواحد بن أبى حفص فى سنة ثلاث وعشرين وستمائة .

ولما تولى ولى أخاه أبا زكريا يحيى قابس وأخاه أبا إبراهيم إسحق بلاد الجريد ، ثم خرج على عبد الله وهو على قابس أصحابه ورجموه وطردوه وولوا موضعه أخاه أبا زكريا بن عبد الواحد سنة اثنتين وستين ، فنقم بنو عبد المؤمن على أبى زكريا ذلك فأسقط أبو زكريا اسم عبد المؤمن من الخطبة ، وبقى اسم المهدى وخلع طاعة بنى عبد المؤمن وتملك أفريقية وخطب لنفسه بالأمير المرتضى واتسعت مملكته وفتح تلمسان والغرب الأوسط وبلاد الجريد والزاب وبقى كذلك حتى توفى على بونة سنة سبع وأربعين وستمائة ، وأنشأ فى تونس بنايات

عظيمة شامخة وكان عالما بالأدب وخلف أربعة بنين وهم أبو عبد الله محمد وأبو إسحق إبراهيم وأبو حفص عمر وأبو بكر وكنيته أبو يحيى وخلف أخوين وهما أبو إبراهيم إسحق ومحمد اللحياني ابني عبد الواحد بن أبي حفص وكان محمد اللحياني المذكور صالحا منقطعًا يتبرك به ، ثم تولى بعده ابنه أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا ثم سعى عمه أبو إبراهيم في خلعه فخلع وبايع لأخيه محمد اللحياني الزاهد على كره منه لذلك فجمع أبو عبد الله محمد المخلوع أصحابه في يوم خلعه وشد على عميه فقهرهما وقتلهما واستقر في ملكه وتلقب وخطب لنفسه بالمستنصر بالله أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد ابن الأمراء الراشدين ، وفي أيامه في سنة ثمان وستين وستمائة وصل الفرنسيس إلى أفريقية بجموع الفرنج ، وأشرفت أفريقية على الذهاب فقصمه الله ومات الفرنسيس وتفرقت تلك الجموع ، وفي أيامه خافه أخوه أبو إسحق إبراهيم بن أبي زكريا فهرب ثم أقام بتلمسان ، وبقي المستنصر المذكور كذلك حتى توفي ليلة حادي عشر ذي الحجة سنة خمس وسبعين وستمائة ، فملك ابنه يحيى بن محمد بن أبي زكريا وتلقب بالواثق بالله أمير المؤمنين ، وكان ضعيف الرأي فتحرك عليه عمه أبو إسحق إبراهيم الذي هرب وأقام بتلمسان وغلب على الواثق فخلع نفسه ، واستقر أبو إسحق إبراهيم في المملكة في ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وستمائة ، وخطب لنفسه بالأمير المجاهد وترك زي الحفصيين وأقام على زي زناتة ، وعكف على الشرب وفرق المملكة على أولاده فوثبت أولاده على الواثق المخلوع وذبحوه وذبحوا معه ولديه الفضل والطيب ابني يحيى الواثق المذكور ، وسلم للواثق ابن صغير تلقب أبا عصيدة لأنهم يصنعون للنفساء عصيدة فيها أدوية ويهدى منها للجيران وعملت أم الصبي ذلك فلقب ولدها بأبي عصيدة ، ثم ظهر إنسان ادعى أنه الفضل بن الواثق الذي ذبح مع ابنه واجتمعت عليه الناس وقصد أبا إسحق إبراهيم وقهره فهرب أبو إسحق إلى بجاية وبها ابنه أبو فارس عبد العزيز بن إبراهيم فترك أبو فارس أباه ببجاية وسار بأخويه وجمعه إلى الداعي بتونس والتقى الجمعان فانهزم عسكر بجاية وقتل أبو فارس وثلاثة من إخوته وأنجاله أخ اسمه يحيى بن إبراهيم وعمه أبو حفص عمر بن أبي زكريا ، ولما هزم الداعي عسكر بجاية وقتل المذكورين أرسل إلى بجاية من قتل أبا إسحق إبراهيم وجاء برأسه ، ثم تحدث الناس بدعوة الداعي واجتمعت العرب على عمر ابن أبي زكريا بعد هروبه من المعركة وقوى أمره ، وقصد الداعي ثانيا بتونس وقهره واستتر الداعي في دور بعض التجار بتونس ثم أحضر واعترف بنسبه وضربت عنقه فكان الداعي المذكور من أهل بجاية واسمه أحمد بن مرزوق بن أبي عمار ، وكان أبوه يتجر إلى بلاد السودان ، وكان الداعي المذكور محاربًا قصيفا وسار إلى ديار مصر ونزل بدار الحديث الكاملية ، ثم عاد إلى المغرب ، فلما مر على طرابلس كان هناك شخص أسود يسمى نصيرا كان خصيصا بالواثق المخلوع قد هرب لما جرى للواثق ما جرى ، وكان في أحمد الداعي بعض الشبه من الفضل ابن الواثق فدبر مع نصير المذكور

الأمر فشهد له أنه الفضل بن الواثق فاجتمعت عليه العرب وكان منه ما ذكرناه حتى قتل ، وكان الداعى يخطب له بالخليفة الإمام المنصور بالله القائم بحق الله أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أبى العباس الفضل ، ولما استقر أبو حفص عمر فى المملكة وقتل الداعى تلقب بالمستنصر بالله أمير المؤمنين وهو المستنصر الثانى .

ولما استقر فى المملكة سار ابن أخيه يحيى بن إبراهيم بن أبى زكريا الذى سلم من المعركة إلى بجاية وملكها وتلقب بالمنتخب لإحياء دين الله أمير المؤمنين ، واستمر المستنصر الثانى أبو حفص عمر بن أبى زكريا فى مملكته حتى توفى فى أوائل المحرم سنة خمس وتسعين وستمائة ، ولما اشتد مرضه بايع لابن له صغير فاجتمعت الفقهاء وقالوا له : أنت صائر إلى الله وتولية مثل هذا لا يحل ، فأبطل بيعته وأخرج ولد الواثق المخلوع الذى كان صغيرًا وسلم من الذبح الملقب بأبى عصيدة وبويع صبيحة موت أبى حفص عمر الملقب بالمستنصر ، وكان اسم أبى عصيدة المذكور أبا عبد الله محمد وتلقب أبو عصيدة بالمستنصر ايضًا وهو المستنصر الثالث ، وتوفى فى أيامه صاحب بجاية المنتخب يحيى بن إبراهيم بن أبى زكريا وملك بعده بجاية ابنه خالد بن يحيى وبقى أبوعصيدة لذلك حتى توفى سنة تسع وستمائة ، فملك بعده شخص من الحفصيين يقال له أبو بكر بن عبد الرحمن بن أبى بكر بن أبى زكريا بن عبد الواحد بن أبى حفص صاحب ابن تومرت ، وأقام فى الملك ثمانية عشر يوما ثم وصل خالد بن المنتخب صاحب بجاية ، ودخل تونس وقتل أبا بكر المذكور فى سنة تسع وسبعمائة ، ولما جرت ذلك كان زكريا اللحيانى بمصر فسار مع عسكر السلطان الملك الناصر خلد الله ملكه إلى طرابلس الغرب ، وبايعه العرب وسار إلى تونس فخلع خالد بن المنتخب وحبس ثم قتل قصاصا بأبى بكر بن عبد الرحمن المقدم الذكر واستقر اللحيانى فى ملك إفريقية وهو ابن يحيى زكريا بن أحمد بن محمد الزاهد اللحيانى بن عبد الواحد بن أبى حفص صاحب ابن تومرت ثم تحرك على اللحيانى أخو خالد وهو أبو بكر بن يحيى المنتخب فهرب اللحيانى إلى ديار مصر وأقام بالإسكندرية وملك أبو بكر المذكور تونس وما معها خلا طرابلس والمهدية فإنه بعد هروب اللحيانى بايع ابنه محمد بن اللحيانى لنفسه واقتتل مع أبى بكر فهزمه أبو بكر ، واستقر محمد ابن اللحيانى بالمهدية وله معها طرابلس ، وكان استيلاء أبى بكر وهروب اللحيانى إلى ديار مصر فى سنة تسع عشرة وسبعمائة ، وأقام اللحيانى فى إسكندرية ثم وردت عليه مكاتبات من تونس فى ذى القعدة سنة إحدى وعشرين وسبعمائة إلى الإسكندرية يذكرون فيها أن أبا بكر متملك تونس المذكور وقد هرب وترك البلاد وأن الناس قد اجتمعوا على طاعة اللحيانى وبايعوا نائبه وهو محمد بن أبى بكر من الحفصيين وهو صهر زكريا اللحيانى المذكور وهم فى انتظار وصول اللحيانى إلى مملكته أقول وقد بقيت مملكة أفريقية فهرب منها لضعفها بسبب استيلاء العرب عليها .

ذكر مقتل أقطاى

فى هذه السنة : اغتال الملك المعز أيبك التركمانى المستولى على مصر خوشداشه أقطاى الجمدار ، وأوقف له فى بعض دهاليز الدور التى بقلعة الجبل ثلاثة مماليك هم : قطز وبهادر وسنجر الغنمى ، فلمامر بهم فارس الدين أقطاى ضربوه بسيوفهم فقتلوه ، ولما علمت البحرية بذلك هربوا من ديار مصر إلى الشام وكان الفارس أقطاى يمنع أيبك من الاستقلال بالسلطنة ، وكان الاسم للملك الأشرف موسى بن يوسف بن يوسف ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر ابن أيوب ، فلما قتل أقطاى استقل المعز التركمانى بالسلطنة وأبطل الأشرف موسى المذكور منها بالكلية ، وبعث به إلى عماته القطبيات ، وموسى المذكور آخر من خطب له من بيت أيوب بالسلطنة فى مصر وكان انقضاء دولتهم من الديار المصرية فى هذه السنة على ما شرحناه ، ووصلت البحرية إلى الملك الناصر يوسف صاحب الشام وأطمعوه فى ملك مصر فرحل من دمشق بعسكر ونزل عمقا من الغور وأرسل إلى غزة عسكرا فنزلوا بها وبرز المعز أيبك صاحب مصر إلى العباسية وخرجت السنة وهم على ذلك .

وفيها : قدمت ملكة خاتون بنت كيقباذ ملك بلاد الروم إلى زوجها الملك الناصر يوسف صاحب الشام .

وفيها : ولى الملك المنصور صاحب حماة قضاء حماة للقاضى شمس الدين إبراهيم بن هبة الله بن البارزى بعد عزل القاضى المحبى حمزة بن محمد .

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وستمائة :

فيها : عزمت العزيزية المقيمون مع المعز أيبك على القبض عليه وعلم بذلك واستعد لهم فهربوا من مخيمهم على العباسية على حمية واحتيط على وطاقاتهم جميعها .

وفى هذه السنة : مشى نجم الدين الباذراى فى الصلح بين المصريين والشاميين واتفق الحال أن يكون للملك الناصر الشام جميعه إلى العريش ويكون الحد بين القاضى ، وهو بين الورادة والعريش ، وبيد المعز أيبك الديار المصرية وانفصل الحال على ذلك ورجع كل إلى بلده .

وفى هذه السنة : أو التى قبلها تزوج المعز أيبك شجر الدر أم خليل التى خطب لها بالسلطنة فى ديار مصر .

وفيها : طلب الملك الناصر داود من الملك الناصر يوسف دستورا إلى العراق بسبب طلب

وديعته من الخليفة وهى الجوهر الذى تقدم ذكره وأن يمضى إلى الحج فأذن له الناصر يوسف فى ذلك فسار الناصر داود إلى كربلا ثم مضى منها إلى الحج ، ولما رأى قبر النبى صلى الله عليه وسلم تعلق فى أستار الحجرة الشريفة بحضور الناس وقال اشهدوا أن هذا مقامى من رسول الله صلى الله عليه وسلم داخلا عليه مستشفعا به إلى ابن عمه المستعصم فى أن يرد على وديعتى فأعظم الناس ذلك وجرت عبراتهم وارتفع بكاؤهم وكتب بصورة ما جرى مشروحًا ورفع إلى أمير الحج كيخسرو وذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذى الحجة من هذه السنة ، وتوجه الناصر داود مع الحاج العراقى وأقام ببغداد .

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وستمائة :

فيها : مات كيخسرو ملك بلاد الروم وأقيم فى السلطنة ولداه الصغيران عز الدين كيكاووس وركن الدين قليج أرسلان .

وفيها : توجه كمال الدين المعروف بابن العديم رسولا من الملك الناصر يوسف صاحب الشام إلى الخليفة المستعصم وصحبته تقدمة جليلة وطلب خلعة من الخليفة لمخدومه ووصل من جهة المعز أيبك صاحب مصر شمس الدين سنقر الأقرع وهو من مماليك المظفر غازى صاحب ميافارقين إلى بغداد بتقدمة جليلة وسعى فى تعطيل خلعة الناصر يوسف صاحب دمشق فبقى الخليفة متحيرا ثم إنه أحضر سكينا من اليسم كبيرة وقال الخليفة لوزيره أعط هذه السكين رسول صاحب الشام علامة منى فى أن له خلعة عندى فى وقت آخر ، وأما فى هذا الوقت فلا يمكنى فأخذ كمال الدين بن العديم السكين وعاد إلى الناصر يوسف بغير خلعة .

ذكر غير ذلك

فيها : جرى للناصر داود مع الخليفة ماصورته أنه لما أقام ببغداد بعد وصوله مع الحجاج واستشفاعه بالنبى صلى الله عليه وسلم فى رده وديعته ، أرسل الخليفة المستعصم من حاسب الناصر داود المذكور على ماوصله فى تردداه إلى بغداد من المضيف مثل اللحم والخبز والحطب والعليف والتبن وغير ذلك ، وثمن عليه ذلك بأغلى الاثمان وأرسل إليه شيئا نزرا وألزمه أن يكتب خطه بقبض وديعته ، وأنه ما بقى يستحق عند الخليفة شيئًا فكتب خطه بذلك كرها وسار عن بغداد وأقام مع العرب ، ثم أرسل إليه الناصر يوسف بن العزيز ابن غازى بن يوسف صاحب الشام فطيب قلبه وحلف له فقدم الناصر داود إلى دمشق ونزل بالصالحية .

وفى هذه السنة : يوم الأحد ثالث شوال توفى سيف الدين طغريل مملوك الملك المظفر محمود صاحب حماة ، وكان قد زوجه المظفر المذكور بأخته ، وقام بتدبير مملكة حماة بعد وفاة الملك المظفر حتى توفى فى التاريخ المذكور .

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وستمائة :

ذكر قتل المعز أيبك التركمانى

وفى هذه السنة : فى يوم الثلاث الثالث والعشرين من ربيع الأول قتل الملك المعز أيبك التركمانى الجاشنكير الصالحى ، قتلته امرأته شجر الدر التى كانت امرأة أستاذه الملك الصالح أيوب ، وهى التى خطب لها بالسلطنة فى ديار مصر ، وكان سبب ذلك أنه بلغها أن المعز أيبك المذكور قد خطب بنت بدر الدين لولو صاحب الموصل ويريد أن يتزوجها فقتلته فى الحمام بعد عوده من لعب الكرة فى النهار المذكور ، وكان الذى قتله سنجر الجوجرى مملوك الطواشى محسن والخدام حسبما اتفقت معهم عليه شجر الدر وأرسلت فى تلك الليلة أصبع المعز أيبك وخاتمه إلى الأمير عز الدين الحلبى الكبير وطلبت منه أن يقوم بالأمر فلم يجسر على ذلك .

ولما ظهر الخبر أراد مماليك المعز أيبك قتل شجر الدر فحماها المماليك الصالحية فاتفقت الكلمة على إقامة نور الدين على ابن الملك المعز أيبك ولقبوه الملك المنصور وعمره يومئذ خمس عشرة سنة ، ونقلت شجر الدر من دار السلطنة إلى البرج الأحمر وصلبوا الخادم الذين اتفقوا معها على قتل المعز أيبك وهرب سنجر الجوجرى ثم ظفروا به وصلبوه واحتيط على الصاحب بهاء الدين على بن جنا لكونه وزير شجر الدر وأخذ خطه بستين ألف دينار ، وفى يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر من هذه السنة اتفقت مماليك المعز أيبك مثل سيف الدين قطز وسنجر الغنمى وبهادر وقبضوا على علم الدين سنجر الحلبى ، وكان قد صار أتابكا للملك المنصور نور الدين ابن الملك على المعز أيبك ورتبوا فى أتابكية المذكور أقطاى المستعرب الصالحى .

وفى سادس عشر ربيع الآخر من السنة المذكورة قتلت شجر الدر وألقيت خارج البرج فحملت إلى تربة كانت قد عملتها فدفنت فيها ، وكانت تركية الجنس وقيل كانت أرمنية وكانت مع الملك الصالح فى الاعتقال بالكرك وولدت منه ولدًا اسمه خليل مات صغيرًا وبعد أيام من ذلك خنق شرف الدين الفائزى .

ذكر مفارقة البحرية الملك الناصر يوسف صاحب الشام ابن الملك العزيز

وفى هذه السنة : نقل إلى الناصر يوسف أن البحرية يريدون أن يفتكوا به فاستوحش خاطره منهم وتقدم إليهم بالانتزاح عن دمشق فساروا إلى غزة وانتموا إلى الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك العادل أبى بكر ابن الملك الكامل ، وانزعج أهل مصر لقدوم البحرية إلى غزة وبرزوا إلى العباسية ووصل من البحرية جماعة مقفزين إلى القاهرة منهم عز الدين الأثرم فأكرموهم وأفرجوا عن أملاك الأثرم ، ولما فارق البحرية الناصر صاحب الشام أرسل عسكرا فى أثرهم فكبس البحرية ذلك العسكر ونالوا منه ، ثم إن عسكر الناصر بعد الكبسة كسروا البحرية فانهزموا إلى البلقاء وإلى زعز ملتجئين إلى الملك المغيث صاحب الكرك ، فأنفق فيهم المغيث أموالا جليلة وأطمعوه فى ملك مصر فجهزهم بما احتاجوه ، وسارت البحرية إلى جهة مصر وخرجت عساكر مصر لقتالهم والتقى المصريون مع البحرية وعسكر المغيث بكرة السبت منتصف القعدة من هذه السنة ، فانهزم عسكر المغيث والبحرية وفيهم بيبرس البندقدارى المسمى بعد ذلك بالملك الظاهر إلى جهة الكرك .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : وصل من الخليفة المستعصم الخلعة والطوق والتقليد إلى الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز .

وفيها : استجار الناصر داود بنجم الدين الباذراى فى أن يتوجه صحبته إلى بغداد فأخذه صحبته ، وتوصل الناصر يوسف صاحب دمشق إلى منعه عن ذلك فلم يتهيأ له وسار الناصر داود مع الباذراى إلى قرقيسيا فأخره الباذراى ليشاور عليه فأقام الناصر داود فى قرقيسيا ينتظر الإذن بالقدوم إلى بغداد فلم يؤذن له وطال مقامه ، فسافر إلى البرية وقصد تيه بنى إسرائيل وأقام مع عرب تلك البلاد .

وفى هذه السنة : أو التى قبلها ظهرت نار بالحرة عند مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان لها بالليل ضوء عظيم يظهر من مسافة بعيدة جدًا ولعلها النار التى ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم من علامات الساعة فقال : نار تظهر بالحجاز تضىء منها أعناق الإبل ببصرى ،

ثم اتفق أن الخدام بحرم النبى صلى الله عليه وسلم وقع منهم فى بعض الليالى تفريط فاشتعلت النار فى المسجد الشريف واحترقت سقوفه ومنبر النبى صلى الله عليه وسلم وتألم الناس لذلك .

ثم دخلت سنة ست وخمسين وستمائة :

ذكر استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية

فى أول هذه السنة : قصد هولاكو ملك التتر بغداد وملكها فى العشرين من المحرم وقتل الخليفة المستعصم بالله وسبب ذلك أن وزير الخليفة مؤيد الدين ابن العلقمى كان رافضيا ، وكان أهل الكرخ أيضًا روافض فجرت فتنة بين السنية والشيعة ببغداد على جارى عادتهم فأمر أبو بكر ابن الخليفة وركن الدين الدوادار العسكر فنهبوا الكرخ وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمى وكاتب التتر وأطمعهم فى ملك بغداد .

وكان عسكر بغداد يبلغ مائة ألف فارس فقطعهم المستعصم ليحمل إلى التتر متحصل إقطاعاتهم وصار عسكر بغداد دون عشرين ألف فارس وأرسل ابن العلقمى إلى التتر أخاه يستدعيهم فساروا قاصدين بغداد فى جحفل عظيم وخرج عسكر الخليفة لقتالهم ومقدمهم ركن الدين الدوادار والتقوا على مرحلتين من بغداد واقتتلوا قتالا شديدًا ، فانهزم عسكر الخليفة ودخل بعضهم بغداد وسار بعضهم إلى جهة الشام ونزل هولاكو على بغداد من الجانب الشرقى ونزل باجو وهو مقدم كبير فى الجانب الغربى على قرية قبالة دار الخلافة وخرج مؤيد الدين الوزير ابن العلقمى إلى هولاكو فتوثق منه لنفسه وعاد إلى الخليفة المستعصم وقال إن هولاكو يبقيك فى الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبى بكر وحسن له الخروج إلى هولاكو فخرج إليه المستعصم فى جمع من أكابر أصحابه فأنزل فى خيمة ثم استدعى الوزير الفقهاء والأماثل فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون وكان منهم محيى الدين بن الجوزى وأولاده وكذلك بقى يخرج إلى التتر طائفة بعد طائفة .

فلما تكاملوا قتلهم التتر عن آخرهم ثم مدوا الجسر وعدى باجو ومن معه وبذلوا السيف فى بغداد وهجموا دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الأشراف ولم يسلم إلا من كان صغيرًا فأخذ أسيرًا ودام القتل والنهب فى بغداد نحو أربعين يومًا ثم نودى بالأمان .

وأما الخليفة فإنهم قتلوه ولم يقع الاطلاع على كيفية قتله فقيل خنق وقيل وضع فى عدل ورفسوه حتى مات وقيل غرق فى دجلة والله أعلم بحقيقة ذلك ، وكان هذا المستعصم وهو عبد الله أبو أحمد بن المستنصر أبى جعفر منصور ابن محمد الطاهر ابن الإمام الناصر أحمد وقد

تقدم ذكر باقى نسبه عند ذكر وفاة الإمام الناصر ضعيف الرأى قد غلب عليه أمراء دولته لسوء تدبيره ، تولى الخلافة بعد موت أبيه المستنصر فى سنة أربعين وستمائة ، وكانت مدة خلافته نحو ست عشرة سنة تقريبًا وهو آخر الخلفاء العباسيين ، وكان ابتداء دولتهم فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة وهى السنة التى بويع فيها السفاح بالخلافة ، وقتل فيها مروان الحمار آخر خلفاء بنى أمية ، وكانت مدة ملكهم خمسمائة سنة وأربعا وعشرين سنة تقريبًا وعدة خلفائهم سبعة وثلاثون خليفة ، حكى القاضى جمال الدين بن واصل قال : لقد أخبرنى من أثق به أنه وقف على كتاب عتيق فيه ما صورته أن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بلغ بعض خلفاء بنى أمية عنه أنه يقول إن الخلافة تصير إلى ولده فأمر الأموى بعلى بن عبد الله فحمل على جمل وطيف به وضرب وكان يقال عند ضربه هذا جزاء من يفترى ويقول إن الخلافة تكون فى ولده فكان على بن عبد الله المذكور رحمه الله يقول أى والله لتكونن الخلافة فى ولدى لاتزال فيهم حتى يأتيهم العلج من خراسان فينتزعها منهم فوقع مصداق ذلك وهو ورد هولاكو وإزالته ملك بنى العباس .

ذكر الوقعة بين المغيث صاحب الكرك وعسكر مصر

كان قد انضمت البحرية إلى المغيث بن العادل بن الكامل ونزل من الكرك وخيم بغزة ، وجمع الجموع وسار إلى مصر فى دست السلطنة وخرجت عساكر مصر مع مماليك الملك المعز أيبك وأكبرهم سيف الدين قطز الذى صار صاحب مصر والغنمى وبهادر والتقى الفريقان ، فكانت الكسرة على المغيث ومن معه فولى منهزما إلى الكرك فى أسوء حال ونهبت أثقاله ودهليزه .

ذكر وفاة الناصر داود

وفى هذه السنة : أعنى سنة ست وخمسين وستمائة فى ليلة السبت السادس والعشرين من جمادى الأولى ، توفى الملك الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بظاهر دمشق فى قرية يقال لها البويضا ، ومولده سنة ثلاث وستمائة ، فكان عمره نحو ثلاث وخمسين سنة ، وكنّا قد ذكرنا أخباره فى سنة خمس وخمسين وأنه توجه إلى تيه بنى إسرائيل وصار مع عرب تلك البلاد وبلغ المغيث صاحب الكرك وصوله إلى تلك الجهة فخشى منه وأرسل إليه فقبض عليه وحمله إلى بلد الشوبك وأمر بحفر مطمورة ليحبسه فيها ، وبقى الملك الناصر

المذكور ممسوكا والمطمورة تحفر قدّامه ليحبس فيها فبينما هو على تلك الحال إذ ورد رسول الخليفة المستعصم يطلبه من بغداد لما قصده التتر ليقدمه على بعض العساكر لملتقى التتر فلما ورد رسول الخليفة إلى دمشق جهزوه إلى المغيث صاحب الكرك ووصل الرسول إلى موضع الملك الناصر قبل أن يتم المطمورة فأخذه وسار به إلى جهة دمشق فبلغ الرسول استيلاء التتر على بغداد وقتل الخليفة فتركه الرسول ومضى لشأنه فسار الناصر داود إلى البويضا وهى قرية شرقى دمشق وأقام بها ولحق الناس فى الشام فى تلك المدة طاعون فمات منه الناصر داود المذكور فى التاريخ المذكور وخرج الملك الناصر يوسف صاحب دمشق إلى البويضا وظهر عليه الحزن والتأسف ونقله ودفنه بالصالحية فى تربة والده المعظّم وكان الناصر داود فاضلاً ناظما ناثرًا واقرأ العلوم العقلية على الشيخ شمس الدين عبد الحميد الخسر وشاهى تلميذ الإمام فخر الدين الرازى وللناصر داود المذكور أشعار جيدة قد تقدّم ذكر بعضها ومن شعره أيضًا :

عيون عن السحر المبين تبين ... لها عند تحريك القلوب سكون
تصول ببيض وهى سودفرندها ... ذبول فتور والجفون جفون
إذا ما رأت قلبا خليا من الهوى ... تقول له كن مغرما فيكون

وله أيضا :

طرفى وقلبى قاتل وشهيد ... ودمى على خدّيك منه شهود
أما وحبّك لست أضمر سلوة ... عن صبوتى ودع الفؤاد يبيد
منّى يطيفك بعد ما منع الكرى ... عن ناظرى البعد والتسهيد
ومن العجايب أن قلبك لم يَلِنّ ... لى والحديد ألانَهُ داود

ومما كتب به فى أثناء مكاتبته إلى الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام .

وكان قد اغارت الفرنج على نابلس فى أيام الملك الصالح أيوب صاحب مصر :

أيا ليت أمّى أيم طول عمرها ... فلم يقضها ربى لمولى ولا لبغل
ويا ليتها لما قضاها لسيّد ... لبيب أريب طيّب الفرع والأصل
قضاها من اللاتى خُلِقْن عواقرا ... فما بشّرت يوما بأنثى ولا فحل
ويا ليتها لما غَدَت بِى حاملا ... أصيب بما احتوت عليه من الحمل
ويا ليتنى لما ولدت وأصبحت ... تشد إلىّ التدقيات بالرحل
لحقت بأسلافى فكنت ضجيعهم ... ولم أرى الإسلام ما فيه من خل

ذكر وفاة الصاحبة غازية خاتون والدة الملك المنصور صاحب حماة

وفى هذه السنة : فى ذى القعدة توفيت الصاحبة غازية خاتون بنت السلطان الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بقلعة حماة رحمها الله تعالى ، وكان قدومها إلى حماة فى سنة تسع وعشرين وستمائة وولد لها من الملك المظفر محمود صاحب حماة ثلاث بنين مات احدهم صغيرا وكان اسمه عمر وبقى الملك المنصور محمد صاحب حماة . وأخوه والدى الملك الأفضل على ، وولد لها منها ثلاث بنات أيضًا فتوفيت الكبرى منهن وكان اسمها ملكة خاتون قبل وفاة والدتها بقليل ، وتوفيت الصغرى وهى دينا خاتون بعد وفاة أخيها الملك المنصور وسنذكر وفاة الباقين فى مواضعها إن شاء الله تعالى وكانت الصاحبة غازية خاتون المذكورة من أحسن النساء سيرة وزهدا وعبادة وخفظت الملك لولدها الملك المنصور حتى كبر وسلمته إليه قبل وفاتها رحمها الله تعالى .

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفى هذه السنة : قصدت التتر ميافارقين بعد استيلائهم على بغداد وكان صاحب ميا فارقين حينئذ الملك الكامل محمد ابن الملك المظفر شهاب الدين غازى ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب وكان قد ملكها بعد وفاة أبيه فى سنة اثنتين وأربعين وستمائة فحاصره التتر وضايقوا ميافارقين مضايقة شديدة وصبر أهل ميافارقين مع الكامل محمد المذكور على الجوع الشديد ودام ذلك حتى كان منه ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفيها : اشتّد الوبا بالشام خصوصا بدمشق حتى لم يوجد مغسل للموتى .

وفيها : أرسل الملك الناصر يوسف صاحب دمشق ولده الملك العزيز محمد وصحبته زين الدين محمد المعروف بالحافظى وهو من أهل قرية عقربا من بلد دمشق بتحف وتقادم إلى هولاكو ملك التتر وصانعه لعلمه بعجزه عن ملتقى التتر .

وفيها : توفى صاحب بهاء الدين زهير بن محمد بن على بن يحيى المهلبى كاتب إنشاء الملك الصالح أيوب ومولداليها زهير بوادى نخلة من مكة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة وفى آخر عمره انكشف حاله وباع موجوده وكتبه وأقام فى بيته فى القاهرة حتى أدركته وفاته بسبب الوباء العام فى يوم الأحد رابع ذى القعدة من هذه السنة أعنى سنة ست وخمسين وستمائة ،

ودفن بالقرافة الصغرى ، وكان كريم الطباع غزير المروءة فاضلا حسن النظم وشعره مشهور كثير ، فمن شعره وهو وزن مخترع ليس بخرجة العروض أبيات منها :

يا من لعبت به شمول ما ألطف هذه الشمائل
مولاى يحق لى بأنى عن حبك فى الهوى أقاتل
هاعبدك واقفا ذليلا بالباب يمد كف سائل
من وصلك بالقليل يرضى والطل من الحبيب وابل

وفى هذة السنة : توفى بمصر الشيخ ركن الدين عبد العظيم شيخ دار الحديث وكان من أئمة الحديث المشهورين .

وفيها : توفى الشيخ شمس الدين يوسف سبط جمال الدين ابن الجوزى وكان من الوعاظ الفضلاء ألف تاريخا جامعا سمّاه مرآة الزمان .

وفيها : توفى سيف الدين على بن سابق الدين قزل المعروف بابن المشدّ وكان أميرا مقدما فى دولة الملك الناصر يوسف صاحب الشام وله شعر حسن فمنه :

باكر كؤوس المدام واشرب واستجل وجه الحبيب واطرب
ولا تخف للهموم داء فهى دواء له مجرب
من يد ساق له رضاب كالشهد لكن جناه أعذب

وفيها : كان بين البحرية بعد هزيمتهم من المصريين وبين عسكر الملك الناصر يوسف صاحب دمشق ومقدمهم الأمير مجير الدين بن أبى زكرى مصافّ بظاهر غزة انهزم فيه عسكر الناصر يوسف وأسر مجير الدين المذكور وقوى امر البحرية بعد هذه الكسرة وأكثروا العبث والفساد .

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وستمائة :

فيها : سار عز الدين كيكاووس وركن الدين قليج أرسلان ابنا كيخسرو بن كيقباذ إلى خدمة هولاكو وأقاما معه مدة ثم عادا إلى بلادهما .

ذكر وفاة بدر الدين صاحب الموصل

فى هذه السنة : توفى بدر الدين لولو صاحب الموصل وكان يلقب الملك الرحيم وكان عمره قد جاوز ثمانين سنة ولمامات ملك بعده الموصل ولده الملك الصالح ابن لولو وملك سنجار ولده

الآخر علاء الدين بن لولو وكان بدر الدين قد صانع هولاكو ودخل فى طاعته وحمل إليه الأموال ووصل إلى خدمة هولاكو بعد أخذ بغداد ببلاد أذربيجان وكان صحبة لولو الشريف العلوى ابن صلايا فقيل إن لولو سعى به إلى هولاكو فقتل الشريف المذكور ولما عاد لولو إلى الموصل لم يطل مقامه بها حتى مات وطالت أيام بدر الدين لولو فى ملك الموصل فإنه كان القائم بأمور أستاذه أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكى ابن أقسنقر وقام بتدبير ولده الملك القاهر بن أرسلان شاه ولما توفى الملك القاهر بن أرسلان شاه فى سنة خمس عشرة وستمائة انفرد لولو بتدبير المملكة وأقام ولدى القاهر الصغيرين واحدا بعد واحد واستبد بملك الموصل وبلادها ثلاثا وأربعين سنة تقريبا ولم يزل فى ملكه سعيدًا لم يطرقه آفة ولم يختل لملكه نظام .

ذكر منازلة الملك الناصر يوسف صاحب الشام الكرك

وفى هذه السنة : لما جرى من البحرية ماذكرناه من كسر عسكر الناصر يوسف سار الناصر المذكور من دمشق بنفسه وعساكره وسار فى صحبته الملك المنصور صاحب حماة بعسكره إلى جهة الكرك وأقام على بركة زيزا محاصرًا للملك المغيث صاحب الكرك بسبب حمايته للبحرية ووصل إلى الملك الناصر رسل الملك المغيث صاحب الكرك والقطبية بنت الملك المفضّل قطب الدين ابن الملك العادل يتضرعون إلى الملك الناصر ويطلبون رضاه عن الملك المغيث فلم يجب إلى ذلك إلا بشرط أن يقبض المغيث على من عنده من البحرية فأجاب المغيث إلى ذلك وعلم بالحال ركن الدين بيبرس البندقدارى فهرب فى جماعة من البحرية ووصل بهم إلى الملك الناصر يوسف فأحسن إليهم وقبض المغيث على من بقى عنده من البحرية ومن جملتهم سنقر الأشقر وسكز وبرامق وأرسلهم على الجمال إلى الملك الناصر فبعث بهم إلى حلب فاعتقلوا بها واستقر الصلح بين الملك الناصر وبين الملك المغيث صاحب الكرك وكان مدة مقام الملك الناصر بالعساكر على بركة زيزا ما يزيد على شهرين بقليل ثم عاد إلى دمشق وأعطى للملك المنصور صاحب حماة دستورا فعاد إلى بلده .

ذكر سلطنة قطز

وفى اواخر هذه السنة أعنى سنة سبع وخمسين وستمائة : فى أوائل ذى الحجة قبض سيف الدين قطز على ولد أستاذه الملك المنصور نور الدين على بن المعز أيبك وخلعه من السلطنة وكان علم الدين الغنمى وسيف الدين بهادر وهما من كبار المعزية غائبين فى رمى البندق فانتهز

قطز الفرصة فى غيبتهما وفعل ذلك ولما قدم الغنمى وبهادر المذكور أن قبض عليهما قطز أيضا واستقر قطز فى ملك الديار المصرية وتلقب بالملك المظفر وكان رسول الملك الناصر يوسف صاحب الشام وهو كمال الدين المعروف بابن العديم قد قدم إلى مصر فى أيام الملك المنصور على ابن أيبك مستنجدا على التتر واتفق خلع على المذكور وولاية قطز بحضرة كمال الدين ابن العديم ولما استقر قطز فى السلطنة اعاد جواب الملك الناصر يوسف أنه ينجده ولا يقعد عن نصرته وعاد ابن العديم بذلك .

ذكر مولد الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور صاحب حماة

وفى هذه السنة : أعنى سنة سبع وخمسين وستمائة فى الساعة العاشرة من ليلة الأحد خامس عشر المحرم وثانى عشر كانون الثانى ولد محمود ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقى الدين عمر ابن شاهنشاه بن أيوب ولقبوه الملك المظفر بلقب جده وأم الملك المظفر محمود المذكور عائشة خاتون بنت الملك العزيز محمد صاحب حلب ابن الملك الظاهر غازى ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وهنأ الشيخ شرف الدين عبد العزيز المعروف بشيخ الشيوخ الملك المنصور صاحب حماة بقصيدة طويلة منها :

أبشر على رغم العدى والحسّد ... بأجلّ مولود وأكرم مولّد
بالنعمة الغراء بل بالدولة الزهراء ... بل بالمفخر المتجدّد
وافاك بدرا كاملا فى ليلة ... طلعت عليك نجومها بالأسعد
ما بين محمود المظفر أسفرت ... عنه وما بين العزيز محمّد

ذكر قصد هولاكو الشام

وفى هذه السنة : قدم هولاكو إلى البلاد التى شرقى الفرات ونزل حرّان وملكها واستولى على البلاد الجزرية وأرسل ولده سموط بن هولاكو إلى الشام فوصل إلى ظاهر حلب فى العشر الأخير من ذى الحجة من هذه السنة ، أعنى سنة سبع وخمسين وستمائة وكان الحاكم فى حلب الملك المعظّم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين نائبا عن ابن أخيه الملك الناصر يوسف فخرج عسكر حلب لقتالهم وخرج الملك المعظم ولم يكن من رأيه الخروج إليهم وأكمن لهم التتر فى باب إلى المعروف بباب الله وتقاتلوا عند بانقوسا فاندفع التتر قدّامهم حتى خرجوا عن

البلد ثم عادوا عليهم وحرب المسلمون طالبين المدينة والتتر يقتلون فيهم حتى دخلوا البلد واختنقوا فى أبواب البلد جماعة من المنهزمين ثم رحل التتر إلى إعزاز فتسلموها بالأمان .

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وستمائة :

ذكر ما كان من الملك الناصر عند قصد التتر حلب

ولما بلغ الملك الناصر يوسف صاحب الشام قصد التتر حلب برز من دمشق إلى بَرْزَه فى أواخر السنة الماضية وجفل الناس من بين يدى التتر وسار من حماة إلى دمشق الملك المنصور صاحب حماة ونزل معه ببرزه وكان هناك مع الناصر يوسف بيبرس البندقدارى من حين هرب من الكرك والتجأ إلى الناصر فاجتمع عند الملك الناصر عند برزه أمم عظيمة من العساكر والجفّال ولما دخلت هذه السنة والملك الناصر ببرزه بلغه أن جماعة من مماليكه قد عزموا على اغتياله والفتك به فهرب الملك الناصر من الدهليز الى قلعة دمشق وبلغ مماليكه الذين قصدوا ذلك علمه بهم فهربوا على حمية إلى جهة غزة وكذلك سار بيبرس البندقدارى إلى جهة غزة وأشاع المماليك الناصرية أنهم لم يقصدوا قتل الملك الناصر وإنما كان قصدهم أن يقبضوا عليه ويسلطنوا أخاه الملك الظاهر غازى ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازى ابن السلطان صلاح الدين لشهامته ولما جرى ذلك هرب الملك الظاهر المذكور خوفًا من أخيه الملك الناصر وكان الظاهر المذكور شقيق الناصر أمهما أم ولد تركية ووصل الملك الظاهر غازى إلى غزة واجتمع عليه من بها من العسكر وأقاموه سلطانا ولما جرى ذلك كاتب بيبرس البند قدارى الملك المظفر قطز صاحب مصر فبذل له الأمان ووعده الوعود الجميلة ففارق بيبرس البندقدارى الشاميين وسار إلى مصر فى جماعة من أصحابه فاقبل عليه الملك المظفر قطز وأنزله فى دار الوزارة وأقطعه قليوب وأعمالها .

ذكر استيلاء التتر على حلب وعلى الشام جميعه ومسير الملك الناصر عن دمشق ووصول عساكره إلى مصر وانفراد الملك الناصر عنهم

فى هذه السنة : أعنى سنة ثمان وخمسين وستمائة فى يوم الأحد تاسع صفر كان استيلاء التتر على حلب وسببه أن هولاكو عبر الفرات بجموعه ونازل حلب وأرسل هولاكو إلى الملك المعظم توران شاه بن صلاح الدين نائب السلطنة بحلب يقول له إنكم تضعفون عن لقاء المُغل ونحن قصدنا الملك الناصر والعساكر فاجعلوا لنا عندكم بحلب شحنة وبالقلعة شحنة ونتوجه

نحن إلى العسكر فإن كانت الكسرة على عسكر الإسلام كانت البلاد لنا وتكونون قد حقنتم دماء المسلمين وإن كانت الكسرة علينا كنتم مخيّرين فى الشحنتين إن شئتم طردتموهما وإن شئتم قتلتموهما فلم يجب الملك المعظم إلى ذلك وقال : ليس لكم عندنا إلّا السيف ، وكان رسول هولاكو إليهم فى ذلك صاحب أرزن الروم فتعجّب من هذا الجواب وتألّم لما علم من هلاك أهل حلب بسبب ذلك وأحاط التتر بحلب ثانى صفر وهجموا النواثر فى غد ذلك اليوم وقتل من المسلمين جماعة كثيرة وممن قُتل أسد الدين ابن الملك الزاهر ابن صلاح الدين واشتدّت مضايقة التتر للبلد وهجموا من عند حمام حمدان فى ذيل قلعة الشريف فى يوم الأحد تاسع صفر وبذلوا السيف فى المسلمين وصعد إلى القلعة خلق عظيم ودام القتل والنهب من نهار الأحد المذكور إلى الجمعة رابع عشر صفر المذكور فأمر هولاكو برفع السيف ونودى بالأمان ولم يسلم من أهل حلب إلّا من التجأ إلى دار شهاب الدين بن عمرون ودار نجم الدين أخى مرد كين ودار البازياد ودار علم الدين قيصر الموصلى والخانِكاه التى فيها زين الدين الصوفى وكنيسة اليهود وذلك لفرمانات كانت بأيديهم وقيل إنه سلم بهذه الأماكن ما يزيد على خمسين ألف نفس ونازل التتر القلعة وحاصروها وبها الملك المعظم ومن التجأ إليها من العسكر واستمر الحصار عليها وكان من ذلك ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر غير ذلك من أحوال حماة وأحوال الملك الناصر بعد أخذ حلب

كان قد تأخّر بحماة الطواشى مرشد لما سار صاحب حماة إلى دمشق ، فلما بلغ أهل حماة فتح حلب توجّه الطواشى مرشد من حماة إلى عند الملك المنصور صاحب حماة بدمشق ووصل كبراء حماة إلى حلب ومعهم مفاتيح حماة وحملوها إلى هولاكو وطلبوا منه الأمان لأهل حماة وشحنة يكون عندهم ، فأمنهم هولاكو وأرسل إلى حماة شحنة رجلا أعجميًّا كان يدّعى أنه من ذرية خالد بن الوليد يقال له خسر وشاه فقدم خسر وشاه إلى حماة وتولاها وأمّن الرعية ، وكان بقلعة حماة مجاهد الدين قيماز أمير جندار فسلّم القلعة إليه ودخل فى طاعة التتر ، ولما بلغ الملك الناصر بدمشق أخذ حلب رحل من دمشق بمن بقى معه من العسكر إلى جهة الديار المصرية وفى صحبته الملك المنصور صاحب حماة وأقام بنابلس أياما ورحل عنها وترك فيها الأمير مجير الدين بن أبى زكرى والأمير على بن شجاع ومعهما جماعة من العسكر ، ثم سا الملك الناصر إلى غزة فانضّم إليه مماليكه الذين أرادوا قتله وكذلك اصطلح معه أخوه الملك الظاهر غازى وانضم إليه وبعد مسير الملك الناصر عن نابلس وصـــل التتر إليها وكبسو العسكر الذين بها وقتلوا مجير الدين والأمير على بن شجاع وكانا أميرين جليلين فاضلين وكان البحرية قد قبضوا عليهما واعتقلوهما بالكرك وأفرج عنهما المغيث لما وقع الصلح بينه وبين

الناصر ولما بلغ الملك الناصر وهو بغزة ما جرى من كبسة التتر لنابلس رحل من غزة إلى العريش وسيّر القاضى برهان الدين ابن الخضر رسولاً إلى الملك المظفر قطز صاحب مصر يطلب منه المعاضدة ثم سار الملك الناصر والملك المنصور صاحب حماة والعسكر ووصلوا إلى قطية فجرى بها فتنة بين التركمانى . والأكراد الشهر زورية ووقع نهب فى الجفال وخاف الملك الناصر ان يدخل مصر فيقبض عليه فتأخّر فى قطية ورحلت العساكر والملك المنصور صاحب حماة إلى مصر وتأخّر مع الملك الناصر جماعة يسيرة منهم أخوه الملك الظاهر غازى والملك الصالح بن شيركوه صاحب حمص وشهاب الدين القيمرى ثم سار الملك الناصر بمن تأخّر معه من قطية إلى جهة تيه بنى إسرائيل ، ولما وصلت العساكر إلى مصر التقاهم الملك المظفر قطز بالصالحية وطيّب قلوبهم وأرسل إلى الملك المنصور صاحب حماة سنجقا والتقاه ملتقى حسنا وطيّب قلبه ودخل إلى القاهرة وأما التتر فإنهم استولوا على دمشق وعلى ساير الشام إلى غزة واستقرّت شحاينهم بهذه البلاد .

ذكر استيلاء التتر على قلعة حلب والمتجدّدات بالشام

أما قلعة حلب. فوثب جماعة من أهلها فى مدة الحصار على صفى الدين بن طرزة رئيس حلب وعلى نجم الدين أحمد بن عبد العزيز بن أحمد بن القاضى نجم الدين بن أبى عصرون فقتلوهما لأنهم اتهموهما بمواطأة التتر واستمرّ الحصار على القلعة واشتدّت مضايقة التتر لها نحو شهر ثم سلّمت بالأمان فى يوم الاثنين الحادى عشر من ربيع الأول من هذه السنة ، ولما نزل أهلها بالأمان وكان فيها جماعة من البحرية الذين حبسهم الملك الناصر فمنهم سكز وبرامق وسنقر الأشقر فسلّمهم هولاكو هم وباقى. الترك إلى رجل من التتر يقال له سلطان حق وهو رجل من أكابر القبجاق هرب من التتر لما غلبت على القبجاق وقدم إلى حلب فأحسن إليه الملك الناصر فلم تطب له تلك البلاد فعاد إلى التتر وأما العوام والغرباء فنزلوا إلى أماكن الحمى التى قدّمنا ذكرها وأمر هولاكو أن يمضى كل من سلم إلى داره وملكه وأن لا يعارض وجعل النايب بحلب عماد الدين القزوينى ووصل إلى هولاكو على حلب الملك الأشرف صاحب حمص موسى بن إبراهيم ابن شيركوه وكان قد انفرد الأشرف المذكور عن المسلمين لما توجّه الملك الناصر إلى جهة مصر ووصل إلى هولاكو بحلب فأكرمه هولاكو وأعاد عليه حمص وكان قد أخذها منه الملك الناصر صاحب حلب فى سنة ست وأربعين وستمائة وعوّضه عنها تل باشر على ماتقدم ذكره فعادت إليه فى هذه السنة واستقر ملكه بها وقدم أيضا إلى هولاكو وهو نازل على حلب محيى الدين بن الزكى من دمشق فأقبل عليه هولاكو وخلع عليه وولاّه قضاء الشام ولما عاد ابن الزكى المذكور إلى دمشق ليس خلعة هولاكو وكانت مذهّبة وجمع الفقهاء وغيرهم من

أكابر دمشق وقرأ عليهم تقليد هولاكو واستقرّ فى القضاء ثم رحل هولاكو إلى حارم وطلب تسليمها فامتنعوا أن يسلموها لغير فخر الدين وإلى قلعة حلب فأحضره هولاكو وسلّموها إليه فغضب هولاكو من ذلك وأمر بهم فقتل أهل حارم عن آخرهم وسبى النساء ثم رحل هولاكو بعد ذلك وعاد إلى الشرق وأمر عماد الدين القزوينى بالرحيل إلى بغداد فسار إليها وجعل مكانه بحلب رجلا أعجمياً وأمر هولاكو بخراب أسوار قلعة حلب وأسوار المدينة فخرّبت عن آخرها وأعطى هولاكو الأشرف موسى صاحب حمص الدستور ففارقه ووصل إلى حماة ونزل فى الدار المبارز واخذ فى خراب سور قلعة حماة بتقدّم هولاكو إليه بذلك فخرّبت أسوارها وأحرقت رردخانتها ، وبيعت الكتب التى كانت بدار السلطنة بقلعة حماة بأبخس الأثمان ، وأما أسوار مدينة حماة فلم تخرب لأنه كان بحماة رجل يقال له إبراهيم بن الإفرنجية ضامن الجهة المفردة بدل لخسرو شاه جملة كثيرة من المال وقال الفرنج قريب منّا بحصن الأكراد ومتى خربت أسوار المدينة لا يقدر أهلها على المقام فيها فاخذ منه المال ولم يتعرض لخراب أسوار المدينة وكان قد أمر هولاكو الأشرف موسى صاحب حمص بخراب قلعة حمص أيضا فلم يخرب منها إلا شيئا قليلا لأنّها مدينته وأما دمشق فانهم لما ملكوا المدينة بالأمان لم يتعرضوا إلى قتل ولا نهب وعصت قلعة دمشق عليهم فحاصرها التتر وجرى على أهل دمشق بسبب عصيان القلعة شدة عظيمة وضايقوا القلعة وأقاموا عليها المجانيق ثم تسلّموها بالأمان فى منتصف جمادى الأولى من هذه السنة ونهبوا جميع ما فيها وجدّوا فى خراب أسوار القلعة وإعدام مافيها من الزردخانات والآلات ثم توجّوا إلى بعلبك ونازلوا قلعتها .

ذكر استيلاء التتر على ميّافارقين وقتل الملك الكامل صاحبها

وفى هذه السنة : أعنى سنة ثمان وخمسين وستمائة استولى التتر على ميا فارقين وقد تقدّم ذكر نزولهم عليها ومحاصرتها فى سنة ست وخمسين واستمرّ الحصار عليهم مدة سنتين حتى فنيت أزوادهم وفنى أهلها بالوباء وبالقتل وصاحبها الملك الكامل محمد ابن الملك المظفر شهاب الدين غازى ابن الملك العادل أبى بكر ابن أيوب مصابرا ثابتا وضعف من عنده عن القتال فاستولى التتر عليها وقتلوا صاحبها الملك الكامل المذكور وحملوا رأسه على رمح وطيف به فى البلاد ومرّوا به على حلب وحماة ووصلوا به إلى دمشق فى سابع عشرين جمادى الأولى من هذه السنة ، أعنى سنة ثمان وخمسين وستمائة ، وطافوا به فى دمشق بالمغانى والطبول وعلق رأس المذكور فى شبكة بسور باب الفراديس إلى أن عادت دمشق إلى المسلمين فدفن بمشهد الحسين داخل باب الفراديس وفيه يقول الشيخ شهاب الدين ابن أبى شامة أبياتا منها :

ابن غازى غزى وجاهد قوما … أثخنوا فى العراق والمشرقين

طاهرا عاليا ومات شهيدًا بعد صبر عليهم عامين
لم يشنه إذ طيف بالرأس منه وله أسوة برأس الحسين
ثم واروا فى مشهد الرأس ذاك الرأس واستعجبوا من الحالين

ذكر اتصال الملك الناصر بالتتر واستيلاؤهم على عجلون وغيرها من قلاع الشام

أما الملك الناصر يوسف فانه لما انفرد عن العسكر من قَطْيَةَ وسار إلى تيه بنى إسرائيل بقى متحيرا إلى أين يتوجه وعزم على التوجه إلى الحجاز وكان له طبردار كردى اسمه حسين فحسن له المضى إلى التتر وقصد هولاكو فاغتر بقوله ، ونزل ببركة زيزا وسار حسين الكردى إلى كتبغا نائب هولاكو وعرفه بوضع الملك الناصر فأرسل كتبغا إليه وقبض عليه وأحضره إلى عجلون ؛ وكانت بعد عاصية فأمرهم الملك الناصر بتسليمها فسلمت إليهم فهدموها ، وكنا قد ذكرنا حصار التتر لبعلبك فتسلموها قبيل تسليم عجلون وخربوا قلعتها أيضا ، وكان بالصبيبة صاحبها الملك السعيد ابن الملك العزيز ابن الملك العادل ، فسلم الصبيبة اليهم وصار الملك السعيد المذكور معهم وأعلن بالفسق والفجور وسفك دماء المسلمين وأما الملك الناصر يوسف فإن كتبغا بعث به إلى هولاكو فوصل إلى دمشق ثم إلى حماة وبها الأشرف صاحب حمص فخرج إلى لقائه هو وخسرو شاه النايب بحماة ثم سار إلى حلب فلما عاينها الملك الناصر وما قد حل بها وبأهلها تضاعف تألمه وأنشد :

يعزّ علينا أن نرى ربعكم يبلى وكانت به آيات حسنكم تتلى

ثم سار إلى الأردو فأقبل عليه هولاكو ووعده برده إلى مملكته وكان منه ما سنذكره إن شاء الله تعالى

ذكر غير ذلك

وفى خامس عشر شعبان من هذه السنة أخرج التتر من الاعتقال نقيب قلعة دمشق وواليها وضربوا أعناقهما بداريا واشتهر عند أهل دمشق خروج العساكر من مصر لقتال التتر فأوقعوا بالنصارى ، وكانوا قد استطالوا على المسلمين بدق النواقيس وإدخال الخمر إلى الجامع فنهبهم المسلمون فى سابع عشرين رمضان من هذه السنة وأخربوا كنيسة مريم وكانت كنيسة عظيمة

وكانت كنيسة مريم فى جانب دمشق الذى فتحه خالد بن الوليد بالسيف فبقيت بيد المسلمين وكانت ملاصق الجامع كنيسة وهى من الجانب الذى فتحه أبو عبيدة بالأمان فبقيت بأيدى النصارى فلما ولى الوليد بن عبدالملك الخلافة خرب الكنيسة الملاصقة للجامع وأضافها إليه ولم يعوض النصارى عنها فلما ولى عمر بن عبدالعزيز عوضهم بكنيسة مريم عن تلك الكنيسة فعمروها عمارة عظيمة وبقيت كذلك حتى خربها المسلمون فى التاريخ المذكور.

ذكر هزيمة التتر وقتل كتبغا

وفى هذه السنة : أعنى سنة ثمان وخمسين وستمائة :

كانت هزيمة التتر فى يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان على عين جالوت وكان من حديثها انه لما اجتمعت العساكر الإسلامية بمصر عزم الملك المظفر قطز مملوك المعز أيبك على الخروج إلى الشام لقتال التتر وسار من مصر بالعساكر الإسلامية وصحبته الملك المنصور محمد صاحب حماة وأخوه الملك الأفضل على وكان مسيره من الديار المصرية فى أوايل رمضان من هذه السنة ولما بلغ كتبغا وهو نائب هولاكو على الشام ومقدم التتر سير العساكر الإسلامية إليه صحبة الملك المظفر قطز جمع من فى الشام من التتر وسار إلى لقاء المسلمين وكان الملك السعيد صاحب الصبيبة ابن الملك العزيز ابن الملك العادل بن أيوب صحبة كتبغا وتقاربا الجمعان فى الغور والتقوا يوم الجمعة المذكور فانهزمت التتر هزيمة قبيحة وأخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم كتبغا واستوسر ابنه وتعلق من سلم من التتر برؤس الجبال وتتبعهم المسلمون فأفنوهم وهرب من سلم منهم إلى الشرق وجرد قطز ركن الدين بيبرس البندقدارى فى أثرهم فتبعتهم المسلمون إلى أطراف البلاد الشرقية وكان أيضا فى صحبة التتر الملك الأشرف موسى صاحب حمص ففارقهم وطلب الأمان من المظفر قطز فأمنه ووصل إليه فأكرمه وأقره على ما بيده وهو حمص ومضافاتها وأما الملك السعيد صاحب الصبيبة فإنه أمسك أسيرا وأحضر بين يدى الملك المظفر قطز فأمر به فضربت عنقه بسبب ما كان المذكور قد اعتمده من السفك والفسق ولما انقضى أمر المصاف أحسن المظفر قطز إلى الملك المنصور صاحب حماة وأقره على حماة وبارين وأعاد إليه المعرة وكانت فى أيدى الحلبيين من حين استولوا عليها فى سنة خمس وثلاثين وستمائة وأخذ سلمية منه وأعطاها أمير العرب وأتم الملك المظفر السير بالعساكر وصحبته الملك المنصور صاحب حماة حتى دخل دمشق وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم فإن القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ولأنهم ماقصدوا إقليما إلا فتحوه ولا عسكر إلا هزموه فابتهجت الرعايا بالنصرة عليهم وبقدوم الملك

المظفر قطز إلى الشام وفى يوم دخوله دمشق أمر بشنق جماعة من المنتسبين إلى التتر فشنقوا وكان من جملتهم حسين الكردى طبردار الملك الناصر يوسف وهو الذى أوقع الملك الناصر فى أيدى التتر وفى هذه النصرة وقدوم قطز إلى الشام يقول بعض الشعراء .

هلك الكُفْر فى الشام جميعا ... واستجد الإسلام بعد حوضه
بالمليك المظفر الملك الأر ... وع سيف الإسلام عند نهوضه
ملك جاءنا بعزم وحزم ... فاعتززنا بسمره وببيضه
أوجب الله شكر ذاك علينا ... دائما مثل واجبات فروضه

ثم أعطى الملك المظفر قطز صاحب حماة الملك المنصور الدستور فقدم الملك المنصور قد امه مملوكه ونائبه مبارز الدين أقوش المنصورى إلى حماة ثم سار الملك المنصور وأخوه الملك الأفضل ووصلا إلى حماة ولما استقر الملك المنصور بحماة قبض على جماعة كانوا مع التتر واعتقلهم وهنأ الشيخ شرف الدين شيخ الشيوخ الملك المنصور بهذا النصر العظيم وبعود المعرة بقصيدة منها :

زغت العدى فضمنت ثلّ عروشها ... ولقيتها فاخذتَ ثل جيوشها
نازلتَ أملاك التتر فأنزلتَ ... عن فحلها قسْرا وعن أكديشها
فغدا بسيفك فى رقاب كماتها ... حصد المناجل فى يبيس حشيشها
فُقْتَ الملوك ببذل ماتحويه إذا ... ختمت خزاينها على منقوشها

ومنها :

وطويت عن مصر فسيح مراحل ... ما بين بركة زيزاء وبين عريشها
حتى حفظت على العباد بلادها ... من رومها الأقصى إلى أحبوشها
فرشتْ حماة لوطء نعلك خدّها ... فوطئتَ عين الشمس من مفروشها
وضربتَ سكّتها التى اخلصْتَها ... عما يشوب النَّقْد من مغشوشها
وكذا المعرّة إذ ملكتَ قيادها ... دهشتْ سرورًا سار فى مدهوشها
طربت برجعتها إليك كأنما ... سكرت بخمره حاسها أوحيشها
لازلتَ تنعش بالنوال فقيرها ... وتنال أقصى الأجْر من منعوشها

وكان خسرو شاه قد سافر من حماة إلى جهة الشرق لما بلغه كسرة التتر ثم جهّز الملك المظفر قطز عسكرا إلى حلب لحفظها ورتب أيضا شمس الدين أقوش البرلى العزيزى أميرا بالسواحل وغزة ورتب معه جماعة من العزيزية وكان البرلى المذكور من مماليك الملك العزيز محمد صاحب حلب وسار فى جملة العزيزية مع ولده الملك الناصر يوسف إلى قتال المصريين وخامر البرلى وجماعة من العزيزية على ابن أستاذهم الملك الناصر وصاروا مع أيبك التركمانى

صاحب مصر ثم انهم قصدوا اغتيال المعز أيبك التركمانى المذكور وعلم بهم فقبض على بعضهم وهرب بعضهم وكان البرلى المذكور من جملة من سلم وهرب إلى الشام فلما وصل إلى الملك الناصر اعتقله بقلعة عجلون فلما توجه الملك الناصر بالعسكر إلى الغور مندفعا من بين يدى التتر أخرج البرلى من حبس عجلون وطيّب خاطره فلما هرب الملك الناصر من قطية دخل شمس الدين اقوش البرلى المذكور مع العساكر إلى مصر فأحسن إليه الملك المظفر قطز وولاه الآن السواحل وغزة فلما استقر بدمشق على ما ذكرناه وكان مقرّ البرلى لما تولى هذه الأعمال بنابلس تارة وبيت جبرين أخرى ثم إن الملك المظفر قطز فوّض نيابة السلطنة بدمشق إلى الأمير علم الدين سنجر الحلبى وهو الذى كان أتابكا لعلىّ بن المعزّ أيبك وفوّض نيابة السلطنة بحلب إلى الملك السعيد بن بدر الدين لولو صاحب الموصل وكان المذكور قد وصل إلى الملك الناصر يوسف صاحب الشام ودخل مع العساكر إلى مصر وصار مع المظفر قطز ففوّض إليه نيابة السلطنة بحلب وكان سببه أن أخاه الملك الصالح ابن لولو قد صار صاحب الموصل بعد أبيه فولّاه حلب ليكاتبه أخوه بأخبار التتر ولما استقر السعيد المذكور فى نيابة حلب سار سيرة ردية وكان دأبه التحيّل على أخذ مال الرعية .

ذكر مسير الملك المظفر قطز إلى جهة الديار المصرية ومقتله

ولما قرّر الملك المظفر قطز المعزى المذكور أمر الشام على ماشرحناه سار من دمشق إلى جهة البلاد المصرية وكان قد اتفق بيبرس البندقدارى الصالحى مع انص مملوك نجم الدين الرومى الصالحى والهارونى وعلم الدين صغن أغلى على قتل المظفر قطز وساروا معه يتوقعون الفرصة فلما وصل قطز إلى القصير بطرف الرمل وبينه وبين الصالحية مرحلة وقد سبق الدهليز والعسكر إلى الصالحية فبينا قطز يسير إذ قامت أرنب بين يديه فساق عليها وساق هؤلاء المذكورون معه فلما بعدوا تقدّم إليه أنص وشفع عندالملك المظفر قطز فى إنسان فأجابه إلى ذلك فأهوى لتقبيل يده وقبض عليها فحمل عليه بيبرس البندقدارى الصالحى حينئذ وضربه بالسيف واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه ثم قتلوه بالنشاب وذلك فى سابع عشر ذى القعدة من هذه السنة فكانت مدة ملكه أحد عشر شهرًا وثلاثة عشر يوما وساق بيبرس وأولئك المذكورون بعد مقتله حتى وصلوا إلى الدهليز بالصالحية .

ذكر سلطنة بيبرس البندقدارى المذكور

ولما وصل ركن الدين بيبرس المذكور هو والجماعة الذين قتلوا الملك المظفر قطز إلى الدهليز كما ذكرناه وكان عند الدهليز نايب السلطنة فارس الدين أقطاى المستعرب وهو الذى صار أتابكا لعلى بن المعز أيبك بعد الحلبى ، فلما تسلطن قطز أقره على نيابة السلطنة ، فلما وصل بيبرس البندقدارى مع الجماعة الذين قتلوا قطز إلى الدهليز سألهم أقطاى المستعرب المذكور وقال من قتله منكم فقال له بيبرس أنا قال له أقطاى ياخوند اجلس فى مرتبة السلطنة فجلس واستدعيت العساكر للتحليف فحلفوا له فى اليوم الذى قتل فيه قطز وهو سابع عشر ذى القعدة من هذه السنة أعنى سنة ثمان وخمسين وستمائة ، واستقر بيبرس فى السلطنة وتلقب بالملك القاهر ركن الدين بيبرس الصالحى ، ثم بعد ذلك غيرّ لقبه عن الملك القاهر وتلقّب بالملك الظاهر ، لأنه بلغه أن القاهر لقب غير مبارك ما تلقّب به أحد فطالت مدّته ، وكان الملك الظاهر المذكور قد سأل من قطز النيابة بحلب فلم يجبه إليها ليكون ما قدره الله تعالى ولما حلف الناس للملك الظاهر المذكور بالصالحية ساق فى جماعة من أصحابه وسبق العسكر إلى قلعة الجبل ففتحت له ودخلها واستقرّت قدمه فى المملكة وكان قد زينت مصر والقاهرة لمقدم قطز فاستمرّت الزينة بمقدم بيبرس المذكور وكان مقتل قطز وسلطنة بيبرس فى سابع عشر ذى القعدة من هذه السنة .

ذكر إعادة عمارة قلعة دمشق

وفى هذه السنة : فى العشر الأخير من ذى القعدة شرع الأمير علم الدين سنجر الحلبى نائب السلطنة بدمشق فى عمارة قلعة دمشق وجمع لها الصنّاع وكبراء الدولة والناس وعملوا فيها حتى النساء أيضًا وكان عند الناس بذلك سرور عظيم .

ذكر سلطنة الحلبى بدمشق

كان علم الدين سنجر الحلبى وقد استنابه الملك المظفر قطز بدمشق على ما تقدّم ذكره ، فلما جرى ما ذكرناه من قتل قطز وسلطنة الملك الظاهر جمع الحلبى الناس وحلّفهم لنفسه

بالسلطنة وذلك فى العشر الأول من ذى الحجة من هذه السنة أعنى سنة ثمان وخمسين وستمائة ، فأجابه الناس إلى ذلك وحلفوا له ولم يتأخّر عنه أحد ، ولقّب نفسه الملك المجاهد وخطب له بالسلطنة وضربت السكة باسمه وكاتب الملك المنصور صاحب حماة فى ذلك فلم يجبه وقال صاحب حماة أنا مع من يملك الديار المصرية كائنا من كان .

ذكر قبض عسكر حلب على الملك السعيد ابن صاحب الموصل وعود التتر إلى الشام

وكان الملك السعيد قد قرّره قطز بحلب وجرّد معه جماعة من العزيزية والناصرية وكان رديء السيرة وقد أبغضه العسكر وبلغ الملك السعيد المذكور مسير التتر إلى البيرة فجرّد إلى جهتهم جماعة قليلة من العسكر وقدّم عليهم سابق الدين أمير مجلس الناصرى فأشار عليه كبراء العزيزية والناصرية بأن هذا ما هو مصلحة وأن هؤلاء قليلون فيحصل الطمع بسببهم فى البلاد فلم يلتفت إلى ذلك وأصرّ على مسيرهم فسار سابق الدين أمير مجلس بمن معه حتى قاربوا البيرة فوقع عليهم التتر فهرب منهم ودخل البيرة بعد أن قتل غالب من كان معه فازداد غيظ الأمراء على الملك السعيد بسبب ذلك فاجتمعوا وقبضوا عليه ونهبوا وطاقه وكان قد برز إلى باب إلى المعروف بباب الله ولما استولوا على خزانته لم يجدوا فيها مالاً طايلاً فهدّدوه بالعذاب إن لم يقر لهم بما له فنبش من تحت أشجار حايط دار ببابلى جملة من المال قيل كانت خمسين ألف دينار مصرية ففرّقت فى الأمراء وحمل الملك السعيد المذكور إلى الشغر وبكاس معتقلاً ، ثم لما اندفع العسكر من بين يدى التتر على ما سنذكره أفرجوا عنه ، ولما جرى ذلك اتفقت العزيزية والناصرية وقدّموا عليهم الأمير حسام الدين الجوكندار العزيزى ، ثم سارت التتر إلى حلب فاندفع حسام الدين الجو كندار والعسكر الذين معه بين أيديهم إلى جهة حماة ، ووصل التتر إلى حلب فى أواخر هذه السنة أعنى سنة ثمان وخمسين وستمائة وملكوها وأخرجوا أهلها إلى قرنبيا واسمها مقرّ الأنبيا فسمّاها العامّة قرنبيا ولما اجتمع المسلمون بقرنبيا بدل التتر فيهم السيف فأفنوا غالبهم وسلم القليل منهم ووصل حسام الدين الجوكندارو من معه إلى حماة فضيّفهم الملك المنصور محمد صاحب حماة وهو مستشعر خايف من غدرهم ، ثم رحلوا من حماة إلى حمص فلما قارب التتر حماة خرج منها الملك المنصور صاحبها وصحبته أخوه الملك الأفضل على والأمير مبارز الدين وباقى العسكر واجتمعوا بحمص مع باقى العساكر إلى أن خرجت هذه السنة .

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وستمائة :

ذكر كسرة التتر على حمص

وفى يوم الجمعة خامس المحرم من هذه السنة كانت كسرة التتر على حمص ، وكان من حديثها أن التتر لما قدموا فى آخر السنة الماضية إلى الشام اندفعت العزيزية والناصرية من بين أيديهم ، وكذلك الملك المنصور صاحب حماة ووصلوا إلى حمص واجتمع بهم الملك الأشرف صاحب حمص ووقع اتفاقهم على ملتقى التتر وسارت التتر إليهم والتقوا بظاهر حمص فى نهار الجمعة المذكور وكانت التتر أكثر من المسلمين بكثير ففتح الله تعالى على المسلمين بالنصر وولى التتر منهزمين وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون منهم كيف شاء ووصل الملك المنصور إلى حماة بعد هذه الوقعة وانضمّ من سلم من التتر إلى باقى جماعتهم وكانوا نازلين قرب سَلَمْيَة واجتمعوا ونزلوا على حماة ولها صاحبها الملك المنصور وأخوه الملك الأفضل والعسكر وأقام التتر على حماة يومًا واحدًا ثم رحلوا عن حماة وأراد الملك المنصور بعد رحيل التتر المسير إلى دمشق فمنعه العامة من ذلك حتى استوثقوا منه أنه يعود إليهم عن قريب فسافر هو وأخوه الملك الأفضل فى جماعة قليلة وبقى الطواشى مرشد فى باقى العسكر بحماة ووصل المنصور بمن معه إلى دمشق وكذلك توجّه الملك الأشرف صاحب حمص إلى دمشق وأما حسام الدين الجوكندار العزيزى فتوجه أيضًا بمن فى صحبته ولم يدخل دمشق ونزل بالمرج ثم سار إلى مصر وأقام صاحب حماة وصاحب حمص بدمشق فى دورهما والحاكم بها يومئذ سنجر الحلبى الملقّب بالسلطان الملك المجاهد وقد اضطرب أمره ولذلك أقام صاحب حماة وصاحب حمص بدمشق ولم يدخلا فى طاعته لضعفه وتلاشى أمره وأما التتر فساروا عن حماة إلى فامية وكان قد وصل إلى فامية سيف الدين الدنبلى الأشرفى ومعه جماعة فأقام بقلعة فامية وبقى يغير على التتر فرحلوا عن فامية وتوجّهوا إلى الشرق .

ذكر القبض على سنجر الحلبى الملقب بالملك المجاهد

وفى هذه السنة : جهّز الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر عسكرا مع علاء الدين البندقدار وهو أستاذ الملك الظاهر لقتال علم الدين سنجر الحلبى المستولى على دمشق فوصلوا إلى دمشق فى ثالث عشر صفر من هذه السنة ، ولما وصل عسكر مصر إلى دمشق خرج إليهم الحلبى

لقتالهم ، وكان صاحب حماة وصاحب حمص مقيمين بدمشق لم يخرجا مع الحلبى لقتالهم ولا أطاعاه لاضطراب أمر الحلبى واقتتل معهم بظاهر دمشق فى ثالث عشر صفر من هذه السنة ، أعنى سنة تسع وخمسين وستمائة فولى الحلبى وأصحابه منهزمين ودخل إلى قلعة دمشق إلى أن جنه الليل فهرب من قلعة دمشق إلى جهة بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وحمل إلى الديار المصرية فاعتقل ثم أطلق واستقرت دمشق فى ملك الملك الظاهر بيبرس وأقيمت له الخطبة بها وبغيرها من الشام مثل حماة وحلب وحمص وغيرها واستقر أيدكين البندقدار الصالحى فى دمشق لتدبير أمورها ولما استقر الحال على ذلك رحل الملك المنصور صاحب حماة والملك والأشرف صاحب حمص وعادا إلى بلادهما واستقرا بها .

ذكر خروج البرلى عن طاعة الملك الظاهر بيبرس واستيلاؤه على حلب

وفى هذه السنة : بعد استقرار علاء الدين أيدكين البندقدار فى دمشق ورد عليه مرسوم الملك الظاهر بيبرس بالقبض على بهاء الدين بغدى الأشرفى وعلى شمس الدين أقوش البرلى وغيرهما من العزيزية والناصرية وبقى علاء الدين أيدكين متوقعا ذلك فتوجه بغدى إلى علاء الدين أيدكين فحال دخوله عليه قبض على بغدى المذكور فاجتمعت العزيزية والناصرية إلى أقوش البرلى وخرجوا من دمشق ليلا على حمية ونزلوا بالمرج ، وكان أقوش البرلى قد ولاه المظفر قطز غزة والسواحل على ما قدّمنا ذكره ، فلما جهّز الملك الظاهر أستاذه البندقدار إلى قتال الحلبى أرسل إلى البرلى وأمره أن ينضمّ إليه فسار البرلى مع البندقدار وأقام بدمشق ، فلما قبض على بغدى خرج البرلى إلى المرج وأرسل علاء الدين أيدكين البندقدار إلى البرلى يطيب قلبه ويحلف له فلم يلتفت إلى ذلك ، وسار البرلى إلى حمص وطلب من صاحبها الأشرف موسى أن يوافقه على العصيان فلم يجبه إلى ذلك ، ثم توجه إلى حماة وأرسل يقول للملك المنصور صاحب حماة إنه لم يبق من البيت الأيوبى غيرك وقم لنصير معك ونملكك البلاد فلم يلتفت الملك المنصور إلى ذلك وردّه ردّا قبيحا ، فاغتاظ البرلى ونزل على حماة وأحرق زرع بيدر العشر وسار إلى شَيْزَرْ ثم إلى جهة حلب وكان علاء الدين أيدكين البندقدار لما استقر بدمشق قد جهّز عسكرا صحبة فخر الدين الحمصى للكشف عن البيرة فان التتر كانوا قد نازلوها فلما قدم البرلى إلى حلب كان بها فخر الدين الحمصى المذكور فقال له البرلى نحن فى طاعة الملك الظاهر فتمضى إلى السلطان وتسأله ان يتركنى ومن فى صحبتى مقيمين بهذا الطرف وتكون تحت طاعته من غير ان يكلفنى وطىء بساطة فسار الحمصى إلى جهة مصر ليؤدّى هذه الرسالة فلما سار عن حلب تمكّن البرلى واحتاط على ما فى حلب من الحواصل واستبد بالأمر وجمع العرب

والتركمان واستعدّ لقتال عسكر مصر ولما توجه فخر الدين الحمصى لذلك التقى فى الرمل جمال الدين المحمدى الصالحى متوجها بمن معه من عسكر مصر لقتال البرلى وإمساكه فأرسل الحمصى عرّف الملك الظاهر بما طلبه البرلى فأرسل الملك الظاهر ينكر على فخر الدين الحمصى المذكور ويأمره بالانضمام إلى المحمدى والمسير إلى قتال البرلى فعاد من وقته ثم رضى الملك الظاهر عن علم الدين سنجر الحلبى وجهّزه وراء المحمدى فى جمع من العسكر ثم أردفه بعزّ الدين الدمياطى فى جمع آخر وسار الجميع إلى جهة البرلى وساروا إلى حلب وطردوه عنها وانقضت السنة والأمر على ذلك .

ذكر مقتل الملك الناصر يوسف

وفى هذه السنة : ورد الخبر بمقتل الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازى ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وعقد عزاه بجامع دمشق فى سابع جمادى الأولى من هذه السنة ، أعنى سنة تسع وخمسين وستمائة ، وصورة الحال فى قتله أنه لما وصل إلى هولاكو على ما قدّمنا ذكره وعده بردّه إلى ملكه وأقام عند هولاكو مدة ، فلما بلغ هولاكو كسرة عسكره بعين جالوت وقتل كتبغا ثم كسرة عسكره على حمص ثانيا غضب من ذلك وأحضر الملك الناصر المذكور وأخاه الملك الظاهر غازى وقال له أنت قلت إن عسكر الشام فى طاعتك فغدرت بى وقتلت المغل فقال الملك الناصر لو كنت بالشام ماضرب أحد فى وجه عسكرك بالسيف ومَنْ يكون ببلاد أوريز كيف يحكم على بلاد الشام فاستوفى هولاكو لعنه الله ناصحا وضربه به فقال الملك الناصر باخوند الصنيعة فنهاه أخوه الظاهر وقال قد حضرت ثم رماه بفردة ثانية فقتله ثم أمر بضرب رقاب الباقين فقتلوا الظاهر أخا الملك الناصر والملك الصالح ابن صاحب حمص والجماعة الذين كانوا معهم واستبقوا الملك العزيز ابن الملك الناصر لأنه كان صغيرا فبقى عندهم مدة طويلة وأحسنوا إليه ثم مات ، وكان قد تولى الملك الناصر المذكور مملكة حلب بعد موت أبيه العزيز وعُمره سبع سنين وأقامت جدته ضيفة خاتون بنت الملك العادل بتدبير مملكته واستقل بالملك بعد وفاتها فى سنة أربعين وستمائة وعمره ثلاث عشرة سنة وزاد ملكه على ملك أبيه وجدّه فإنه ملك مثل حران والرها والرقة وراس عين وما مع ذلك من البلاد وملك حمص ثم ملك دمشق وبعلبك والأغوار والسواحل إلى غزة وعظم شأنه وكسر عساكر مصر وخطب له بمصر وبقلعة الجبل على الوجه الذى تقدم ذكره ، وكان قد غلب على الديار المصرية لولا هزيمته وقتل مدبّر دولته شمس الدين لولو الأرمنى ومخامرة مماليك أبيه العزيزية ، وكان يذبح فى مطبخه كل يوم أربعمائة رأس غنم .،

وكانت سماطاته وتجمله فى الغاية القصوى ، وكان حليما وتجاوز به الحلم إلى حد أضر بالمملكة ، فإنه لما أمنت قطاع الطريق فى أيام مملكته من القتل والقطع تجاوزوا الحدّ فى الفساد بالمملكة وانقطعت الطرق فى أيامه وبقى لايقدر المسافر على السفر من دمشق إلى حماة وغيرها إلا برفقة من العسكر وكثر طمع العرب والتركمان فى أيامه وكثرت الحرامية وكانوا يكبسون الدور ومع ذلك إذا احضر القاتل إلى بين يدى الملك الناصر المذكور يقول الحى خير من الميت ويطلقه فأدى ذلك إلى انقطاع الطرقات وانتشار الحرامية والمفسدين وكان على ذهن الناصر المذكور شئ كثير من الأدب والشعر ويروى له أشعار كثيرة منها :

فوالله لو قطّعت قلبى تأسّفا وجرّعتنى كاسات دمعى دما صرفا
لما زادنى إلا هوى ومحبّة ولا اتخذت روحى سواك لها إلفا

وبنى بدمشق مدرسة قريب الجامع تعرف بالناصرية ووقف عليها وقفا جليلاً وبنى بالصالحية تربة غرم عليها جملاً مستكثرة فدفن بها كرمون وهو بعض أمراء التتر وكانت منية الملك الناصر ببلاد العجم وكان مولد الناصر المذكور فى سنة سبع وعشرين وستمائة فيكون عمره اثنتين وثلاثين سنة تقريبًا .

ذكر مبايعة شخص بالخلافة وإثبات نسبه

وفى هذه السنة : فى رجب قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد زعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله محمد ابن الإمام الناصر وأنه خرج من دار الخلافة ببغداد لما ملكها التتر فعقد الملك الظاهر بيبرس مجلسًا حضر فيه جماعة من الأكابر منهم الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام ، والقاضى تاج الدين عبد الوهاب ابن خلف المعروف بابن بنت الأعز فشهد أولئك العرب أن هذا الشخص المذكور هو ابن الظاهر محمد ابن الإمام الناصر فيكون عم المستعصم وأقام القاضى جماعة من الشهود اجتمعوا بأولئك العرب وسمعوا شهاداتهم ثم شهدوا بالنسب بحكم الاستفاضة فأثبت القاضى تاج الدين نسب أحمد المذكور ولقب المستنصر بالله أبا القاسم أحمد ابن الظاهر بالله محمد وبايعه الملك الظاهر والناس بالخلافة واهتمّ الملك الظاهر بأمره وعمل له الدهاليز والجمدارية وآلات الخلافة واستخدم له عسكرًا وغرم على تجهيزه جملاً طايلة قيل إن قدر ما غرمه عليه ألف ألف دينار ، وكانت العامّة تلقب الخليفة المذكور بالزرابينى وبرز الملك الظاهر والخليفة الأسود المذكور فى رمضان من هذه السنة وتوجها إلى دمشق وكان فى كل منزلة يمضى الملك الظاهر إلى دهليزه الخاص به ولما وصلا إلى دمشق نزل الملك الظاهر بالقلعة ونزل الخليفة فى جبل الصالحية ونزل حول الخليفة أمراؤه

وأجناده ثم جهّز الخليفة بعسكره إلى جهة بغداد طمعًا فى أن يستولى على بغداد ويجتمع عليه الناس فسار الخليفة الأسود بعسكره من دمشق وركب الملك الظاهر وودّعه ووصاه بالتأنّى فى الأمور ثم عاد الملك الظاهر إلى دمشق من توديع الخليفة ثم سار إلى الديار المصرية ودخلها فى سابع عشر ذى الحجة من هذه السنة ، ووصلت إليه كتب الخليفة بالديار المصرية أنه قد استولى على عانه والحديثة وولّى عليهما وأن كتب أهل العراق وصلت إليه يستحثّونه على الحضور إليهم ثم قبل أن يصل إلى بغداد وصلت إليه التتر وقتلوا الخليفة المذكور وقتلوا غالب أصحابه ونهبوا ما كان معهم وجاءت الأخبار بذلك .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : لما سار الملك الظاهر إلى الشام أمر القاضى شمس الدين ابن خلكان فسافر فى صحبته من مصر إلى الشام فعزل عن قضاء دمشق نجم الدين ابن صدر الدين بن سنا الدولة وكان قطز قد عزل المحيى بن الزكىّ الذى ولّاه هولاكو القضاء وولى ابن سنا الدولة فعزله الملك الظاهر فى هذه السنة ، وولى القضاء شمس الدين ابن خلكان .

وفيها : قدم أولاد صاحب الموصل وهم الملك الصالح إسماعيل ثم أخوه الملك المجاهد اسحق صاحب جزيرة ابن عمر ثم أخوهما الملك المظفر على صاحب سنجار أولاد لولو فأحسن الملك الظاهر إليهم وأعطاهم الإقطاعات الجليلة بالديار المصرية واستمرّوا فى أرغد عيش فى طول مدة الملك الظاهر .

وفيها : فى ربيع الآخر وردت الأخبار من ناحية عكا أن سبع جزر فى البحر خسف بها وبأهلها وبقى أهل عكا لابسين السواد وهم يبكون ويستغفرون من الذنوب بزعمهم .

وفيها : جهّز الملك الظاهر بيبرس بدر الدين الأيدمرى فتسلّم الشوبك فى سلخ ذى الحجة من هذه السنة أعنى سنة تسع وخمسين وستمائة وأخذها من الملك المغيث صاحب الكرك .

ثم دخلت سنة ستين وستمائة :

فى هذه السنة : فى نصف رجب وردت جماعة من مماليك الخليفة المستعصم البغاددة وكانوا قد تأخروا فى العراق بعد استيلاء التتر على بغداد ، وقتل الخليفة وكان مقدّمهم يقال له شمس الدين سلار فأحسن الملك الظاهر بيبرس ملتقاه وعيّن لهم الإقطاعات بالديار المصرية .

وفيها : فى رجب أيضًا وصل إلى خدمة الملك الظاهر بيبرس بالديار المصرية غماد الدين

ابن مظفر الدين صاحب صهيون رسولا من أخيه سيف الدين صاحب صهيون وصحبته هدية جليلة فقبلها الملك الظاهر وأحسن إليه .

وفيها : جهّز الملك الظاهر عسكرًا إلى حلب وكان مقدّمهم شمس الدين سنقر الرومى فأمنت بلاد حلب وعادت إلى الصلاح ثم تقدّم الملك الظاهر بيبرس إلى سنقر الرومى وإلى صاحب حماة الملك المنصور وإلى صاحب حمص الملك الأشرف موسى أن يسيروا إلى أنطاكية وبلادها للإغارة عليها فساروا إليها ونهبوا بلادها وضايقوها ثم عادوا فتوجهت العساكر المصرية صحبة سنقر الرومى إلى مصر ووصلوا إليها فى تاسع عشرين رمضان من هذه السنة ومعهم ما ينوف عن ثلثمائة أسير فقابلهم الملك الظاهر بالإحسان والإنصاف .

وفيها : لما ضاقت على أقوس البرلى البلاد وأخذت منه حلب ولم يبق بيده غير البيرة دخل فى طاعة الملك الظاهر وسار إليه فكتب الملك الظاهر إلى النواب بالإحسان إليه وترتيب الإقامات له فى الطرقات حتى وصل إلى الديار المصرية فى ثانى الحجة من هذه السنة أعنى سنة ستين فتلقّاه الملك الظاهر وبالغ فى الإحسان إليه وأكثر له العطا فسأل أقوش البرلى من الملك الظاهر أن يقبل منه البيرة فلم يفعل وما زال يعاوده حتى قبلها وبقى أقوش البرلى العزيزى المذكور مع الملك الظاهر إلى أن تغيّر عليه وقبضه فى رجب سنة إحدى وستين وستمائة فكان آخر العهد به .

وفيها : فى ذى القعدة قبض الملك الظاهر على نائبه بدمشق وهو علاء الدين بيبرس الوزيرى وكان قد تولى دمشق بعد مسير علاء الدين أيدكين البندقدار عنها وسبب القبض عليه أنه بلغ الملك الظاهر عنه أمور كرهها فأرسل إليه عسكرا مع عز الدين الدمياطى وغيره من الأمراء فلما وصلوا إلى دمشق خرج بيبرس لتلقيهم فقبضوا عليه وقيّدوه وأرسلوه إلى مصر فحبسه الملك الظاهر واستمرّ الحاج بيبرس فى الحبس سنة وشهرًا وكانت مدّة ولايته بدمشق سنة وشهرًا أيضًا وكان بيبرس المذكور ردىء السيرة فى أهل دمشق حتى نزح عنها جماعة كثيرة من ظلمه وحكم فى دمشق بعد قبض بيبرس المذكور علاء الدين أيدى كان الحاج الركنى ثم استناب الملك الظاهر على دمشق الأمير جمال الدين أقوش النجيبى الصالحى .

وفيها : فى يوم الخميس فى أواخر ذى الحجة من هذه السنة أعنى سنة ستين وستمائة جلس الملك الظاهر مجلسًا عامًا وأحضر شخصًا كان قد قدم إلى الديار المصرية فى سنة تسع وخمسين وستمائة من نسل بنى العباس يسمى أحمد بعد أن أثبت نسبه وبايعه بالخلافة ولقب أحمد المذكور الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين وقد اختلف فى نسبه فالذى هو مشهور بمصر عند نسّابة مصر أنه أحمد بن حسن بن أبى بكر ابن الأمير أبى على القبى ابن الأمير حسن بن الراشد بن المسترشدا بن المستظهر ، وقد مرّ نسب المستظهر مع جملة خلفاء بنى العباس وأما عند الشراف

العباسيين السلمانيين فى درج نسبهم الثابت فقالوا هو أحمد بن أبى بكر على ابن أبى بكر أحمد بن الإمام المسترشد الفضل بن المستظهر ، ولما أثبت الملك الظاهر نسب المذكور نزله فى برج محترزا عليه وأشرك له الدعاء فى الخطبة لا غير ذلك .

وفيها : جهّز الملك المنصور صاحب حماة شيخ الشيوخ شرف الدين الأنصارى رسولاً إلى الملك الظاهر ووصل شيخ الشيوخ المذكور فوجد السلطان الملك الظاهر عاتبًا على صاحب حماة لاشتغاله عن مصالح المسلمين باللهو وأنكر الملك الظاهر على الشيخ شرف الدين ذلك ثم انصلح خاطره وحمله ما طيّب به قلب صاحبه الملك المنصور ثم عاد إلى حماة .

وفيها : توفى الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقى الإمام فى مذهب الشافعى ، وله مصنفات جليلة فى المذهب وكانت وفاته بمصر رحمه الله تعالى .

وفيها : فى ذى الحجة توفى الصاحب كمال الدين عمر بن عبد العزيز المعروف بابن العديم انتهت إليه رياسة أصحاب أبى حنيفة وكان فاضلاً كبير القدر ألف تاريخ حلب وغيره من المصنفات وكان قد قدم إلى مصر لما جفل الناس من التتر ثم عاد بعد خراب حلب إليها فلما نظر ما فعله التتر من خراب حلب وقتل أهلها بعد تلك العمارة قال فى ذلك قصيدة طويلة منها :

هو الدهر ما تبنيه كفّاك يهدم ... وإن رمت إنصافًا لديه فيظلم
أباد ملوك الفرس جمعا وقيصرا ... وأصمت لدى فرسانها منه أسهم
وأفنى بنى أيوب مع كثر جمعهم ... وما منهم إلاّ مليك معظّم
وملك بنى العباس زال ولم يدع ... لهم أثرًا من بعدهم وهم هم
وأعتابهم أضحت تداس وعهدها ... تباس بأفواه الملوك وتلثم
وعن حلب ما شئت قل من عجايب ... أحل بها يا صاح إن كنت تعلم

ومنها :

فيا لك من يوم شديد لغامه ... وقد أصبحت فيه المساجد تهدم
وقد درست تلك المدارس وارتمت ... مصاحفها فوق الثرى وهى ضخم

وهى طويلة وآخرها :

ولكنما لله فى ذا مشيئة ... فيفعل فينا ما يشاء ويحكم

ثم دخلت سنة إحدى وستين وستمائة :

ذكر مسير الملك الظاهر إلى الشام

فى هذه السنة : فى حادى عشر ربيع الآخر سار الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية إلى الشام فلاقته والدة الملك المغيث عمر صاحب الكرك بغزة وتوثقت لابنها الملك المغيث من الملك الظاهر بالأمان وأحسن إليها ثم توجّهت إلى الكرك وتوجّه صحبتها شرف الدين الجاكى المهمندار يرسم حمل الإقامات إلى الطرقات برسم الملك المغيث ثم سار الملك الظاهر من غزة ووصل إلى الطور فى ثانى عشر جمادى الأولى من هذه السنة ، ووصل إليه على الطور الأشرف موسى صاحب حمص فى نصف الشهر المذكور فأحسن إليه الملك الظاهر وأكرمه .

ذكر حضور الملك المغيث صاحب الكرك وقتله واستيلاء الملك الظاهر بيبرس على الكرك

فى هذه السنة : كان مقتل الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك العادل أبى بكر ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب صاحب الكرك وسببه أنه كان فى قلب الملك الظاهر بيبرس منه غيظ عظيم لأمور كانت بينهما قيل إن المغيث المذكور أكره امرأة الملك الظاهر بيبرس لما قبض المغيث على البحرية وأرسلهم إلى الناصر يوسف صاحب دمشق وهرب الملك الظاهر بيبرس المذكور وبقيت امرأته فى الكرك والله أعلم بحقيقة ذلك وكان من حديث مقتله أن الملك الظاهر بيبرس ما زال يجتهد على حضور المغيث المذكور وحلف لوالدته على غزة كما تقدّم ذكره ، وكان عند المغيث شخص يسمى الأمجد وكان يبعثه فى الرسيلة إلى الملك الظاهر فكان الظاهر يبالغ فى إكرامه وتقريبه فاغترّ الأمجد بذلك وما زال على مخدومه الملك المغيث حتى أحضره إلى الملك الظاهر حكى لى شرف الدين ابن مزهر وكان ابن مزهر المذكور ناظر خزانة المغيث قال لما عزم المغيث على التوجّه إلى خدمة الملك الظاهر لم يكن قد بقى فى خزانته شئ من المال ولا القماش وكان لوالدته حواصل فى البلاد فبعناها بأربعة وعشرين ألف درهم واشترينا باثنى عشر ألف درهم خلعًا من دمشق وجعلنا فى صناديق الخزانة الاثنى عشر الألف الأخرى ونزل المغيث من الكرك وأنا والأمجد وجماعة من أصحابه معه فى خدمته قال وشرعت البريدية تصل إلى الملك المغيث فى كل يوم بمكاتبات الملك الظاهر ويرسل صحبتهم مثل غزلان ونحوها

والمغيث يخلع عليهم حتى نفد ما كان بالخزانة من الخلع ومن جملة ما كتب إليه فى بعض المكاتبات المملوك تنشد فى قدوم مولانا :

خليلىّ هل أبصرتما أو سمعتما بأكرم من مولى يمشى إلى عبد

قال وكان الخوْف فى قلب المغيث شديدًا من الملك الظاهر قال ابن مزهر المذكور ففاتحنى فى شىء من ذلك بالليل فقلتُ له احلف إلى أنك لا تقول للأمجد ما أقوله لك حتى أنصحك فحلف لى فقلت له اخرج الساعة من تحت الخام واركب حجرتك النجيلة ولا يصبح لك الصباح إلاّ وأنت قد وصلت إلى الكرك فتعصى فيه ولا تفكر بأحد قال ابن مزهر فغافلنى وتحدّث مع الأمجد فى شىء من ذلك فقال له الأمجد هذا رأى ابن مزهر إياك من ذلك وسار المغيث حتى وصل إلى بيسان فركب الملك الظاهر بعساكره والتقاه فى يوم السبت السابع والعشرين من جمادى الأولى من هذه السنة ، فلما شاهد المغيث الملك الظاهر ترجّل فمنعه الملك الظاهر وأركبه وساق إلى جانبه وقد تغيّر وجه الملك الظاهر فلما قارب الدهليز أفرد الملك المغيث عنه وأنزله فى خيمة وقبض عليه وأرسله معتقلاً إلى مصر فكان آخر العهد به قيل إنه حمل إلى امرأة الملك الظاهر بيبرس بقلعة الجبل فأمرت جواريها فقتلته بالقباقيب ثم قبض الملك الظاهر على جميع أصحاب المغيث ومن جملتهم ابن مزهر المذكور ثم بعد ذلك أفرج عنهم انتهى كلام ابن مزهر .

ولما التقى بالملك الظاهر بيبرس الملك المغيث المذكور وقبض عليه أحضر الفقهاء والقضاة وأوقفهم على مكاتبات من التتر إلى الملك المغيث أجوبة عن ما كتب إليهم به فى أطماعهم فى ملك مصر والشام وكتب فى ذلك مشروح وأثبت على الحكّام وكان للملك المغيث المذكور ولد يقال له الملك العزيز أعطاه الملك الظاهر إقطاعًا بديار مصر وأحسن إليه ثم جهّز الملك الظاهر بدر الدين البيسرى الشمسى وعز الدين أستاذ الدار إلى الكرك فتسلماها فى يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة أعنى سنة إحدى وستين وستمائة ، ثم سار الملك الظاهر ووصل إلى الكرك ورتّب أمورها ثم عاد إلى الديار المصرية فوصل إليها فى سابع عشر رجب من هذه السنة .

ذكر الإغارات على عكّا وغيرها

وفى هذه السنة : لما كان الملك الظاهر نازلاً على الطور أرسل عسكرًا هدموا كنيسة الناصرة وهى من أكبر مواطن عبادات النصارى لأن منها خرج دين النصرانية وأغاروا على عكا وبلادها فغنموا وعادوا ثم ركب الملك الظاهر بنفسه وجماعة اختارهم وأغار ثانيًا على عكا وبلادها وهدم برجا كان خارج البلد وذلك عقيّب إغارة عسكره وهدم الكنيسة الناصرة .

ذكر القبض على من يذكر

وفيها : بعد وصول الملك الظاهر بيبرس إلى مصر واستقراره فى ملكه فى رجب قبض على الرشيدى ثم قبض فى ثانى يوم على الدمياطى والبرلى وقد تقدّمت أخبار البرلى المذكور .

ذكر وفاة الأشرف صاحب حمص

وفى هذه السنة : بعد عود الملك الأشرف صاحب حمص موسى ابن الملك المنصور إبراهيم ابن الملك المجاهد شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شاذى من خدمة الملك الظاهر بيبرس إلى حمص مرض واشتدّ به المرض وتوفى إلى رحمة الله تعالى وأرسل الملك الظاهر وتسلّم حمص فى ذى القعدة من هذه السنة أعنى سنة إحدى وستين وستمائة وهذا الملك الأشرف موسى هو آخر من ملك حمص من بيت شيركوه ، وقد تقدّمت أخبار الأشرف موسى المذكور وأخذ الملك الناصر يوسف صاحب حلب منه حمص بسبب تسليمه شيميس للملك الصالح أيوب صاحب مصر وأنه يعوّض عن حمص تل باشر ثم أعاد هولاكو عليه حمص فبقيت فى يده حتى توفى فى أواخر هذه السنة وانتقلت حمص إلى مملكة الملك الظاهر بيبرس فى ذى القعدة كما تقدّم ذكره وكان جملة من ملك حمص منهم خمسة ملوك أولهم شيركوه بن شاذى ملّكه إياها نور الدين الشهيد ثم ملكها من بعده ابنه ناصر الدين محمد بن شيركوه ثم ملّكها بعده ابنه شيركوه بن محمد وتلقب بالملك المجاهد ثم ملكها بعده ابنه إبراهيم بن شيركوه وتلقب بالملك المنصور ثم ملكها بعده ابنه موسى بن إبراهيم وتلقب بالملك الأشرف حتى توفى فى هذه السنة وانقرض بموته ملك المذكورين .

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وستمائة :

فى هذه السنة : قبض الأشكرى صاحب القسطنطينية على عز الدين كيكاؤس بن كيخسرو بن كيقباذ صاحب بلد الروم وسببه أن عز الدين كيكاؤس المذكور كان قد وقع بينه وبين أخيه فاستظهر أخوه عليه فهرب كيكاوس وبقى أخوه ركن الدين قليج أرسلان فى سلطنة بلاد الروم ، ثم سار كيكاوس المذكور إلى قسطنطينية فأحسن إليه الأشكرى صاحب قسطنطينية وإلى من معه من الأمراء واستمرّوا كذلك مدة ، فعزمت الأمراء والجماعة الذين كانوا مع عز الدين المذكور على اغتيال الأشكرى وقتله والتغلّب على قسطنطينية وبلغ ذلك

الأشكرى فقبض عليهم واعتقل عز الدين كيكاوس بن كيخسرو فى بعض القلاع وكحل الأمراء والجماعة الذين كانوا عزموا على ذلك فأعمى عيونهم وقد تقدّم ذكر كيكاوس المذكور وأخيه قليج آرسلان فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .

وفيها : فى ثامن شهر رمضان توفى الشيخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الأنصارى المعروف بشيخ الشيوخ بحماة وكان مولده فى جمادى الأولى سنة ست وثمانين وخمسمائة رحمه الله تعالى وكان ديّنا فاضلاً متقدّما عند الملوك وله النثر البديع والنظم الفايق وكان غزير العقل عارفاً بتدبير المملكة فمن حسن تدبيره أن الملك الأفضل على ابن الملك المظفر محمود لما ماتت والدته غازية خاتون بنت الملك الكامل رحمها الله تعالى ، حصل عند الملك الأفضل المذكور استشعار من أخيه الملك المنصور محمد صاحب حماة فعزم على أن ينتزح من حماة ويفارق أخاه الملك المنصور وأذن له أخوه الملك المنصور فى ذلك ، فاجتمع الشيخ شرف الدين المذكور بالملك الأفضل وعرّفه ما يعتمده من السلوك مع أخيه الملك المنصور ثم اجتمع بالملك المنصور وقبّح عنده مفارقة أخيه وما برح بينهما حتى أزال ما كان فى خواطرهما وصار للملك الأفضل فى خاطر أخيه الملك المنصور من المحبّة والمكانة ما يفوت الوصف وكان ذلك من بركة شرف الدين المذكور وللشيخ شرف الدين المذكور أشعار فايقة قد تقدّم ذكر بعضها وكان مرة مع الملك الناصر يوسف صاحب الشام بعمان فعمل الشيخ شرف الدين :

أفدى حبيبًا منذ واجهته   عن وجه بدر التمام أغنانى
فى وجهه خالان لولاهما   ما بتّ مفتونًا بعمان

وأنشدهما الملك الناصر فأعجبته إلى النهاية وجعل يردّد إنشادهما وقال لكاتبه كمال الدين ابن العجمى هكذا تكون الفضيلة فقال ابن العجمى إن التورية لا تخدم هنا لأن عمان مجرورة فى النظم فلا تخدمه فى التورية فقال الملك الناصر للشيخ شرف الدين ما قاله .

فقال الشيخ شرف الدين إن هذا جايز وهو أن يكون المثنى فى حال الجر على صورة الرفع واستشهد شرف الدين بقول الشاعر :

فأطرق إطراق الشجاع ولو رأى   مساغا لنباه الشجاع لصمّما

واستشهد بغير ذلك فتحقّق الملك الناصر فضيلته .

تم الجزء الثالث من تاريخ أبى الفدا
ويليه الجزء الرابع وأوله
ذكر فتوح قيسارية

الفهــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع		١٩٩٩/٢٧٠٤
الترقيم الدولى	977-02-5712-7	ISBN

١/٩٢/٨٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)